روسيا في عيون مصرية

جينادي جورياتشكين

الطبعة ١
٢٠١٥

دار نشر أنباء روسيا
Russia News



روسيا فى عيون مصرية

جينـادى جورياتشـكين

دار نشر
أنباء روسيا
Russia News

الناشر



رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
د. حسين الشافعي
h.elshafie57@mail.ru
المراسلات
القاهرة - مدينة العبور
44971 مكتب بريد جمعية أحمد عرابي
ص. ب. 72
Tel. & Fax: + (202) 24 77 38 70 & 71
E-mail: secertary_ert@yahoo.com

ترجمة
وليد طلبة
مراجعة
د. محمد رياض

الإخراج الفني
مي مجدى

التصحيح والمراجعة
حامد أحمد محمد

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور - القاهرة
Tel. & Fax: + (202) 4478 96 44 & 46

الطبعة الأولى 2015
دار نشر أنباء روسيا

رقم الإيداع
2014/15423

بالتعاون مع
الجمعية المصرية الروسية للثقافة والعلوم

رئيس مجلس الأمناء — رئيس مجلس الإدارة
ا.د فيتالى ناؤمكين — د.حسين الشافعى

جوريا تشكن .ف.ج

روسيا فى عيون المصرية
(بداية القرن العشرين)



2015

يحتوي هذا الكتاب على ترجمة المؤلف للإنطباعات التى
كونها ثلاثة مواطنين مصريين أثناء تواجدهم في روسيا بداية القرن
العشرين .

الأول الشاعر والصحفي محمد طلعت، الذي كان يعمل في روسيا محررًا في
جريدة "التلميذ" الصادرة باللغة العربية في سانت بطرسبورج منذ أكتوبر عام 1906م
وحتى نهاية شهر مايو عام 1907م .

والمواطن الثانى الأمير محمد علي، الذي قام "برحلة إلي اليابان" عبر خط السكك
الحديدية حديث الإنشاء من موسكو إلي الجار الشرقى لروسيا عام 1909م .

و المواطن الثالث الرئيس السابق لمحكمة مصر العليا "محمود رشيد"، الذي جاب
الإمبراطورية الروسية من جنوبها الى شمالها قبيل الحرب العالمية الأولي. وتنقل الأخير
بين القرم وشمال وجنوب القوقاز، بالإضافة إلي قيامه برحلة بحرية عبر نهر الفولجا من
أستراخان حتى رايبانسك، ومنها انطلق إلي بطرسبورج.

وبفضل مذكرات تلك الرحلات، التي قام المؤلف بترجمتها مع بعض الإختصارات، أصبح
لدى المصريين في بداية القرن العشرين تصور واضح عن الجوانب الإجتماعية الإقتصادية،
والإجتماعية السياسية في حياة الروس، وظروف عملهم ومعيشهم، لا سيما المسلمين
منهم.

ان اطلاع القارىء الروسي في الوقت الحاضر علي انطباعات المصريين عن روسيا
آنذاك يتيح له الفرصه ان يتعرف لوجهة نظرهم تجاه روسيا البعيدة وتقييمهم
لبواكير العلاقات الكبيره نسبيا بين البلدين.

يستهدف الكتاب طلاب المعاهد العليا وطلاب المدارس
والمهتمين بتاريخ الشرق والعلاقات الدولية.

الناشر

دار نشر أنباء روسيا
2014

المقدمه

لا يمكن لسكان بلاد الأهرامات الجزم بأنهم قاموا بعدد من الرحلات إلي روسيا، يضاهي رحلات الروس إلي مصر؛ حيث قام الروس بالعديد من الرحلات إلي مصر في العصور الوسطى وفي العصر الحديث . فقيام المصريين برحلات متكررة إلي الإمبراطورية الروسية كان يتطلب إجراءات محددة تحكمها العديد من العوامل الإقتصادية والسياسية .

تعود باكورة العلاقات السياسية الكبيرة بين روسيا ومصر – أكبر ولاية ذات حكم شبه ذاتي في الإمبراطورية العثمانية – إلي الثلث الإخير من القرن الثامن عشر ، عندما اتخذت إمبراطورة روسيا كاترينا الثانية (1796-1762) قرارًا بتقديم الدعم إلي علي بك الكبير، الذي حاول الانفصال عن الامبراطوريه التركيه. مع هذا لم يحقق هذا الدعم الأهداف المرجوة. انتهت الحرب الروسية-التركية (1774-1768) بإبرام معاهدة كيتشوك كاينارجي (معاهدة سلام بين روسيا والدولة العثمانية انعقدت في 21 يوليو 1774 في معسكر قرب قرية كيتشوك كاينارجي التي تقع في بلغاريا المعاصرة. تعليق المترجم) والتي قامت روسيا ومصر بمقتضاها بتبادل الممثلين الدبلوماسيين.[1] كما أنشأت قنصلية عامة في الإسكندرية.

بأمر من كاترينا الثانية في الأول من ديسمبر عام 1784م عُين كوندراتي (كونراد) فون تونوس (الذي يعود أصله إلي ألمان بحر البلطيق) ممثلًا دبلوماسيًا للإمبراطورية الروسية في الإسكندرية. وصل كونراد إلي مصر في الأول من يوليو عام 1785م ، و و بعث في الرابع والعشرين من يوليو أول رسالة إلي سانت بطرسبورج. ظل أول دبلوماسي روسي في بلاد الأهرامات يدعم مساعي الحكام المماليك المحليين للإنفصال عن تركيا حتى آخر يوم في حياته. علي الرغم من اعتراض السلطات المصرية في الثامن والعشرين من سبتمبر عام 1789م ظل كوندراتي فون تونوس يعمل في الإسكندرية علي فترات متقطعة حتى بداية الحرب الروسية التركية الجديدة في الثامن والعشرين من سبتمبر عام 1789م. في ذلك الوقت تم إعدامه علي يد ضباط السلطان العثماني القادمين من اسطنبول علي الرغم من اعتراضات المماليك المصريين.

1 كانت مقرات القنصلية التركية في روسيا موجودة في سانت بطرسبورج وموسكو وأوديسا وفلاديفاستوك ومدن أخري في الإمبراطورية الروسية.

يعتبر محمد علي (1805 ـ 1849) – الذي وصل إلي سدة الحكم في مصر عام 1805م بعد القضاء علي مجموعات المماليك – مؤسس الدولة المصرية الحديثة، التي حكمت مصر حتى ثورة يوليو عام 1952م. شهدت العلاقات المصرية الروسية تطورًا كبيرًا في عهد محمد علي، وخاصة في السنوات الأخيرة من حياته.[2] أصبحت دلتا النيل مقصدًا للكتاب الروس ورجال الحكومة والمجتمع والصحفيين والفنانين والأطباء والمستشرقين المتدربين. مع هذا لازال القليلون من مصر يزورون روسيا ، فقد كانت أعدادهم تُعد علي أصابع اليد ، كما أننا لا نعرف سوي قيام المصريين برحلتين فقط إلي الإمبراطورية الروسية في عهد محمد علي. كانت إحدي تلك الرحلات الطويلة جدًا من نصيب استاذ جامعة الأزهر ، الشيخ محمد الطنطاوي ، الذي كان مدعوًا إلي سانت بطرسبورج عام 1838م من أجل إعداد مقرر تعليمى للغة العربية في القسم التعليمي التابع للإدارة الأسيوية ، وبعد عشر سنوات قام بتدريسه في جامعة العاصمة (في سانت بطرسبورج عام 1861م) . ضمت إحدي المذكرات حديثة الإصدار بمدينة سانت بطرسبورج أهم أعمال الشيخ الطنطاوي «وصف روسيا» (400 صفحة تقريبًا) ، ولم يصدر هذا العمل سوي في منتصف عام 2013م ،[3] على الرغم من ظهور العديد من الأبحاث عنه قبل ذلك[4] ، وكما نرى فان العمل العظيم للشيخ عياد الطنطاوى الذى لم يتهيب السفر إلى روسيا البعيدة المغطاة بالثلج " كأول معلم للغة العربية " عام 1840م تاركا منصبه كأستاذ للغة العربية بالأزهر لايزال يلفت الا نتباة حتى الأن . هذا وقد استحقت ذكراه ان يخصص لها " المؤتمر الأول للعلاقات الثقافية المصرية – الروسية والذى جرت فعالياته يومى 18-19 سبتمبرعام 2013 م فى القاهرة بمناسبة مرور 70 عاماً على أقامة العلاقات الدبلوماسية بين الإتحاد السوفيتى ومصر. وفى فعاليات هذا المحفل الدولى صدر كتاب " من تراث الشيخ عياد الطنطاوى " بمشاركة مباشرة ودعم رجل الثقافة المصرى البارز الدكتور حسين الشافعى وتم نصب تمثال نصفى للشيخ عياد الطنطاوى من أعمال الفنان المصرى الشهير أسامة السروى فى دار الكتب بجمهورية مصر العربية .

يتكون كتاب « وصف مصر » من ثلاثة أجزاء . خصص الكاتب الجزء الأول منه للرحلة من القاهرة إلي سانت بطرسبورج ، التي استمرت ثلاثة أشهر ونصف. وفي الجزء الثاني لخص مراحل من تاريخ روسيا مع تركيز الاهتمام علي عهد بطرس الأكبر وبناء

---

2 تفاصيل عن نشاط محمد علي: ي. إي. زيلينيف. مصر الإسلامية. نُشر في سانت بطرسبورج. 2007، ص. 237-210.

3 د. حسين الشافعي. الشيخ محمد عياد الطنطاوي – «معلم اللغة العربية الأول في الإمبراطورية الروسية». القاهرة، 2013 (باللغة العربية).

4 إي. يو. كراتشكوفسكي. الشيخ طنطاوي، استاذ جامعة سانت بطرسبورج. مجموعة أعمال، المجلد الخامس، ص. 285-281؛ أ. ي. كريمسكي. تاريخ الأدب العربي الحديث. موسكو، 1971، ص. 185-281؛ ف. ن. كيربيتشينكا، ف. ف. سافرونوف. تاريخ الأدب المصري في القرنين التاسع عشر والعشرين. موسكو، 2002، المجلد الأول، ص. 76-70؛ س. أ. كيريلينا. العلماء العرب في روسيا (القرن التاسع عشر-بداية القرن العشرين) //مديح موسكو، 2008، ص. 158-145. عن هذا الموضوع سجلت الطالبة المصرية مديحة رضا رسالة دكتوراة في جامعة سانت بطرسبورج عام 1984م بعنوان «وصف روسيا» للشيخ الطنطاوي باعتباره إحدى معالم الأدب العربي في القرن التاسع عشر».

روسيا الحديثة في عهده وهدم مفاصل الدولة القديمة. وحظى هذا الأمر باهتمام كبير من الكاتب، بما أن وطنه ظل يعاني آثار تلك الفترة. يحتوي الثلث الأخير من كتاب « وصف روسيا » معلومات عن نمط حياة سكان روسيا وعاداتهم . ولم يقتصر الحديث في هذا الشأن علي مراسم الزواج وتشييع الجنازات والأعياد والمطبخ الروسي والقيام برياضة التزلج شتاءا، بل جرى الحديث عن العلوم والأدب والصحافة ونظام التعليم. والأكثر من ذلك أجري الكاتب مقابلة بين اللغة الروسية واللغة العربية، ولأول مرة قام بترجمة عدة أشعار من اللغة الروسية إلي اللغة العربية، وكان دائما مايقارن بين الواقع في روسيا ومصر.

لم تكن الإنطباعات عن رحلة المصريين الثانية أقل أثرا، علي الرغم من انتهائها سريعا. يدور الحديث عن تواجد الشابين المصريين علي محمد وعيسى الدهشوري في الأورال . في الفترة بين أغسطس عام 1845م وحتى نهاية يونيو عام 1846م كان الشابان يدرسان طرق استخراج الذهب من الطبقات الجبلية تحت قيادة مهندس التعدين الروسي ي. ب. كافاليفسكي.[5] خاض الباشا المصري العديد من الحروب ولهذا كان بحاجة إلي ملء خزانة الدولة . من أجل حل تلك المسألة لجأ إلى طلب المساعدة من روسيا. تحمل الشابان المصريان بشرف مشاق تلك التجربة القاسية علي الرغم من صقيع الشتاء. ولكن بعد العودة إلي أرض الوطن لم يتسن للشابين القيام بالمهام الموكلة إليهما، ولهذا طالب محمد علي السلطات الروسية بإيفاد ي. ب. كافاليفسكي إلي مصر لمساعدة تلميذيه السابقين في استخراج الذهب، وبعث برسالة إلي المستشار الكونت ك . ف. نيسيلرود، فحواها كالآتي: « مع شعوري بأسمي معاني العرفان لكرم جلالته، الذي أبداه لي بشتى الوسائل، أقدمت علي مطالبة جلالته بإرسال مهندس لتفقد مناجم الذهب، التي افتتحت في سنار.[6]

وليسمح لي جلالته - بجانب طلبي - أن أعبر عن أمنياتي الطيبة لصاحب العصمة، وقد علمت برضا بالغ أن العقيد التابع لإدارة مهندسي التعدين كافاليفسكي تم تعيينه للقيام بتلك البعثة . أدين بالعرفان لحكومة الإمبراطورية نظرا لتهيئتها أفضل الظروف الممكنة وسماحها للطالبين المصريين اللذين أرسلتهما إلي روسيا بدراسة أحدث طرق استغلال الرواسب التي تحوي الذهب . وازداد امتناني وعرفاني لجلالته بعد الخدمة الجليلة، التي أنعم عظمته علي بها، كما أرجو صاحب العصمة أن يتقبل احترامي وتقديري. أطال الله أيامكم السعيدة !

كما سافر المقدم كافاليفسكي وفقًا للتكليف من أجل الوقوف علي ما يلزم لتنفيذ مهمته.

5 مصر فى عيون روسية في منتصف القرن التاسع عشر-بداية القرن العشرين. الإقتصاد. الثقافة. تأليف ومقدمة وتعليقات وحواشي وترجمة للأستاذ ج. ف. جاريانشكين// شعوب الشرق الأوسط. الإصدار الخامس عشر، الكتاب الأول. موسكو، 1992، ص. 272-233، 328-323. لقد توسعنا في الاطلاع علي هذا الموضوع بشكل مفصل باللغة العربية: «بحثًا عن الذهب. من تاريخ العلاقات الثقافية بين روسيا ومصر في منتصف القرن التاسع عشر». الأسكندرية: «منشأة المعارف»، 2003 (باللغة العربية).

6 سنار – مقاطعة في وسط السودان.

أطلب من سيادتكم سيدي الكونت التعبير عن بالغ إحترامي لجلالة الإمبراطور وحرصي علي صداقتكم الغالية » .[7]

نفذ يجور بيتروفيتش هذا التكليف بنجاح ، ولهذا منحه حاكم مصر وسام «الإفتخار»[8] علي هيئة ميدالية ذهبية عليها طغراء من الماس للسلطان وهلال و نجمة وعلبة تبغ من الذهب أيضًا.[9]

مع هذا لم يقتصر دور يجور بيتروفيتش في تطوير العلاقات الروسية المصرية علي تقديم المساعدة للمنقبين عن الذهب في مصر؛ فقد عمل أيضًا علي دراسة الطبيعة الجغرافية والمصادر الطبيعية وغيرها في المنطقة، كما حاز علي دعم والي مصر محمد علي وابنه إبراهيم ، وعرف بتقديره الجم لتلك المنطقة، ولهذا عندما عاد من رحلته إلي القارة الإفريقية كتب توصيات مدعومة بالبراهين من أجل إقامة علاقات تجارية دائمة مع دول شمال شرق إفريقيا. كان لتلك التوصيات صدىً سواء في مذكرات «عن الوضع السياسي والتجاري الحالي في شرق السودان وإثيوبيا» أو في مذكرات «مشروع التجارة لروسيا مع مصر والمدن الواقعة علي شواطئ البحر الأسود».[10] أوصي كافاليفسكي في تلك المذكرات بتنظيم رحلات بحرية عبر طريق أوديسا – القسطنطينية – الإسكندرية ، يمكنهم القيام بها خلال خمسة أو ستة أيام ، كما اقترح قائمة من السلع للإستيراد والتصدير ، ودلل علي ضرورة إنشاء مقر تجاري خاص في أوديسا ، يمكنه أن يهتم بأمور التجارة مع الشرق. قوبلت مبادرات ي. ب. كافاليفسكي بالرفض من قبل تجار جنوب روسيا لعدة أسباب.[11] كما وقف تدهور العلاقات السياسية بين روسيا ومصر عائقًا أمام تنفيذ خطته.

أصاب الجمود العلاقات السياسية بين الأسرتين الحاكمتين فى كلا البلدين بعض التوتر من جراء حرب القرم ، التي شاركت فيها مصر فعليًا إلي جانب الحلفاء ،[12] مع هذا أخذت العلاقات التجارية في التطور. أنشأت هيئة للملاحة والتجارة الروسية عام 1856، وترأسها الأمير العظيم قنسطنطين . قامت الحكومة بشراء ثلث الأسهم، ثم تنازلت عن الحصص لصالح إحدي الشركات، ومنحتها امتيازات أخرى . وفي عام 1958م بدأ تشغيل الطريق البحري في البداية إلي الإسكندرية مباشرة ، ثم الطريق الدائري الإسكندرية ـ أوديسا ـ القسطنطينية، الذي يمر ببيرايوس (مدينة يونانية في منطقة أتيكا الإدارية تقع على بعد 9 كيلومتر جنوبي العاصمة أثينا . تعليق المترجم) وسميرنا ورودوس وإسكندرونة

7 مصر فى عيون روسية... ص. 264-263.

8 وسام المجد.

9 أنظر: نفس المرجع، ص. 272-233، 328-323.

10 أقرأ عن هذا في: ج. ف. جاريانشكين. الإسكندرية بين روسيا ومصر //ميبريانا، المجلد الأول. موسكو، 2006، ص. 161.

11 أرشيف مقاطعة أوديسا الحكومية. صندوق 2. فهرس 1. ملف 282. الأوراق 9-8؛ نفس المرجع، صندوق 2085، فهرس 369، ملف 5712، ورقة 5 عكسية.

12 ج. ف. جاريانشكين. مشاركة المصريين في حرب القرم (ذكري مرور 150 عامًا علي الأحداث)//موضوعات المؤتمر العلمي «قراءات كافاليفسكي». موسكو، معهد دول آسيا وإفريقيا التابع لجامعة موسكو الحكومية، 2007، ص. 90-85؛ نفس المؤلف: القوات المصرية في حرب القرم والحرب الروسية التركية (1878-1877)//أرشيف الشرق، رقم 2 (22)، 2010، ص. 49-42.

(مدينة تقع على البحر المتوسط ضمن محافظة هاتاي التركية حالياً.تعليق المترجم) وبيروت ويافا ثم الإسكندرية . وفي عام 1858م قامت ثمانية بواخر تابعة لهيئة الملاحة والتجارة الروسية باثنين وأربعين رحلة عبر طريق الإسكندرية ، نقلت على متنها 12,4 ألف راكب من الحجيج بشكل أساسي، وفي عام 1859م بلغ إجمالي ركابها خلال 70 رحلة بحرية 22,3 ألف راكب .

تغير الوضع مع اعتلاء الخديوي إسماعيل (1863 - 1879) عرش مصر. علي الرغم من مشاركة القوات المصرية إلي جانب بورتا (مصطلح بمعني « الباب العالي » في الدولة العثمانية القديمة . تعليق المترجم) و في خضم الحرب الروسية التركية (1877-1878) ظلت علاقة القاهرة وبطرسبورج تتخذ شكل علاقة صداقة كبيرة، أساسها الود والإحترام المتبادل والمساواة في الحقوق. علي سبيل المثال ، « أرسلت وزارة الخارجية الروسية تعليمات إلي مستشارها في مصر «ليكس»[13] من أجل تركيز اهتمامه علي محاولات إضعاف نفوذ إنجلترا الطاغي في مصر بقدر الإمكان. ولهذا تم تكليفه بعدم التدخل مباشرة في شئون إدارة مصر، بل محاولة التأثير بشكل شخصي علي الخديوي ووزرائه باعتبار أن حكومة الإمبراطورية لاتزال تتعامل بعين الرضا مع مصالح مصر، علي الرغم من تصرفاتهم العدائية أثناء الحرب الأخيرة»[14] - وفقًا لما جاء في تقريره إلي الإمبراطور عام 1878م .

من الممكن أن نعتبر وجود الجنرال الروسي روستسلاف فادييف (1824-1883م) في وادي النيل شاهدًا علي العلاقات المثمرة بين البلدين. وعلي الرغم من عدم معرفتنا تاريخ عمله علي أرض الأهرامات ، إلا أن قصته تبعث علي الإهتمام . يرجع الأمر إلي عام 1870م ، عندما قام حاكم مصر الخديوي إسماعيل بدعوة هذا الجنرال الروسي، المشهور بنجاحاته في حرب القرم 1853-1856م وفي العمليات العسكرية في القوقاز، لتولي مسئولية تحديث الجيش المصري . وصل الجنرال ر. أ. فادييف إلي مصر عام 1874م ، وغادرها عام 1876م غداة الحرب الروسية التركية. نمت إلي علمنا تلك الحقيقة عن طريق الخطابات ، التي أرسلها الشاعر الروسي الشهير والفيلسوف ف. س. سولوفيوف إلي والدته من مصر، بعد مكوثه بعض الوقت مع الجنرال في فندق «آبات» في القاهرة أثناء وجوده لأول مرة علي أرض الأهرامات .[15]

أقترح إسماعيل علي فوديف تولي قيادة الجيش المصري. يقول الجنرال عن هذا في كتاباته : «لا أعرف في الواقع لماذا تريدني الحكومة المصرية : أتريدني من أجل تكوين جيش ضد تركيا أم من أجل الدخول في حرب ضد إثيوبيا، التي طالما بحثت لها عن أي جنرال أوروبي يتمتع ببعض الشهرة ؛ ومن قبيل الصدفة بالطبع أصبح اسمي مشهورًا في الشرق والدول السلافية. ما يخص الهدف الأول - أي الحرب ضد تركيا- فأنا علي

13 كان المستشار الحكومي إيفان أليكساندروفيتش ليكس يعمل قنصلا عامًا ووكيلا دبلوماسيا في مصر عام 1882-1895م...

14 أرشيف السياسات الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق «تقارير وزارة الخارجية»، 1878م، «مصر».

15 ج. ف. جاريانشكين. ماذا كان يفعل ف. سولوفيوف في مصر؟//آسيا وإفريقيا في الوقت الراهن...؛ نفس المؤلف باللغة العربية: الشاعر الروسي فلاديمير سولوفيوف في مصر. القاهرة، «الثقافة الحديثة»، 2004.

استعداد لأهب نفسي كاملا لهذا الأمر، ولكن ما يخص الهدف الثاني - أي الحرب ضد إثيوبيا - فضميري يمنعني من تنفيذه». كان المصريون في القاهرة يطلقون علي فادييف وزير الحربية المصري ، بما أنه قاد الخديوي لانتهاج سياسات عسكرية أكثر استقلالا عن تركيا ولخوض حربًا ضد بورتا.[16] و لم تكتف مصر في الحقيقة بخوض حرب ضد الإمبراطورية العثمانية فقط، ولكنها أرسلت جزءًا من قواتها وأسطولها ضد روسيا .[17] فوقوف كلتا البلدين علي أرض مشتركة فيما يخص طريقة مقاومتهما للإمبراطورية العثمانية ساهم بشكل كبير في تزايد التعاون المشترك بينهما . يدور الحديث في المقام الأول عن زيارات بروتوكولية للسفن الحربية الروسية المتمركزة في حوض البحر المتوسط، وبالتحديد في الجزء الشرقي منه.[18] وكالعادة استمرت البواخر تجوب البحر مدة طويلة: من عدة أشهر إلي أكثر من عام، ورست البواخر في موانى البحر المتوسط، ومن ضمنها بورسعيد والإسكندرية. وفقًا لمعلومات الصندوق رقم 417 من أرشيف الأسطول الحربي للحكومة الروسية « فقد كانت هيئة الأركان البحرية (مكتب الإحصاء العسكري البحري)» تسير عدة بواخر عسكرية روسية هناك كل عام في النصف الثاني من ثمانينيات القرن التاسع عشر .[19] ظلت السفن الروسية تتوقف باستمرار في الموانى المصرية حتي بداية الحرب العالمية الأولي. استمرت السفن الحربية الروسية في التوافد خاصة في عهد عباس حلمي الثاني، والذي شهد عهده تطورًا غير مسبوقًا في العلاقات بين روسيا ومصر في شتى المجالات. هذا ما أكدته صحافة الإسكندرية في ذلك الوقت . كتبت صحيفة «لو فار دي ألكساندري» تحت عنوان «السرب البحري الروسي في البحر المتوسط» أن السفينة الرئيسة في السرب البحري الروسي - التي تجوب البحر المتوسط - تقع تحت قيادة الأميرالاي كريجر إلي مرفأ الإسكندرية في الأول من فبراير في زيارة ودية؛ حيث ظلت هناك علي مدار عشرة أعوام. كما قام الأميرالاي بزيارة إلي القاهرة أيضًا.[20]

كان لتحسن العلاقات السياسية مع روسيا أثره على تطوير العلاقات التجارية بين البلدين . فقد دفع الحجم الكبير لصادرات القطن المصرية رجال الأعمال الروس لإنشاء جمعية صداقة روسية لحلج وضغط القطن آليًا في مصر عام 1879م . كانت الجمعية

16 أ. ي. سيجانكوف، ج. ف. جاريانشكين. نظرة إلي ماضي تاريخ العلاقات العسكرية والتاريخية بين روسيا ومصر قبل حرب أكتوبر عام 1973م//صداقة علي مدار ربع قرن. 1973-1998. موسكو، 1999، ص. 100-99.

17 أنظر: بالتفصيل: ج.ف.جاريانشكين. القوات المصرية في شرق...، ص. 49-42.

18 في ذلك الوقت كانت الصحافة الروسية والإصدارات الأخري تطلع علي هذا المكان «مراكب حراسة».

19 أنظر: أرشيف الأسطول الحربي للحكومة الروسية. «إبحار قوة من المراكب تحت قيادة الأميرالاي ن. إ. كازناكوف (صندوق 417، فهرس 1. ملف 54، 1885.؛ «إبحار فرقاطة «دميتري دونسكي» في البحر المتوسط (نفس المرجع. 114، 1886؛ «إبحار قوة من مراكب الأميرالاي ن. إ. كازناكوف. الثاني عشر من إبريل- السابع من أكتوبر عام 1886م؛ «إبحار مركب «القناص» في مياه جزر اليونان. الثالث من يناير-الحادي عشر من ديسمبر عام 1887م (نفس المرجع، ملف 228)؛ «تخصيص مركب «شيورناموريتس» كسفينة حراسة في بريا وإبحارها عبر البحر المتوسط». 1890.15.06.1889-29.05 (نفس المرجع. ملف. 5-50).

20 «لي فاريه دي أليكساندري» (وفيما بعد «لي فار دي ألكساندري»)، 13.11.1902.

تضم ورشتين خاصتين في الإسكندرية والزقازيق ومباني سكنية وسيارات ومستودعات وغيرها. بلغ رأس مال الجمعية 400 ألف روبل (...... جنيه مصري)، والذي كان يعتبر مبلغا كبيرًا في ذلك الوقت .

كما كانت هناك بعض المحاولات لإنشاء شركات صناعية وخاصة، كما تحوي دور الأرشيف التاريخية الروسية «ملف تدشين شركة روسية مساهمة لمشاريع الكهرباء في مصر».[21]

يجدر الإشارة إلي أن العلاقات التجارية العرضية بين روسيا ومصر شهدت تحولاً من خلال انتظام حركة البضائع ، ابتداء من عام 1856م عندما أنشأت هيئة للملاحة والتجارة الروسية عام 1856، وترأسها الأمير العظيم قنسطنطين. قامت الحكومة بشراء ثلث الأسهم، ثم تنازلت عن الحصص لصالح إحدى الشـركات ، ومنحتها امتيازات أخرى . وفي عام 1958م بدأ تشغيل الطريق البحري في البداية إلي الإسكندرية مباشرة ، ثم الطريق الدائري الإسكندرية ـ أوديسا – القسطنطينية، الذي يمر ببيرايوس (مدينة يونانية في منطقة أتيكا الإدارية تقع على بعد 9 كيلومتر جنوبي العاصمة أثينا. تعليق المترجم) وسميرنا ورودوس وإسكندرونة (مدينه تقع على البحر المتوسط ضمن محافظة هاتاي التركية حالياً.تعليق المترجم) وبيروت ويافا ثم الإسكندرية. وفي عام 1858م قامت ثمانية بواخر تابعة لهيئة الملاحة والتجارة الروسية بإثنان وأربعين رحلة عبر طريق الإسكندرية ، نقلت على متنها 12,4 ألف راكب من الحجيج بشكل أساسي ، وفي عام 1859م بلغ إجمالي ركابها خلال 70 رحلة بحرية 22,3 ألف راكب .

ساعد إنشاء غرفة تجارية روسية في الإسكندرية عام 1903م[22] على ظهور أشكال جديدة من العلاقات التجارية الإقتصادية مع مصر: تمثلت تلك العلاقات في الإستعانة بالخبرات في الإقتصاد وزيارات المتخصصين الروس في مجال استصلاح الأراضي وزراعة القطن وتنظيم معارض عائمة للمصنوعات اليدوية الروسية بين عامي 1913ـ1910م في الإسكندرية وبورسعيد ، والقيام ببعثات علمية وتطبيقية عام 1912م .

في الثالث عشر من مارس عام 1909م أبرمت اتفاقية للتجارة والملاحة بين روسيا ومصر. بمقتضي البند الثاني من الإتفاقية مُنحت روسيا أفضلية في التعامل. كما حصلت الإمبراطورية الروسية علي ميزة السعر المنخفض للتعريفة الجمركية المصرية (لأكثر من 8%). في فترة ما قبل الحرب بقليل أثرت تلك الإتفاقية بشكل إيجابي علي تبادل البضائع بين كلتا البلدين. فقد أسهمت مثل تلك الإمتيازات في رواج السلع الرئيسة، وخاصة عبر ميناء الإسكندرية ، الذي كان تمر خلاله 90% من حركة التصدير والإستيراد في مصر .

---

21 أرشيف روسيا التاريخي. سانت بطرسبورج. صندوق 1263، فهرس 1، 1879، دفتر 116: مجلة عن نظام شركة الصداقة الروسية لحلج وضغط القطن آليًا في مصر؛ صندوق 20، فهرس 4، ملف 3678. 1891-1889؛ أنظر. نفس المرجع. صندوق 22، فهرس 2، ملف 2713، 1902.

22 الوثائق الخاصة بإنشاء غرفة تجارية روسية في الإسكندرية، وميثاقها منشورة في: مصر بأعين روسية...، ص. 216-213.

كانت روسيا تصدر إلي مصر السكر (بإجمالي 25% من حجم الصادرات) والكيروسين (23%) والدقيق – 18% والتبغ – 12% والكحول – 4%، بالإضافة إلي أعداد قليلة من الماشية الحية وكميات من الأسماك المجففة والمملحة والأسمنت والأخشاب وغيرها. حدثت تغيرات ملحوظة في حركة الصادرات الروسية إلي مصر بنهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فقد أصبحت منتجات تكرير البترول (الكيروسين بشكل رئيسي) تشغل مكانة مميزة في قائمة الصادرات، بالإضافة إلي المنتجات الصناعية مثل المنسوجات والأحذية المطاطية وبعض المشغولات المعدنية.

شكل القطن – منتج التصدير الرئيسي في مصر – أكثر من 95% من حجم الصادرات المصرية إلي روسيا، بجانب تصدير بعض البذور والخضروات والمنتجات الحيوانية والمشروبات وغيرها. واحتلت روسيا المركز السادس (5% من حجم التجارة المصرية) علي قائمة الدول، التي لديها علاقات تجارية مع مصر بين عامي 1911-1909م بعد انجلترا (41%) وفرنسا (9%) وألمانيا (8%) والإمبراطورية النمساوية المجرية (7%) وتركيا (6%).

قبل الحرب العالمية الأولي لم ينقطع الحديث في سانت بطرسبورج عن دراسة مسألة تعميق العلاقات التجارية مع مصر، وتواصلت البعثات الروسية من أجل دراسة ظروف السوق في الشرق الأوسط في محاولة لتعويض ما فاتهم. وفي مايو عام 1910م انعقد في موسكو مؤتمر لممثلي التجارة والصناعة، والذي تم تخصيصه لمناقشة آليات تطوير العلاقات مع دول الشرق. ولهذا الغرض عُقد اجتماع خاص في وزارة التجارة والصناعة، حيث جري التخطيط لتخفيض تعريفة النقل عبر السكك الحديدية وقيمة النقل البحري وتسهيل الإجراءات الجمركية وزيادة التسهيلات الخاصة باسترداد رسوم تصدير السلع إلي الشرق الأوسط.[23] علي الرغم من أحداث الحرب العالمية الأولي قامت هيئة الملاحة والتجارة الروسية بتجهيز إحدى البعثات عام 1915م للتوجه إلي القاهرة، حيث قضت أربعة أشهر. قام أعضاء وفد الهيئة التجاري في مدن مصر الكبري كالإسكندرية والقاهرة وبورسعيد والمنيا وأسيوط وغيرها بتجميع نماذج متنوعة من البضائع، التي كانت تصدر قبل ذلك إلي ألمانيا واستراليا بأعداد كبيرة، وأخذوا يدرسون وسائل وظروف رواجها لتعويض العجز المتوقع في السلع الروسية بعد انتهاء الحرب.[24] وبهذا الشكل خلق الجانب الروسي مقدمات لتطوير العلاقات التجارية مع بلاد الأهرامات في المستقبل.

شهدت العلاقات العلمية الثقافية تطورًا مبهرًا بين البلدين. فقد كان الروس والمصريون يتلاقون في المؤتمرات وحلقات النقاش في مختلف فروع العلم والتكنولوجيا. وفي الفترة من السادس إلي التاسع عشر من ديسمبر عام 1902م افتتح الخديوي عباس حلمي الثاني وسط أجواء احتفالية المؤتمر الطبي المصري الأول. وقد حضر – وفقًا لكلمات الممثل الدبلوماسي

23 أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية العثمانية، صندوق 240، فهرس 1 (616)، ملف 1069، ورقة 15؛ الأرشيف الحكومي الروسي للأسطول البحري الحربي، صندوق. 678، فهرس 1، ملف 1412، ورقة 11-7.

24 نفس المرجع. صندوق 678، فهرس 1، ملف 1441، ورقة 8-1.

والقنصل العام أ. إي. كوياندر [25] ـ 180 طبيب في هذا التجمع العلمي. كان وفد الأطباء الروس الأكبر عددًا ، حيث ضم 16 شخصية ، «من بينهم – علي حد وصف القنصل العام – العديد من الأسماء التي تحظي بشهرة في الأوساط الطبية ، مثل الأستاذ بافلوف وأوت وسكفارسوف والدكتور الطبيب رانشيفسكي وغيرهم. كان ممثل اتحاد الأطباء التابع لوزارة الداخلية المستشار السري لبافلوف ، بينما كان رانشيفسكي مندوب اللجنة الطبية العسكرية العلمية المستشار الرسمي...» .[26] عند وصول المستشرقين إلي فيينا في خريف عام 1886م جرت لقاءات شارك فيها من الجانب المصري يعقوب أرتين باشا العالم الشهير في مجال التاريخ الإجتماعي المصري، ومن الجانب الروسي المستشرق البارز ف. ر. روزين. وسرعان ما حصل أرتين باشا بمرسوم ملكي علي وسام ستانيسلاف من الطبقة الثانية.[27] يولي رواد الثقافة والفن الروس اهتمامًا كبيرًا لوادي النيل، حيث توافد في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ف. يا. بريوسوف وف. إ. شليابن وك. د. بالمونت وم. أ. كوزمين ون. أ. جوميلوف وإ. أ. بونين وآنّا بافلوفا وليسيا أوكراينكا وف. فيريسايف وغيرهم. ولطالما انشغل العديد منهم بالقضايا في مصر وكانت مصر تمثل الموضوع الرئيسى في أعمالهم المهمة .[28] ولعل فيه الكفاية ذكر تلك الأعمال الرائعة، مثل «الأغاني المصرية» لك . بالمونت ، و«أغاني الإسكندرية» لم. كوزمين وغيرهم .

أُصيب الفنانون الروس «بهوس حب مصر»، ومنهم علي سبيل المثال: إ. ك. أيفازوفسكي وفيريشاجين ود. ي. إيفيموف وف. د. بالينوف وك. ي. ماكوفسكي ون. ك. ريريخ وم. س. ساريان وم. أ. شاجال وغيرهم.

أسهم الدور الدبلوماسي لممثلي روسيا علي أرض الأهرامات بشكل بالغ في تطوير العلاقات بين البلدين. فعدم تدخل روسيا في شئون مصر الداخلية كان محل اهتمام حكامها، الذين كثيرًا ما كانوا يعولون في فترة لاحقة علي مساعدة ومساندة القناصلة الروس في ظل الضغوط الإنجليزية الفرنسية والإنجليزية . مع إدراك ضرورة توافر علاقات جيدة مع قيادة أكبر ولاية عثمانية، ومع استغلال طبيعة سلطتها الطبقية، حاول الدبلوماسيون الروس إقامة علاقات وثيقة مع الخديوي والأمراء .[29] بعد تنفيذ تعليمات وزارة الخارجية أسهم الممثلون الدبلوماسيون الروس في بلاد الأهرامات في إقامة علاقات شخصية بين الأسرتين الحاكمتين في روسيا ومصر – رامانوف ومحمد علي. بدأت تلك الروابط المباشرة في الظهور في الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر.

25 أليكساندر إيفانوفيتش كوياندر – الممثل الدبلوماسي والقنصل الروسي العام في مصر بين عامي 1902-1887م.

26 أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، الأرشيف السياسي، فهرس 482، ملف 844، ورقة 199-195؛ نفس المرجع، صندوق 317، فهرس، ملف 135، ورقة 287.

27 أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، صندوق. 317. الوكالة الدبلوماسية والقنصلية العامة في مصر، فهرس. 820، ملف. 199، ورقة 38.

28 أنظر: بشكل مفصل: ج. ف. جاريانشكين. الإسكندرية الروسية. مصير الهجرة إلي مصر. موسكو، «الطريق إلي روسيا»، 2010، ص. 219-192.

29 من الناحية الشكلية تحتفظ بوضعها كأحدى أكبر ولايات الإمبراطورية العثمانية، بينما في الواقع تعتبر مستعمرة بريطانية.

شهد عام 1888م بعض التحولات ، عندما قام أبناء الخديوي توفيق عباس حلمي الثاني - والذي حكم مصر فيما بعد - و محمد علي، بزيارة روسيا.[30] وقد أشار القنصل العام أ. أي. كوياندر إلي هذه الحقيقة بشكل خاص، مما يؤكد مرة أخرى علي مساعي قادة كلتا البلدين لتدعيم العلاقات بينهما بشتى السبل، مستغلين العلاقات الشخصية والحميمية بينهما .[31]

استقبلهم الإمبراطور ألكسندر الثالث شخصيًا علي أرض العاصمة الروسية . وبمرسوم عالي مُنح الأخوان عباس حلمي الثاني ومحمد علي أوسمة روسية، كما كوفئ المرافقين لأبناء الخديوي - رئيس مراسم قصر الخديوي تونينو باشا ومدير مكتب ديوان الخديوي التركي محمود شكري ، بالإضافة إلي مربي الامراء والأستاذ نجيب أفندي .[32] بعد عام منح الخديوي توفيق مجموعة من الشخصيات الروسية الرسمية ومن ضمنهم دبلوماسيون أوسمة روسية، ردًا علي حسن الاستقبال والإعداد لرحلة عباس ومحمود علي إلي سانت بطرسبورج.[33]

كان الأمير العظيم نيقولاي نيقولايفيتش رامانوف الأكبر أول شخص من الجانب الروسي «يمهد» الطريق أمام أسرة الملك إلي شواطئ نهر النيل ، حيث كان الأمير العظيم نيكولاي نيكولايفيتش رامانوف الأكبر متواجدًا هناك عام 1872م .[34] ومنذ عام 1888 فقط بدأت سلسلة من الزيارات علي مستوي رفيع لأسرة رومانوف إلي مصر - بمشاركة فعالة ومباشرة للممثل الدبلوماسي الروسي في بلاد الأهرامات أ. إ. كوياندر - في تنفيذ الخطة الموضوعة بحذافيرها .

وبعد زيارة فلسطين من أجل حضور افتتاح المعبد المبني في القدس بدعم الأسرة الملكية تخليدًا لذكري الإمبراطورة ماريا ألكساندروفنا قام الأمير العظيم سيرجي ألكساندروفيتش وقرينته إليزافيتا فيدورافنا والأمير العظيم بافل ألكساندروفيتش بزيارة إلي مصر في أكتوبر عام 1888م . وأثناء الإعداد لتلك الزيارة أخطر وزير الخارجية

30 تفصيليا عن رحلات المصريين عبر الإمبراطورية الروسية، أنظر: ج.ف.جارياتشكين. الأمراء المصريون في روسيا//أرشيف الشرق...

31 أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق القنصلية العامة في مصر، فهرس. 820، ملف. 199، ورقة 196.

32 مُنح عباس باشا وسام ستانسلاف من الطبقة الأولي، ومُنح محمد علي نفس الوسام من الدرجة الثانية ونجمة؛ مُنح تونينو باشا وسام القديسة آنًا من الطبقة الثانية، ومُنح محمود شكري بك نفس الوسام من الطبقة الثالثة، كما مُنح حاجب أفندي وسام القديس القديس ستانسلاف من الطبقة الثالثة. أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، فهرس 820/1، ملف 199. ورقة 111-111مكرر.

33 نفس المرجع. ورقة 111-111مكرر. أنظر عن هذا الموضوع تفصيليا: ج.ف. جاريانشكين. الأمراء الروس في روسيا//أرشيف الشرق...

34 د.أ.سكالون. رحلة عبر الشرق والأراضي المقدسة في عهد الأمير العظيم نيكولاي نيكولايفيتش عام 1872م. الطبعة الثانية. سانت بطرسبورج، 1892. أنظر أيضًا: ج. ف. جاريانشكين. العلاقات المتبادلة بين الأسرتين الحاكمتين في روسيا ومصر في القرن التاسع عشر والعشرين. موسكو، معهد الإستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية، «أرشيف الاستشراق»، 2011.

الروسي ن.ك.جيرس سفارة القاهرة بالآتي : «حسب المعلومات التي بلغتني من الوزارة ، فأنتم تعلمون جيدًا إلي أي مدي ينظر سيدى الإمبراطور بعين الرضا لزيارة أبناء الخديوي سانت بطرسبورج والمدن الروسية الأخرى. فقد اتُخذت جميع الإجراءات اللازمة – بأمر من صاحب المقام العالي – حتى يتكون لدي عباس ومحمد علي باشا أفضل الإنطباعات عن زيارتهم لروسيا. وهذا ما يعطينا الحق في التعويل علي أن الخديوي لن يألو جهدًا ليبرهن لأعضاء أسرة الإمبراطورية الروسية – التي تعتزم زيارة مصر – علي مدي عرفانه للإهتمام البالغ، الذي أبداه له صاحب المقام العالي ».[35]

في نهاية عام 1889م قام الأمير العظيم بيتر نيقولايفيتش والأميرة العظيمة ميليتسا نيقولايفنا بزيارة إلي أرض الاهرامات .[36]

بعد عام، وخلال جولته البحرية حول العالم قام الأمير العظيم نيقولاي الثاني بزيارة إلي مصر بصحبة أخيه الأمير العظيم جريجوري ألكساندروفيتش . وقبيل وصولهم صرح الخديوي محمد توفيق باشا إلي أ. إي. كوياندر ، قائلا: «أشعر بالسعادة أن استقبالي للضيوف بدافع الحب وليس تكلفًا... لن يغيب عن ذاكرتي مدي الإعتناء الذي أولاه صاحب المقام العالي لأبنائي، وحسن استقباله لهم في روسيا، ومن جانبي طالما تمنيت مقابلة وريث عرش روسيا بالصورة اللائقة بشرف زيارته ».[37] استمرت الرحلة أسبوعين وامتدت حتى مدينة أسوان. أثار دهشة المصريين المبلغ الذي تم إنفاقه علي شرف زيارة صاحب السمو في شكل إعانات مالية وتبرعات وبقشيش (بجانب الأوسمة والميداليات والعملات الذهبية وهدايا من الفضة) بإجمالي ألفين ونصف جنيه استرليني (وحسب قول أ. إي. كوياندر، فقد كان التأثير هائلا). حتى أن الخديوى نفسه اندهش من تلك المبالغ. وعندما سُئل القنصل العام كوياندر عن الشخص – الذي ربما يرغب في ضمه إلي قائمة المكرمين – أجاب بالرفض، وأضاف أنه لا يمكن – بعد كل ما فعلوه – المطالبة بشيء آخر.[38]

قام الأمير قنسطنطين بيتروفيتش أولدينبورجسكي بصحبة قرينته بزيارة مصر في الفترة بين ديسمبر عام 1901م ويناير 1902م . وبعد شهر وصل الأمير العظيم بوريس فلاديميروفيتش. عند استقبال الأمراء « بذل الخديوي عباس حلمي الثاني – وفقًا لما قالة أ. إي. كوياندر – ما بوسعه ليحسن استقبال ضيوفه المهمين. فحتى الآن لا تزال ذاكرته تحتفظ بصورة استقبال الباب العالي له عام 1888م...»[39]

في مستهل عام 1907م قام الأمير العظيم بوريس فلاديميروفيتش بزيارة لمدة أسبوعين إلي وادي النيل بالاسم المستعار كومبتي دي برودي .[40] ولأكثر من مرة قضي الأمير العظيم

35 أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، صندوق القنصلية العامة في مصر، فهرس 820/1، ملف 304 «زيارة شخصيات رفيعة المستوى إلي مصر. 1890-1880»، ورقة 297-297 مكرر.

36 نفس المرجع، ورقة 157-99.

37 نفس المرجع. ورقة 200 مكرر-202.

38

39 أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق 317، ملف 135، ورقة 196-196 مكرر.

40 نفس المرجع. صندوق 820، فهرس 482، ملف 859، ورقة 51.

قنسطنطين قنسطنطينو فيتش رامانوف فترة استشفاء واستجمام في حلوان وأسوان ، ولهذا كتب باقة من أروع أشعاره عن بلاد الأهرامات .[41]

وفي بدايات القرن العشرين بدأ ممثلو الطبقة الحاكمة في مصر بالتوافد مجددًا علي الإمبراطورية العثمانية . وفي عام 1900 نزل عباس حلمي الثاني في الأوديسا تحت اسم مستعار أثناء سفره إلي بيسارابيا (منطقة جغرافية تقع في أوروبا الشرقية يحدها من الشرق نهر الدنستير ومن الغرب نهر بروت. تعليق المترجم) .

وبعد جلسة خاصة – استقبل فيها عباس حلمي الثاني أ. إي. كوياندر– كتب الدبلوماسي الروسي إلي وزير خارجيته الكونت ف. ن. لامذدورف، قائلا: «لقد خاض عباس باشا كثيرًا في الحديث عن انطباعاته بشأن رحلته عبر بيسارابيا وعن زيارته إلي أوديسا. كما لاحظ مدي العناية والإهتمام التي لاقاها في كل مكان من قبل سلطات الإمبراطورية ، مما جعله مدينًا ببرقية إلي جلالة الإمبراطور أثناء مغادرته البلاد تعبيرًا عن أسمي معاني العرفان ».[42] لم يكتف الملك بالرد فقط علي برقية الخديوي المصري ، بل ومنحه الوسام الملكي .[43]

تعددت زيارات ابن الخديوي توفيق الأصغر إلي روسيا المحببة إلي قلبه (ثلاث زيارات) . وفي عام 1909 قام برحلة رائعة عبر جميع أنحاء روسيا واليابان من خلال طريق السكك الحديدة المنشىء حديثًا. وفيما يتعلق «برحلته إلي اليابان» (هكذا أطلق محمد علي علي كتاب مذكرات سفره – عن هذا انظر بالأسفل) كتب الممثل الدبلوماسي وقنصل روسيا العام في القاهرة أليكسي ألكساندروفيتش سميرنوف[44] إلي وزير الخارجية أ. ب. إزفولسكي الآتي : «منذ وقت قريب زارني سمو الأمير محمد علي، شقيق الخديوي، حيث كان مسافرًا إلي اليابان عبر أراضي روسيا وسيبيريا. أعرب الأمير عن تقديره لهذا الاستقبال الحافل الذي لاقاه في روسيا ولجميع وسائل الراحة التي قدمت له أثناء سفره، كما أمرني الأمير أن أنقل شكره إلي جلالة الإمبراطور .

وفي الختام استدعي محمد علي ذكري الاستقبال الحافل الذي لاقاه هو وأخاه من قبل الإمبراطور ألكسندر الثالث (الخديوي الحالي) – وهما في سن الصبا – قائلا· أنه طالما شعر لدي وصوله أنه في ضيافة جلالة الإمبراطور، ولطالما تمني ان يعبر عن عرفانه ومشاعر الوفاء الجياشة لعظمته ».[45]

---

41 ك. ب. دنيفنيكي. مذكرات. أشعار. خطابات. موسكو، 1998.

42 أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق 317، الوكالة الدبلوماسية والقنصلية العامة في مصر، فهرس 820، ملف. 135، ورقة 93.

43 نفس المرجع، ورقة 246. «في اليوم الثالث، - كتب كوياندر في خطابه بتاريخ الأول من يونيو عام 1902م – لي الشرف أن أسلم الخديوي في جلسة احتفالية وسام القديس ألكسندر نيفسكي مرصعًا بالألماس».

44 أنظر. عن تلك الشخصية: ج. ف. جاريانشكين. الإسكندرية الروسية. مصير الهجرة في مصر. موسكو، «الطريق الروسي»، 2012، ص. 168-151

45 أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق، فهرس 820، ملف 135، ورقة 23-23 مكرر.

وقبل اندلاع الحرب العالمية الأولي مباشرة زار البلاد رئيس المحكمة المصرية السابق محمود رشاد بك.[46]

في الحقيقة أسهمت الزيارات الشخصية العديدة علي مستوي شخصيات رفيعة والتعاطف والاحترام المتبادل بين كلا البلدين في فتح أفق جديدة للتعاون المشترك في جميع المجالات في المستقبل. فقد ازداد تبادل الإصدارات المطبوعة : حيث كانت ترد من بلاد الأهرامات مجلات «الهلال» و«المنار» و« المقتطف » و«الكتاب» وغيرها من الدوريات ، بالإضافة إلي الإحصائيات، ومن بينها الإحصاء العام المكون من ثلاثة مجلدات لعام 1897م وقواميس صغيرة.[47] حصلت مكتبة جامعة سانت بطرسبورج ، علي سبيل المثال ، « على صندوقي كتب كبيرين» يحتويان علي سلاسل كاملة من باكورة إصدارات « المجمع العلمي »، بالإضافة إلي قاموس لغة عربية مكون من سبعة عشر مجلدًا. وبدأ مرصد الخديوية في إرسال تقارير شهرية عن تقديرات الأرصاد منذ الأول من يناير عام 1888م إلي مرصد بولكوفسكي في سانت بطرسبورج. وحرص قسم اللغات الشرقية التابع للقسم الآسيوي بوزارة الخارجية علي الأشتراك للحصول علي إصدارات جريدة «الأهرام» ومجلة «الهلال» علي مدار العام. كما دخلت مجلة «المطاف» الصادرة في الإسكندرية والتي كان يجدد الأشتراك فيها كل سنة- حيز إهتمام القسم.

وجاء رد فعل الروس علي نفس القدر. فقد أُرسلت إلي بلاد الأهرامات أعمال جمعية الآثار الروسية وتقارير لجنة حماية آثار الفن العربي وغيرها. وقد حظيت تلك الإصدارات برضا الأوساط الثقافية المصرية.

أدي تطور العلاقات التجارية والسياسية وزيادة حركة البضائع والركاب إلي مصر، بالإضافة إلي الوضع المستقر في بلاد الأهرامات، إلي تكون مستعمرة روسية هناك . والدليل علي تزايد أعداد المواطنين الروس في مصر في ذلك الوقت تمثل في ارتفاع أعداد المهاجرين من المناطق ذات الغالبية المسلمة في روسيا في النصف الثاني من القرن العشرين . وبالتأكيد أثر انضمام مناطق شاسعة من القوقاز ووسط آسيا إلي روسيا علي تدفق الأسر المسلمة من الإمبراطورية الروسية .

وفقًا لإحصاءات أكبر تعداد لسكان مصر، وأكثرها تفصيلا عام 1897م ، بلغ إجمالي الروس في مصر ذلك الوقت 4225 نسمة.[48] وبلغ اجمالي الروس ذوي الأصول اليهودية المقيمين في

46 السياحة في روسيا بقلم رشاد بك – رئيس محكمة مصر سابقًا. القاهرة. غير معروف عام الإصدار.

47 بتوصية من أ. إي. كوياندر «تم منح القائم بأعمال المستشار المالي المحلي ورئيس قسم الإحصاء والتعداد (تعداد السكان البلاد الكامل عام 1897م) والمواطن الفرنسي أ. بوانيه-بك وبأوامر عليا، وسام القديسة ستانسلافا من الطبقة الثانية وذلك لتقديمهما: 1- ثلاثة نسخ من القاموس الجغرافي، أحدهم خاص بوزارة خارجية الإمبراطورية، بينما الإثنان الآخران لقسم اللغات الشرقية؛ 2- نسخة (ثلاثة مجلدات) من نتائج التعداد العام لسكان مصر موجهة إلي لجنة الإحصاء الروسية المركزية». كما تم التأكيد علي استعداد المواطن الفرنسي أ. بوانيه لتقديم المساعدة المستمرة لممثلي الدبلوماسية الروسية (أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، فهرس 820/1، ملف 207، ورقة 22-22مكرر، 150-150 مكرر).

48 التعداد الشامل للسكان عام 1897م. الجزء الأول، القاهرة، 1931م، ص. 221-206 (باللغة العربية).

مصر ما يقرب من 10% (314 شخص)، بينما ازداد قليلا تعداد المسلمين منهم (332 شخص).[49]

وفي الوقت ذاته كان هناك 140 خوارزمي و42 بخاري؛ من ضمن 523 مواطن روسي بالإسكندرية.[50]

يجدر الإشارة أن الجالية الروسية المسلمة بدأت في التكون بمصر قبل ذلك ، أي بعد إنشاء أول جمعية مركزية للمسلمين في روسيا القيصرية ؛ ألا وهي جمعية أورينبورغ الروحية المحمدية (1788 ـ 1917م)، عندما تم السماح بالحج إلي مكة والمدينة. مع تطور حركة الملاحة في البحر الأسود والبحر المتوسط بعد ذلك ، ومع مد خطوط مواصلات بين أوديسا والإسكندرية ، أصبحت الأخيرة نقطة توقف مهمة علي طريق الحج ؛ حيثما كانت تتجمع وتتشكل جاليات مسلمة وافدة من روسيا القيصرية، وكان من بينهم أحد سكان من وسط آسيا كولداش-بك كمال الدين البخاري، الذي أبدي حسن الضيافة عام 1880م إلي عالم االدين الشهير والمصلح الديني وصاحب الفكر التنويري شهاب الدين مورجاني من كازان أثناء قيام الأخير بالحج إلي مكة («نزلنا من السفينة ونزلنا عند كولداش-بك كمال الدين البخاري»).[51]

في ذلك الوقت كان كولداش بك – حسبما قال المرجاني – يمتلك غرفة مخصصة للحجاج المسلمين القادمين من روسيا إلي القاهرة . وكان منزله واسعا ويسع العديد من الضيوف الروس المسلمين المتوجهين لأداء فريضة الحج عبر مصر ، والذين كانوا يعودون إلي أرض الوطن عبر ميناء الإسكندرية .[52] ويشير حفيده سامي كولداش ، القاطن الآن في عاصمة مصر الشمالية (الأسكندرية) ، إلي الدور الفعال الذي كان يلعبه جده ، خاصة بين الوافدين لأول مرة إلي أرض مصر.[53] كان خ. ألموشيف، إمام قرية بيتريكس في محافظة نيجيجوراد، الذي قام بالحج بين عامي 1899 ـ 1901م أحد من تلقوا المساعدة من أسرة كولداش. كتب حميد الله ابن فتح الله (الاسم الكامل لألموشيف) في مذكراته

49 نفس المرجع. ص. 68.

50 من المدهش أن تقرير القنصل الروسي العام إي. ليكس في القاهرة خلال عام 1880م يتحدث عن: «بلغت أعداد الروس التابعين والذين يعيشون في مصر تحت حمايتنا 250: وهم من سكان الجبل الأسود، والصرب، والبلغاريين وسكان وسط آسيا؛ كانت أعداد الروس قليلة، بينما العدد الأكبر من الروس التابعين يونانيون وأرمن وشراكسة، ومن طشقند وسمرقند (مصر بأعين روسية... ص. 126-125).»

51 شهاب الدين مورجان. رحلة المورجاني//حج المسلمين الروس. مجموعة مذكرات سفر عن الحج. ن. نوفجوراد: دار نشر «المدينة»، 2008، ص.14. عن المسلمين في مصر. بالتفصيل: ج.ف.جارياتشكين. الإسكندرية الروسية. مصير الهجرة في مصر. موسكو، «الطريق الروسي»، 2010، ص. 59-55.

52 اشتغل المهاجر لاحقًا بالتجارة وتخصص في توريد آلات الفنار والمواني. بجانب رجل الأعمال حسن فوليا منذ عام 1930م أشتغل بتجارة المواد الغذائية، التي كانت منتشرة في بورسعيد والسويس وكانت تمتلئ بها سفن الشحن المارة عبر قناة السويس. توفي عام 1951 عن عمر يناهز 60عامًا ودُفن في مقابر البحارة في الإسكندرية.

53 أنظر بالتفصيل: ج.ف.جاريا تشكين. الإسكندرية الروسية. مصير الهجرة في مصر. موسكو، «الطريق الروسي». 2012. ص. 61-58.

«الحج نامة» (نامه في اللغات الهندو- فارسية هو رسالة والحج نامة هو كتاب الحج أو رسالة الحج) (تعليق المصحح د- محمد رياض) عن صاحب المنزل المضياف في الإسكندرية – والذي أطلق عليه لسبب غير معلوم «الطشقندي» - : «بعد خروجنا من بورسعيد توجهنا إلي الإسكندرية، حيث وصلنا في الثامن والعشرين من شهر شوال[54] في السابعة صباحًا. ولم نكن في أفضل حال. ومن أجل الترويح عن أنفسنا توجهنا إلي منزل مواطن طشقندي يُدعي حاج كولداش . وطلبنا من أهل المنزل أن يعدوا لنا طعام البلوف (طبق من الأرز واللحم. تعليق المترجم) ، الذي بدا شهيًا جدًا. بعد تناول الطعام أكملنا الطريق في أفضل حال» .[55]

ونري ان المعيار الوحيد لتقييم المصريين لروسيا انبعث من خلال ممثلي الجالية الروسية المسلمة – التي كانت تعيش باستمرار في مصر – بالإضافة إلي طلاب جامعة الأزهر وفرعها في الإسكندرية وطلاب المؤسسات العلمية الأخرى .[56]

قام صابر عليم أفندي- أحد خريجي جامعة الأزهر تتاري الجنسية- بزيارة محمد طلعت، كاتب أولى المذكرات الثلاث الصادرة في كتاب عن رحلات المصريين أثناء تواجدهم في روسيا في بداية القرن العشرين، حيث عرض عليه التوجه إلي سانت بطرسبورج للعمل محرر لغة عربية في صحيفة «التلميذ».[57] أرسل لطف الله شكري الإسحاقي، الذي أنهي الدراسة في جامعة الأزهر في القاهرة مع أخوه أحمد أفندي الإسحاقي، هذا العرض المكتوب إلي محرر الصحيفة المستقبلي. في الوقت ذاته ألتقى خريج الأزهر التتاري الآخر عبد الرشيد إبراهيم أفندي بمحمد طلعت في العاصمة الروسية .[58]

كان المسلمون الروس في مصر يعرفون المصريين علي روسيا و يحكون عن وطنهم والأطر التي تحكمه ووضع المسلمين في روسيا. والأبرز في هذا الإطار زيارة عالم الدين التتري والمحاضر التتري سالف الذكر خ. ف. ألموشيف ،[59] الذي قام بالحج مرتين أثناء رحلته

---

54 الشهر العاشر في التقويم القمري.

55 خ. ألموشيف. الحج نية. كتاب عن الحج. مذكرات سفر. ن. نوفجوراد: دار نشر نيم «ماخينور». 2006. ص. 39.

56 طبقًا لما أورده الأستاذ ف. م. أتسامب، فقد بلغ عدد المدارس في المدن المصرية بحلول القرن التاسع عشر أكثر من 50 مدرسة، حيث كان الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامي يتلقون التعليم العالي. خلافًا لذلك، في مئات وآلاف المساجد ألحقت كتاتيب – مدارس ابتدائية. ف.م.أتسامب الحياة الفكرية في القاهرة والإسلام (القرن الثامن-بداية القرن العاشر //مقالات لومونوسف. ملخص تقارير. إبريل 2001م. معهد دول آسيا وإفريقيا التابع لجامعة موسكو الحكومية. ص. 170-161.)

57 «التلميذ» - صحيفة باللغة العربية كانت تصدر في سانت بطرسبورج بين عامي 1906- 1907م. بعد إصدار ثلاثين عددًا حظرت السلطات نشرها في أعوام الثورة الروسية الأولى. الناشر والمحرر عبد الرشيد إبراهيموف.عن ذلك: الإسلام في سانت بطرسبورج... ص. 81-80.

58 روسيا بأعين مصرية. رحلة محمد طلعت إلي سانت بطرسبورج في عامي 1906- 1907م//أرشيف الشرق. موسكو، رقم2 (20)، 2009، ص. 59-58.

59 وُلد خ.ف.ألموشيف عام 1855م في محافظة سيمبيرسك، وتوفي عام 1929م. تلقي العلوم الدينية في الأزهر، حيث كان يدرس الفقه الإسلامي، واللغات العربية والفارسية والتركية والتاريخ والفلسفة وعلوم الفضاء والجغرافيا والرياضيات والطب وعلم الجماليات. وفيما بعد عُرض عليه

الطويلة إلي الشرق الأوسط في الفترة بين عامي 1899 ـ 1901م . التقي ألموشيف أثناء تواجده في القاهرة بمحرر صحيفة «المؤيد»، وكان موضوع الحديث الرئيس بينهما حول الوضع في روسيا. في الوقت ذاته استقبله مصطفي كامل الذي كان آنذاك يشغل منصب رئيس تحرير صحيفة «اللواء» . يتذكر ألموشيف هذا اللقاء قائلا: «كنا نتحدث كثيرًا عن قضايا علمية مختلفة تشغل العلماء وتختص بالتعليم الإسلامي. ترك محاوري في نفسي انطباع رجل مفكر وحاذق يعول علي قرائن حقيقية ومحددة. تركزت نتائج حوارنا في مقالة نُشرت بإحدى الصحف و سأدرج أهم النتائج هنا: «عالم كازان. يعتبر الحدث الأبرز في بلدنا وصول أشهر عالم من الكازان إلي مصر في طريقه لأداء فريضة الحج المقدسة . اسم هذا العالم الكبير، الذي شرفنا بزيارته ، السيد حميد الله ابن فتح الله. اليوم يتحدث الكثيرون معه عن وضع المسلمين في كازان وفي روسيا بشكل عام . فمن خلال كلماته علمنا أن الحكومة الروسية تضع العراقيل أمام انتشار الدين الإسلامي، موجهة إساءات للمسلمين لا يستحقونها. ولهذا يناضل المسلمون من أجل التمسك بدينهم، ويتحملون الكثير من أجل هذا الدين ومبادئه ».[60]

وفيما بعد ورد في صحيفة «اللواء» أن « القرآن واللغة العربية تُدرس » في المجتمع الروسي الإسلامي، «كما تدرس الفتيات أسس الدين وأركان الإسلام »، ولهذا « تنتشر الأخلاق والفضيلة بينهم »، « ولا ينتشر الفسق والفحشاء، بل أن معظم نسائهم يعتبرن نموذجًا للفضيلة والعفة»...، «وأن دراسة العلوم الإسلامية متطورة في تلك المناطق بشكل كبير».[61]

من المؤكد أن اهتمام جريدة مصطفي كامل بوضع المسلمين في روسيا – كما كان الحال على ما يبدو بالنسبة للصحف المصرية القومية الأخرى – جعل «اللواء» صاحبة المبادرة في تجميع مساعدات لصالح الجياع من المسلمين الروس عام 1907م. وفقًا لما أوردته الصحافة المصرية فقد بدأ تجميع المساعدات لمسلمي روسيا في شهر يناير: «فقد جمعت أول 77 جنيه، واستمرت التبرعات».[62] في الثالث عشر من يونيو من نفس العام كتبت الجريدة أن «اللواء» قد جمع 10235 جنية في اكتتاب عام من أجل المسلمين الروس الجائعين.[63]

تعرف ف. ألموشيف في مصر علي موسي بيجييف، الذي كان يتلقي دروسًا لدى مدرسي جامعة الأزهر، وكان يحضر دروس محمد عبده أحد دعاة الإصلاح في مصر، ويذاكر منفردًا في مكتبات القاهرة. وفي وقت لاحق تلقى تعليمًا لمدة عامين في مكة والمدينة، وبعد عامين عاد مجددًا إلي القاهرة، حيث عكف علي كتابة الأبحاث العلمية. وبفضل م. بيجييف خرج إلي النور أهم عمل في ذلك الوقت «تاريخ القرآن الكريم وقوائمه»، الذي صدر في كتاب مستقل في كازان عام 1905م، كما نَشر في مجلة «المنار» القاهرية عام 1907م. بمرور الوقت أصبح م. جيجييف داعية بارز وشخصية اجتماعية وسياسية وناشر

العمل في إحدى مدارس بطرسبورج، والتي خدم فيها بعض الوقت أيضًا كملا عسكري.

60 خ. ألموشيف. المرجع الأسبق. ص. 42.

61 نفس المرجع.

62 كان الجنيه عام 1907 يعادل 26 فرانك أو 14 روبل روسي. بيجي. مقتبس عن: «فنار الإسكندرية»، 16.01.1907.

63 نفس المرجع، 13 يوليو 1907م. الجنية يعادل 26 فرانك أو 14 روبل روسي.

وعضو في الحزب الإسلامي «إتفاق المسلمين» الذي تم إنشائه في روسيا في سنوات ما قبل الثورة 1905 ـ 1907م.[64]

وكما اتضح كان المسلمون الروس يلعبون دورًا فعالاً في مصر ولديهم علاقات وطيدة مع المسلمين المصريين. لم تقل حوارات ألموشيف مع الصحفيين المصريين البارزين ولم يقل اهتمامه بروسيا والمسلمين الروس، بل علي العكس.

أثارت الأحداث المرتبطة بروسيا الرأي العام في مصر. فهزيمة روسيا القيصرية في الحرب الروسية اليابانية عام 1904 ـ 1905م كان له وقعه الكبير علي الجماعات الإسلامية التي كانت تعتمد علي الشباب الأتراك .[65] فبالنسبة لهم يمثل انتصار اليابانيين نصرًا للشرق المستعبد علي الغرب، علي الرغم من أن طرفا الصراع في تلك الحرب الضروس كانتا قوتين إمبرياليتن ؛ ألا وهما روسيا واليابان . في الواقع لم تحظ الرؤى المعادية لروسيا بتأييد الرأي العام في مصر، ولكنها أثارت الكثير من القلق للدبلوماسيين الروس.

تحولت المؤشرات السلبية لوضع المسلمين في روسيا إلي إيجابية والعكس. لاقي محرر وناشر صحيفة «ترجمان» إسماعيل بك جابرينسكي[66]، الذي وصل القاهرة في أكتوبر عام 1907م « استقبالا حافلا وسط المجتمع المسلم هناك».وفي الإجتماع الذي نظمته جريدة «المؤيد» ألقي محاضرة بحضور 500 شخصية من علماء إسلاميين بارزين وناشرين وشيوخ وبكوات وغيرهم؛ تأكيدًا للفكرة التي أثارها من قبل علي صفحات جريدته، «فقد صور ببلاغة اللامبالاة الملحوظة والانحدار الفكري والأخلاقي والإقتصادي بين المسلمين في كل مكان» .[67]

ومن أجل توضيح أسباب تلك الظاهرة واتخاذ الوسائل المناسبة للمساعدة في إعادة بناء العالم الإسلامي علي المستوي الثقافي والإقتصادي وتزويده بأفضل وسائل الحضارة الأوروبية اقترح إسماعيل بك دعوة رواد الثقافة الإسلامية إلي مؤتمر في القاهرة أو في أي مكان آخر بعد عام أو أثنين .

64 وُلد بيجبيف (بيجبيف، بيجي) موسي يارولافيتش عام 1874م في مقاطعة بينزينسكي. وتوفي عام 1949م//الإسلام في سانت بطرسبورج... ص. 37. أنظر عن هذا فيما يلي أيضًا.

65 أشير في الخطاب الدبلوماسي للقنصل العام ب. ف. ماكسيموف إلي وزارة الخارجية بتاريخ السابع عشر من مارس عام 1905م: «حربنا في أقصى الشرق تترك انطباعًا متباينًا علي العرقيات المختلفة التي تعيش في مصر . بلا أدني شك تتعامل معظم الجماعات الإسلامية معنا بعداء وتشعر بسعادة لنجاحات اليابانيين». أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. صندوق. الأرشيف السياسي. فهرس 482، ملف 853. 1905. ورقة 53.

66 وُلد الميرزا إسماعيل جاسبرينسكي عام 1851م في القرم، وتوفي عام 1914م في باخشيساراي. شخصية إجتماعية بارزة، ناشر ومحرر ومربي وصاحف فكر تنويري ومفكر في الثقافة التركية وأحد قادة الجناح الليبرالي للمسلمين الروس.

67 أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، صندوق، الأرشيف السياسي، فهرس 589، 1907، ورقة 149.

وبعدما ألقي كلمته – التي تخللها أكثر من مرة التصفيق الحاد – تم إختيار لجنة منظمة من أجل تنفيذ مبادراته علي أرض الواقع. يذكر الممثل الدبلوماسي الروسي في القاهرة فيما بعد أن محاضرة إسماعيل بك كان بمثابة دعاية أكثر من طيبة لروسيا وسط الحاضرين. فبعد أن استمعوا لوصفه للعلاقة الطيبة وغير المنحازة لقوانين الحكومة والمجتمع الروسي تجاه المسلمين في روسيا ووسط تصفيق حاد من الحضور طلب رئيس محكمة القاهرة لطيف باشا سليم من إسماعيل بك باسم المسلمين المصريين – معبرًا عن امتنانه لحكومة الإمبراطورية والشعب الروسي – التعامل الإنساني مع إخوانهم المسلمين هناك» .[68]

كانت تلك هي التقديرات المتضاربة لسياسة الحكومة القيصرية تجاه المسلمين الروس. ولهذا وقع المسلمون المصريون في حيرة حول حقيقة تلك التقديرات. فلم يفتر إهتمامهم بأوضاع مسلمى روسيا.

سرعان ما تحول الإهتمام إلي واقع عملي؛ ففي عام 1906 وصل إلي روسيا محمد طلعت للعمل محررًا في جريدة «التلميذ» الصادرة في سانت بطرسبورج باللغة العربية. واستمر في روسيا منذ أكتوبر عام 1906م وحتى مايو عام 1907م، أعقبها ظهور كتاب ذكرياته.[69]

تمثل التشابه الرئيسي لمذكرات سفر الرحالة المصريين الموضحة فيما يلي في أن مؤلفيها يولون إهتماما أوليا بوضع المسلمين الروس، خاصة محمد طلعت ورشاد بك. يتعلق الاختلاف – في المقام الأول – في طريق سير رحلات المصريين الثلاث عبر روسيا. فبينما مر محمد علي بالبلاد عبر طريق مستقيم من موسكو وحتى فلاديفاستوك، فإن محمد طلعت قد بدأ طريقه في أوديسا وانتهي في سانت بطرسبورج، بينما قطع رشاد بك الطريق من الجنوب إلي العاصمة الشمالية عبر الطريق المؤدي من أوديسا – القرم (إيفباتوريا، سيفاستوبل، باخشيساراي، يالتا) – القوقاز (باتوم، كوتايسي، تيفليس، فلاديفاستوك، ومن جديد إلي تيفليس، باكو) – أستراخان – سمارا – ساراتوف – كازان – نيجني نوفجوراد – ريبينسك – وحتى سانت بطرسبورج. خلافا لهذا تحتوي مذكرات القاضي علي وصف موسكو وتفير ومدن بحر البلطيق وكييف من الناحية الإقتصادية والجغرافية والثقافية العرقية، كما اشتمل الوصف علي تأملاته أثناء رحلته السابقة إلي روسيا في مستهل القرن العشرين.[70]

يحمل عنوان مذكرات رشاد بك معنيين. فمن ناحية يمكن ترجمته «رحلة عبر روسيا»، ومن ناحية أخري «سياحة في روسيا». لم يأت تقارب كلا العنوانين – حتى في حيز تفكير المؤلف – من قبيل الصدفة لعدة أسباب.

---

68 نفس المرجع، ورقة 150-149.

69 محمد طلعت. السير والنظار (رحلات وتأملات). القاهرة، دار نشر «بروجريس»، 1907 .

70 يدور الحديث عن رحلة المؤلف الأولي، التي قام بها إلي روسيا منذ عشرة سنوات؛ أي في عام 1903م تقريبًا. تقع المعلومات عن تلك الرحلة في أحدى فصول هذا الكتاب تحت عنوان «الرحلة الأخرى» (ص. 71-66). لم نتمكن من التوصل إلي تأكيدا لهذا. ومن ناحية أخري لا يوجد سبب لعدم الوثوق في المؤلف.

بدأت مصر منذ بدايات القرن العشرين تنفتح أكثر علي السوق الرأسمالي، بل وأصبحت جزءًا لا يتجزأ منه، وبسبب سياسات بريطانيا أصبحت مصر بمثابة مستعمرة لها. ولم تكن بلاد الأهرامات بعيدة عن تطور السياحة العالمية . وازداد في جميع أرجاء الكرة الأرضية آنذاك – ومن بينها روسيا – « الهوس بعلم المصريات » ، وارتفعت أعداد السياح الوافدين إلي وادي النيل كل عام، حيث وصلت في ذلك الوقت إلي ما لا يقل عن خمسة أو ستة آلاف شخص. حقق مجال السياحة نجاحًا باهرًا في مصر منذ بداية التسعينات من القرن العشرين عندما وصلت أعداد السياح الوافدين من أوروبا في موسم الشتاء فقط إلي 5200 زائر.[71] يرجع الفضل في الإشارة إلي ذلك إلي موظف بعثة جمعية الملاحة والتجارة الروسية ف. م. ميلر، الذي كان متوجهًا للقيام بتفتيش دوري علي عمل الوكالات التابعة للجمعية علي خط الإسكندرية في إبريل ومايو من عام 1893م .[72] وأثناء تواجده في العاصمة الشمالية لمصر أثار إهتمامه هذا المجال، مشيرًا في تقريرعن رحلته باسم مدير عام إدارة جمعية الملاحة والتجارة الروسية أن : «حركة السياحة تتزايد مع كل عام. في السنوات السابقة كان السياح يتوجهون إلي الشرق بين الحين و الآخر، وبالأخص في فصلي الربيع والخريف، أما في الوقت الحالي فهم يتوافدون تقريبًا علي مدار العام، ولكن من الملاحظ أن فصلا الربيع والخريف يشهدان فقط تزايدًا في الإعداد».[73]

أتاحت مثل تلك المأموريات الفرصة إلي قيادة جمعية الملاحة والتجارة الروسية لاتخاذ الإجراءات اللازمة لزيادة حركة الركاب في ظل تصاعد وتيرة الإهتمام بالشرق العربي بشكل عام وبمصر بشكل خاص. وبحلول القرن العشرين بدأ إزدهار السياحة في روسيا، والذي وصل صداه إلي صحافة الإسكندرية، وبالأخص الصحيفة الرئيسة في المدينة «فنار الإسكندرية»، التي جاء علي صفحاتها في صيف عام 1906م أنه من المتوقع وصول سياح روس إلي الإسكندرية، وسيقومون بزيارة القاهرة وصعيد مصر .[74] تعين علي القنصلية الروسية في عاصمة مصر الشمالية تولي شئون الروس مباشرة، ولهذا تحديدًا ظل القنصل أ. م. بيتروف يحتفظ بوسام شرف التفاني للجنة الرحلات البحرية، مما يدل بصورة جلية علي خدماته الجليلة للسياحة الروسية في مصر ، التي شهدت تطورًا قبل الحرب العالمية الأولي .[75]

لفتت وزارة التعليم الروسية الإهتمام إلي ضرورة تنظيم سياحة عامة وإدراجها في برامج المدارس ، ولهذا أنشأت لجنة لتنظيم الرحلات التعليمية . وسعت اللجنة بخطى حثيثة لتكوين مجموعات سياحية إلي مصر من أجل الوقوف علي مستوي العملية التعليمية في المدارس الثانوية والمدارس الأخري والجيمنازيا. كما سعت اللجنة – في المقام الأول – إلي تلبية طلبات الأساتذة والمدرسين في المعاهد التعليمية للسفر إلي أرض الفراعنة . يظهر عنوان إحدى الوثائق الأرشيفية المتعلقة بعمل اللجنة والموجهة إلي المبعوث الروسي في

71 الأرشيف التاريخي للدولة الروسية. صندوق 107. جمعية الملاحة والتجارة الروسية، فهرس 1، ملف 1174، ورقة 110.

72 كانت جمعية الملاحة والتجارة الروسية تقوم بتلك البعثات كل عشر سنوات، بداية من عام 1863م.

73 الأرشيف التاريخي للدولة الروسية. صندوق 107 جمعية الملاحة والتجارة الروسية. فهرس 1، ملف 1174، 1893م. ورقة 110مكرر-111.

74 «فنار الإسكندرية»، 08.06.1906.

75 ج. ف. جاريانشكين. الإسكندرية الروسية...، الطبعة الثانية، ص. 172.

مصر أ. أ. سميرنوف طبيعة عملها وعن اهتمام الأوساط الثقافية والتعليمية المتزايد ببلاد الأهرامات: «علاقة لجنة تنظيم البعثات التعليمية بتقديم المساعدة إلي أ. أ. سميرنوف في الحصول علي تسهيلات عبر طريق السكك الحديدية أثناء سفر مجموعة من المدرسين الروس المقرر قيامهم برحلة إلي مصر في السادس عشر من مارس عام 1910م. كانت رئيسة اللجنة الكونتيسة ف. ن. بابرينسكايا، والسكرتير أو. فينتيرفيلد.[76]

أوردت الوثيقة بعد ذلك قيام اللجنة - علي غرار العام الماضي - بتنظيم رحلات إلي مصر، التي سيشارك فيها أربعة مجموعات من المدرسين والمدرسات الروس بواقع 50 شخصا في كل مجموعة».[77]

و كان تعاون السلطات المصرية مع الروس طيبا عندما كان الأمر يتعلق بوصول أعضاء الرحلات الروسية إلي شواطئ نهر النيل في منتصف عام 1910. ولقد توصلنا إلي خطاب موجه من وزير الخارجية رشدي بك إلي أ. أ. سميرنوف يعبر فيه عن استعداده لتقديم المساعدة إلي الوفد الروسي، الذي يتكون من أساتذة وطلاب المدارس العسكرية الإبتدائية في كييف ومدارس سانت بطرسبورج.[78]

ولكن لم ترد الطلبات من دارسي وطلاب مدارس عسكرية في روسيا فقط ولكن من ممثلي المعاهد التعليمية العليا أيضا. وفي نفس العام تقدم المدرس المساعد بجامعة بطرسبورج أ. تيموفييف بطلب إلي أ. أ. سميرنوف لتقديم المساعدة في حصول طلاب جامعة العاصمة وعددهم خمسة وعشرين شخصا علي التسهيلات اللازمة.[79]

استحوذت الرغبة في التعرف علي مصر والعيش في عالم الماضي علي فكر أساتذة الجامعات. ولهذا تبدو قصة إنجذاب الروس إلي مصر وسعيهم للتواجد في وادي النيل ورؤية آثار مصر القديمة ناقصة دون ذكر رحلة أستاذي جامعة موسكة أ. ن. بابرينسكي و ن. ف. باجايافلينسكي، اللذان قررا قضاء عطلة أعياد الميلاد في مصر. بعد زيارتهم إلي مصر خرجت إلي النور مذكرات سفر ن. ف. باجايافلينسكي («عبر نهر النيل. مقالة رحلة شتاء عام 1907م»)، التي صدرت في سبعة أعداد من مجلة «العلوم الطبيعية والجغرافيا» عام 1908م.[80] تتكون مجموعة المذكرات من تسعة أبواب و تحتوي علي معلومات تاريخية وجغرافية وإنسانية منتقاة بعناية، بالإضافة إلي الصور الطبيعية أثناء الرحلة النيلية من القاهرة وحتى شواطئ النوبة. يمكن للسائح المعاصر أن يستفيد من وصفه للآثار المصرية القديمة. في تلك الأثناء يصف أستاذ علم الحيوان في جامعة موسكو الجوانب الإجتماعية والنفسية لطبقات المجتمع المصري المختلفة التي رآها أثناء تواجده في مصر،

76 مصر بأعين روسية...، 285-284.

77 نفس المرجع.

78 نفس المرجع، ص. 287-284.

79 نفس المرجع.

80 أنظر بالتفصيل عن الكاتب: ج. ف. جاريانشكين، م. أ. كيسلوف. رحلة باجايافلينسكي إلي الممالك العربية في الخليج الفارسي عام 1902م. موسكو، دار نشر مركز معهد دول آسيا وإفريقيا التابع لجامعة موسكو الحكومية، 1999؛ ج. ف. جاريانشكين، م. أ. كيسلوف. الخليج الفارسي: مغامرات عجيبة للعالم الروسي// «آسيا وإفريقيا اليوم»، 1999، رقم 6.

بالإضافة إلي الجاليات الأجنبية هناك . ولم يستطع أستاذ علم الحيوان غض الطرف عن السياسة البريطانية في مصر المُستعمرة .

في ذاك الوقت كان إهتمام الشركات السياحية في مدن مصر الكبرى يتزايد بدول العالم المحيط (علي سبيل المثال جزر كوك) ومن بينها الإمبراطورية الروسية ؛ وظهر مرشدين ومرافقين على شاكلة البيديكير (اسم يُطلق علي المرشد قديمًا)، وهذا ما يفسر دواعي سفر الكاتب المصري الثالث رشاد بك، والتي دخلت مذكراته ضمن هذه المجموعة. ولهدف ما أبدي الكاتب إهتمامًا كبيرًا بمعالم مدن روسيا الروسية ، وبعادات سكانها و تقاليدهم والفروق بينها، ووسائل المواصلات التي تربطها وأسعارها وأسعار الفنادق . يدل إصدار مذكرات سفر محمد طلعت ورشاد بك في أحد دور النشر بالعاصمة أن الإهتمام بالجوانب الإقتصادية هو ما دفع الأخير للقيام بتلك الرحلة . حدد الشاعر والصحفي محمد طلعت سلفًا رحلة القاضي المصري ، كما ساعدنا - علي ما يبدو - عن طريق شركة سياحية غير مشهورة في القاهرة في تمويل رحلته والإعداد لها بشكل كامل.

و من الناحية الموضوعية يحتوي كتاب محمد طلعت - علي الرغم من حجمه الصغير -علي العديد من المعلومات عن روسيا. فوجوده في مدينة بطرسبورج لأكثر من نصف عام أتاح له فرصة التعرف جيدًا علي حياة العاصمة وتاريخ إنشاءها علي يد الإمبراطور بطرس الأول ، بالإضافة إلي معالمها ومشاكلها التجارية والثقافية وشكل الحياة وعادات عشرات الآلاف من المجتمع المسلم هناك.

يبدو أن الدراسة المتأنية للواقع الروسي ومراقبة الظروف الإجتماعية والسياسية خلال مدة طويلة في العاصمة والإمبراطورية ساعدت الصحفي الموهوب علي تجنب الوقوع في أخطاء بشأن تحديد الأماكن والتوثيق والجغرافيا ، كما أعطته الفرصة للتأمل في القضايا السياسية المعقدة للإمبراطورية الروسية، وحضور جلسات الدوما. ظل محرر جريدة «التلميذ» يقارن بين سياسات الإمبراطورية الروسية ودول أوروبا، ويجري قياسًا علي الواقع المصري . فالكثير مما رآه وسمعه كان خياليًا بالنسبة للمواطن المصري، كما هو الحال بالنسبة للمواطن الروسي . من المدهش أن روسيا خلفت انطباعًا طيبًا في نفس طلعت بشكل عام ، ولهذا نشعر بتعاطف في كتاباته عن الروس. فعلي الأرجح أسهم كتاب «رحلات وتأملات» في تكوين صورة إيجابية عن روسيا والروس في مصر.

وعلي الرغم من ذلك يعتبر أسلوب سرد محمد طلعت أكثر تحفظًا بالمقارنة بالكاتبين الآخرين. فقد كان ملتزمًا بتقاليد فن (وصف الرحلات) فقط مع تغير في طريقة الوصف التقليدي وخروج علي قوالب الأدب العربي الرفيع. ونلاحظ الخروج علي القوالب التقليدية لأدب «الرحلات» تحت تأثير أشكال الأدب القصصي الجديدة من خلال تعدد المعلومات الاسترشادية، مما يعتبر أسلوب مميز في ذلك الوقت. ولهذا يمكننا اعتبار مقالات محمد علي دليل للمستقبل يسترشد به المسافرون المصريون إلي روسيا.

وبعد عام من ذلك صدرت في دار نشر «الأميرية» القاهرية مذكرات الأمير محمد علي (1875-1955م) - أحد أفضل المواطنين ثقافة وتعليمًا في مصر، والذي قام برحلة إلي اليابان عام 1909م عبر روسيا، كانت المذكرات عبارة عن خمس وثلاثين صفحة بتنسيقات قليلة.

لا تتطرق مذكرات شقيق عباس الثاني إلي النظام السياسي في الإمبراطورية الروسية بنفس الدرجة في مذكرات م. طلعت والقاضي رشاد بك. فقد أولي محمد علي إهتمامًا خاصًا في مذكراته لوصف أصول الروس وأسلوب حياتهم اليومية وسلالات سكان روسيا ومنغوليا والصين، ووصف المناطق الجغرافية المختلفة علي مدار رحلته. كتب ولي العهد الفضولي – الذي حكم بلاد الأهرامات – قصة مؤثرة عن رحلته.

بدت العديد من الأشياء التي رآها أمير مصر في ربوع روسيا غريبة ، ولم يستوضح بعض الحقائق الجغرافية والتاريخية علي الرغم من محاولته إظهار سعة إطلاعه ومقارنة النظم الحاكمة في الإمبراطورية الروسية بمثيلاتها في المؤسسات الأوروبية التي زارها أكثر من مرة. وعلي أية حال كان من المؤكد أن مذكرات محمد علي قد أثرت كثيرًا في القراء ، فهي تستمد أهميتها حتى الآن من خلال نقلها صورًا حية للضيف الأجنبي وتشهد علي رغبة الدوائر الحاكمة في تطوير العلاقات بين البلدين. بالإضافة إلي ذلك تعتبر رحلة محمد علي شاهدًا آخر علي أن علاقات الصداقة بين الأسرتين الحاكمتين في روسيا ومصر بلغت ذروتها في فترة حكم أخيه الخديوى عباس حلمي الثاني (1892 ـ 1914م) .

تعتبر رحلة القاضي المصري رشاد بك، التي أنهاها – وفقًا لتأكيداته – عام 1913م، هي الأكبر والأهم من بين رحلات المصريين الثلاث .[81]

يجدر الإشارة إلي أن موقف رشاد بك أكثر حرجًا من محمد طلعت والأمير محمد علي. إذا كان الصحفي المصري وشقيق الخديوي قد تعاملا بصورة أكثر هدوءًا مع وضع المسلمين الروس واستحسنا سياسة حكومة القيصر ، فلطالما انتقد القاضي السابق هذا الموقف. كما أن السلطات الروسية لم تسلم من نقدة لعدة أسباب . وعلي جانب آخر، أبدى رشاد بك إهتمامًا كبيرًا بالشعراء والكتاب الروس أمثال بوشكين وليرمانتوف ودوستويفسكي وجوجل وليف تولستوي. وفقا لما قاله رشاد بك فقد التقي بتولوستوي وأعجب بتواضعه، والأكثر من ذلك، دعاه الكاتب الروسي لزيارة ضيعة ياسنايا بوليانا في أول زيارة له إلي روسيا في بدايات القرن العشرين.

كان مؤلف كتاب « رحلة عبر روسيا » مهتمًا فعليًا بجميع مشاكل السياسات الداخلية والخارجية للحكومة القيصرية . فقد أولي إهتمامًا خاصًا لسانت بطرسبورج، وحكي عن قصورها وكنائسها ومعالمها وجسورها وشوارعها ومتاحفها وأشهر آثارها وفنادقها ومطاعمها وأسعارها. بتعبير آخر، حقق المؤلف الأهداف التي وضعها قبل سفره إلي روسيا.وعلي الرغم من ذلك فإن المقارنة بينه وبين محمد طلعت في وصف مدينة بطرسبورج، ستجعل النتائج تصب في صالح الأخير .

ولكن يعود الفضل لمحمد رشاد في أن الموضوع الرئيس لتأملاته وبحثه أثناء رحلته في روسيا يعتبر وصف القرم والقوقاز والفولجا؛ أي مناطق تمركز المسلمين في الإمبراطورية الروسية .

81 لأول مرة تم نشر «رحلة» رشاد بك في جريدة «المؤيد» القاهرية في بداية عام 1914م. في الواقع أن إصدار هذا العمل لم يتأخر عن ذلك. للأسف، بغض النظر عن البحث المضنى، حتى بمساعدة المؤرخين المصريين، لم نتمكن من إكتشاف سيرة الكاتب الذاتية. فقد قمنا بترجمة مذكرات سفر القاضي المصري بأنفسنا بعدة نسخ وخاصة ما يخص هذا الجزء، الذي يدور الحديث فيه عن بطرسبورج، الذي استفاض في وصفه محمد طلعت.

وبعد تطرقه بشكل مختصر إلي أوديسا وتاريخها وإلي حرب القرم أيضًا أقدم الرحالة المصري علي وصف القرم ، حيث جذبته عاصمة تتار القرم باختشيراي . اكتسبت قصة آثار باخشيساراي الإسلامية والكتابات فوقها والتركيب العرقي لسكانها والمهن التي يشتغلونها قيمة خاصة بسبب أن المعلومات (وخصوصًا نصوص المخطوطات القديمة) ضاعت بلا رجعة ، ولهذا يكتسب وصفها قيمة تاريخية .

تكتسب المعلومات الخاصة بزيارة محمود رشيد، وربما المواطن المصري والشاهد الوحيد في ذلك الوقت، إلي زاكافقازيا وشمال القوقاز أهمية كبيرة بالنسبة للمواطنين. كان القاضي يعلم ويدرك ذلك جيدًا ولهذا كانت معلوماته مفصلة ودقيقة سواء ما يخص البناء العرقي للسكان وتخصصاتهم، أو ما يخص عاداتهم وطباعهم وتقاليدهم ، كما كتب بالتفصيل عن المدن والمتاحف والفنادق وأسعار الغرف فيها وأسعار تذاكر الأتوبيس وأكثر الأماكن المريحة فيها لاستعراض الطريق أمام المسافرين . في خضم ذلك لم ينس الكاتب إطلاع القراء علي المسافات بين المدن وأفضل طريقة للقيام برحلة وعن الوقت المُستغرق للتنقل بين المدن . نعتقد أن ملاحظات المسافر المُدقق يمكن أن تكون نافعة للسائح المعاصر.

سوف تثير إهتمام القارئ المعلومات الخاصة بباكو وأذربيجان وسكانها، بالإضافة إلي المعلومات الخاصة بمجال إستخراج النفط وأوضاع أصحاب الملايين هناك .

تعتبر المعلومات عن أستراخان والتطور الإقتصادي فيها محورية في وقتنا الحالي ، بل مفيدة للباحثين الحاليين.

فقد أثار الإهتمام الوصف الحي لنهر الفولجا والمدن الواقعة علي ضفافه وتطور الثقافة الإسلامية فيها، التي أثارت إعجاب المؤلف . يكتب الرحالة في وصفه كازان أن «التطور الثقافي لدي المسلمين هناك شهد طفرة كبيرة منذ عشر سنوات».[82]

أضاف رشاد بك بعض الوثائق التاريخية إلي قصته. في الجزء الذي يتحدث فيه الكاتب عن شامل (قائد سياسي وديني في شمال القوقاز وأحد أشهر المقاومين للوجود الروسي هناك، ولد عام 1797م. تعليق المترجم) ، غير الكاتب من الأسلوب الموضوعي في الحكي، مثنيًا على قائد ثورة شمال القوقاز بأوصاف حقيقية وخيالية، بعد ذلك اعتبر مسلمو القوزاق الروس أكثر الفرسان شجاعة ومهارة. تأكيدًا علي «حصول المسلمين الروس علي جميع حقوقهم السياسية والمدنية» يضيف الكاتب ، قائلاً: « روسيا بشكل عام بلد جميل ، إلا أن القرم والقوقاز أكثر جمالًا. وليس غريبًا أن يستحوذ المسلمون علي أكثر الأراضي خصوبة» . وأنهي الكاتب فكرته، مؤكدًا أنه لو أحسن المسلمين إستغلال أرضهم كما فعل صلاح الدين «لما غابت شمس دولتهم»[83].

اكتشف الكاتب بعض المعلومات الخاصة بحقائق تاريخية، ولكنه طوعها لوجهة النظر، التي يمكن وصفها بأنها أسلامية . فانطلاقًا من مشاعر الحنين إلي الوطن يذكر الكاتب أن الإمبراطورية الروسية وقعت تحت سلطة التتار المسلمين علي مدار 250 عامًا،

82 رشاد بك. المرجع الأسبق، ص. 49.
83 نفس المرجع، ص. 98-97.

وكان الأمراء الروس مضطرين لتزويج بناتهم من أمراء التتار، ولكن بعد إخضاع كازان وأستراخان علي يد إيفان الرهيب وحتى وقتنا الحالي يقع التتار تحت سلطة روسيا، مع أنهم كانوا يحكمون الروس من قبل.

دفع هذا الموقف رشاد بك للجوء إلي الإرشاد والوعظ: « إذا غيرت روسيا موقفها السابق وانتهجت سياسة حكيمة بالغاء الباسبور...، وأبدت مشاعر الود للعثمانيين، فسيبزغ نجمها وسينتشر عبيرها ومجدها في كل مكان ».[84]

وأنتقد الكاتب رجال الدين الأرثوذكس الذين يعيشون «في رغد وهناء في قصور رائعة» خلافًا «للفقر المدقع وبؤس الرعية» («أتمني لو هبط المسيح إلي الأرض»!).[85]

وللأسف تعتبر المعلومات التي أوردها م. رشاد في نهاية كتابه غير منظمة. فالتسرع في تجميع المعلومات عن روسيا والسعى «لإدراك كل المعلومات» أدي إلي عدم التحقق والتشوش والتضارب في بعض الأحيان. وجاء اختيار الأماكن وفقًا للأهواء. يطلق الكاتب علي قرى الألمان علي نهر الفولجا «ساكسونيا السفلى والعليا». كما بدت قرية ميخايلوفسكي علي بعد 35 كم من بطرسبورج. في معرض حديثه عن «طريق سيبيريا الكبير» يكتب أن الطريق بعد فلاديفاستوك ينقسم إلي فرعين – الأول إلي عاصمة الصين بكين والثاني إلي المدينة اليابانية «يوكاخامي».

علي الجانب الآخر يتضح أن رشاد بك كان مهتمًا بشكل كبير بالشعراء والكتاب الروس بوشكين وليرمونتوف ودوستويفسكي وجوجل وليف تولوستوي. وفقا لما قاله رشاد بك فقد التقي بتولوستوي وأعجب بتواضعه، والأكثر من ذلك، دعاه الكاتب الروسي لزيارة ضيعة ياسنايا بوليانا في أول زيارة له إلي روسيا في بدايات القرن العشرين، إلا أنه لم يتمكن من تلبية الدعوة.

***

علي الرغم من كثافة وتوسع العلاقات بين البلدين أحيانًا وعدم تكافؤها واستمرارها من جانب واحد أحيانًا أخري، إلا أن مساحة التعاون علي المستوي الحضاري الثقافي لا ترضي طموحات – بلا أدني شك – أي من الشعبين المختلفين تمامًا. من الواضح أن المصريين في الحوار المشترك كانوا متأخرين عن الروس، الذين كانوا يتوافدون علي مصر بصورة أكبر من توافد المصريين علي روسيا. ومما لا شك فيه كان هناك مطلبًا ملحًا لتعرف كل جانب علي الآخر، ولهذا جاءت هذه الرحلات إلي روسيا البعيدة والمجهولة بهدف التعرف علي أرض الواقع علي ثقافتها وعاداتها وتقاليدها، ومعرفة كيف يعيش المسلمون، وخاصة بعد انتشار الإشاعات والقصص المتضاربة حول مصيرهم...

84 نفس المرجع، ص. 103-104.

85 نفس المرجع، ص. 73.

كتاب

السير والنظر

وهى

رحلة تتضمن أحوال البلاد الروسية وعلاقة المسلمين بها
وكذلك البلاد المغربية " تونس " "وطرابلس " "ومالطه "
وعلاقة المسلمين بفرانسا وانجلترا والروسيا وتتناول
الكلام على مسائل سياسية وعمرانية وتاريخية الخ
(قل سيروا فى الأرض فانظروا الآية)
" قرآن شريف "

تأليف
" المفتقر إلى الله تعالى "
محمد طلعت

الطبعة الأولى
سنة ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م

مطبعة التقدم بشارع محمد على بمصر

خطبة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الحق . الذى باين بين الخلق . فجعلهم متخالفين غير متحالفين. ومتنائين غير متدانين . فهم وإن اجتمعوا بالاشباح . فقد افترقواا بمقاصد الأرواح . وكما تحالفوا فى الألوان والأشكال . قد تباينوا فى الطباع والأخلاق والأميال . فقال وهو خير القائلين . (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين). والصلاة والسلام على سيدنا محمد الآمر بالسفر . والمنزل عليه فى الكتاب الكريم أوامر السير والنظر . وعلى آله وصحبه الذين افتتحوا البلاد وعمروها . وشيدوا المدن ومصروها . (وبعد) فهذه صحائف خطها البنان . مملوءة بالبيان . مما أملاه الجنان . قصد الاعتبار بما رأت البيان . من بدائع الأكوان .

أقدمها بين يدى نجواى لأبناء وطنى الأعزاء . ليعلموا أين هم من الأمم فى تلك الانحاء . فيتسابقوا مع السابقين . والله تعالى مع العاملين المحسنين .



مقدمه

أخط كلماتى هذه ، وأنا متحقق أنه من أصعب الأمور تصوير الحقائق لتتجلى لدى القارئ كما هى لا صاعدة إلى درجات المبالغة والغلو ولا نازلة إلى حالة العى والقصور . لأن القارئ غير الكاتب فهذا انما يكتب عن مشاهدة وتحقق وذاك يقرأ عن تصور وتصديق. لا سيما وأن للقارئ شعوراً ووجداناً قدَ يتحدان مع شعور الكاتب ووجدانه أو يختلفان .

وعليه مهما لبست العبارات ثوباً ضافياً من حسن التعبير ، وجمال الأسلوب ، فإنها لا تكسب القارئ نفس وجدان الكاتب وشعوره ، خصوصاً وأن الانسان مطبوع على أن يقيس ما لم يشاهده من الأمور على ما يقع منها تحت أنظاره فهو يحكم بطبعه فتراه والحال هكذا يعجب من كلما يخالف مشاهداته وفوق ذلك . فإنه ليس كل قارئ مُلماً بتاريخ البلاد التى يقرأ عنها ، ولا عارفاً بجيوغرافيتها مما يجعل الحقائق قريبة من تصوره. ولهذا كله أظن أنى لو استعنت بقلم كل بليغ ، وفكر كل فيلسوف لأصور ما وصلت إليه مشاهداتى بحيث تجعل القارئ مشاركاً لى فيها مشاركة العيان والمشاهدة لما أكون إلا مقصراً وبعيداً عن الحال التى تجعل الحقائق مجلوة كما تبينتها ، ولكنى مع ذلك سأبذل الجهد فى تصويرها خدمة لأبناء وطنى الأعزاء ليقفوا على أحوال الأمم ، ويستفيدوا منها استفادة من أدى فريضة السير والنظر عملاً بقول الله تعالى فى كتابه الكريم (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) .

ويجمل بنا قبل أن نخوض فى موضوع رحلتنا هذه أن ننوه بذكر بعض ما يجب على من يريد القيام بفريضة السير والنظر التى تعد من فروض الكفاية بالنسبة لمجموع الأمة ، ولكنها من الفروض العينية على القادرين عليها بالعلم والمال .

فأما السير فيقتضى له معرفة الجيوغرافيا التخطيطية ليتسنى للسائر أن يقصد فى مشيه ، ويقتصد من ماله حتى لا يضيع الوقت الثمين هباءً ، ولا المال العزيز جزافاً . وأما النظر فتجب له معرفة أمور كثيرة أهمها الجيوغرفيا السياسية ليكون على بينة من أمر البلاد التى يصل إليها وعلاقتها مع غيرها وعلى علم بأحكامها وسائر شئونها السياسية ، ومعرفة الجيوغرفيا التجارية ليكون ملماً بحاصلاتها وصناعاتها ، وعارفاً بما يزيد عن حاجاتها منها وما تحتاجه هى من حاصلات غيرها . ويدخل فى جملة ذلك ما تستخرجه أرضها من المعادن والخيرات لعله يجد من ذلك ما يفيد به بلاده ، ومعرفة التاريخ ـ قديمه وحديثه ـ ليتمكن بذلك من المقارنة بين ماضى تلك البلاد وحاضرها ليقف على الأسباب التى انتشلتها من وهدة الانحطاط إلى ذروة التقدم والرقى ، أو العكس ليمكنه بعد هذا

أن يحث قومه على الأخذ بتلك الأسباب التى قدمت المتقدمة ، وترك الأسباب التى أخرت المتأخرة . بحيث أن يكون محيطاً بكل شئ مما يهم الوقوف عليه كالنظر فى أديان القوم ، وعوائدهم وأخلاقهم وصنائعهم وعلومهم إلى غير ذلك وبشرط أن يتجرد من عوامل العصبية للدين أو الجنس أو الوطن إذ لو كان لإحدى هذه العصبيات سلطان عليه لأبعده عن الصواب ، وأوكله إلى الخطأ فى النظر والقياس . وعليه فإذا لم يكن مريد السير والنظر كذلك فربما يكون صاوفاً فكرة إلى ما هو من قبيل التسلية والمفاكهة خلافاً لما يقصده السائرون الناظرون من ضروب العظة ، والعبرة لأنفسهم ، ولغيرهم من بنى وطنهم .

ومن الأسف أن الكثيرين ممن يسيرون ، وينظرون قد يملأون رحلاتهم التى يكتبونها بعد عودتهم إلى أوطانهم بمشاهداتهم مجردة . إلا من وصف الرياض والفياض والمبانى ، وغير ذلك مما يقصدون به حكاية الحال فقط . فيبتعدون بذلك عن الحكمة الجليلة التى تكون من وراء السير والنظر اللهم إلا النفر القليل ممن رحلوا كالمرحومين الجليلين (عبد الله باشا فكرى) وولده (أمين باشا فكرى) وكحضرة الكاتب المجيد (أحمد زكى بك) ، وآخرين من أمثالهم . ولنا نحن معاشر المسلمين من فريضة الحج عامل قوى يلجئنا إلى السير والنظر فمنا الألوف المؤلفة فى كل عام تسير من كل صوب وحدب ، ولكنهم مع الأسف لا ينظرون .

وقد أضاعوا الحكمة المقصودة من الحج الشريف . وكل امرئ عرف الدين الاسلامى ، وأحاط بتعليمه إحاطة التعقل عرف أنه مع ورود الآيات الكثيرة بأوامر السير والنظر قد تضمنت جزيئات تعاليمه الشريفة ، وكلياتها الكثير من الأغراض التى ترمى إليها تلك الأوامر الكريمة إما تلميحاً أو إما تصريحاً ، وفريضة الحج داعية إلى التعارف بين أجزاء الأمم الإسلامية دانيها ونائيها مهما أختلفت الألسن ، وتباينت الأوطان . والمسلم لا وطن له لقوله عليه الصلاة والسلام (ليس منا من يدعو إلى عصبية) فكل بلاد إسلامية هى للمسلم وطن له بين أهلها سكن وإن كان لا يخلو من تفضيل بلاده على سواها طبعاً ، ولقول سيدنا على عليه السلام : (ليس بينك وبين بلد نسب وخير البلاد ما حملك) . والصلوات الخمس ليس الغرض منها إلا أن تحيط دائرة الاتحاد بأهالى البلد الواحد اذ بتوالى الاجتماع للصلاة اليومية لا يتأتى معه أن يظل أحد المصلين مجهولاً من أخواته أو أن لا تتوطد بسببه دعائم الأخاء والاتحاد بينه وبينهم . وكما كانت هذه الصلاة اليومية داعية الاتحاد بين أهالى البلد الواحد فصلاة الجمعة باعثة عليه بين أهالى جملة بلاد متجاورة كصلاة العيدين الخ ، ولكننا مع الأسف الشديد قد أغفلنا أمر التفكر والعمل لما يراد من حكمة العبادات ، وخصوصاً فريضة الحج حتى أن الكثيرين منا لم يعرفوا القصد من الطواف والهرولة عند تأدية هذه الفريضة المباركة ، فصرنا والحال هكذا أحوج الأمم إلى من يسير وينظر ، ويكون واسطة تعارف بين الأمم الإسلامية لأننا اقتصرنا على ما يراد بتلك العبادات من المثوبة الأخروية كأننا جهلنا أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأن التلازم لازم بين مصالح الدارين كما تقتضيه السعادة الحقيقية . ونحن لو فرضنا أننا قائمون بتأدية فريضة الحج كما أراد الشارع دنيا و أخرى ، وأننا هناك نتساءل ونبحث عن أحوالنا ليعلم البعض حال البعض الآخر لما نكون فى غنى عن قيام بعض الأفراد بفريضة السير والنظر ليسير وينظر ويكتب . فما بالنا وقد أهملنا تلك الحكمة الجليلة لا نكون أسرع الأمم

إلى تأدية هذه الفريضة حتى إذا عرفنا من أحوال أخواتنا ما نطمئن له من التقدم فى ميادين الحياة ، والفوز فى معترك تنازع البقاء فرحنا وسعينا لأن نكون مثلهم ، أو كان الأمر بالعكس فإننا نحذر من أن نصير إلى ما صاروا إليه ، ونفكر فى وجه الحيلة للحيطة منه . ونمد بعد ذلك إلى من عرفنا سوء أحوالهم يد المعونة إذا كنا قادرين عليها إذ « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » كما تقتضيه الأخوة الدينية الحقيقية . وسيعلم بعد حين كل قارئ من إخوانى المصريين الفروق الهائلة بيننا وبين الأمم الراقية والمنحطة .

(ملحوظة لابد منها)

أنا لا أزكى نفسى ولا أضعها فوق منزلتها بإمتداح قلمى أو الثناء على فكرى معاذ الله تعالى ، ولكنى أقول بأن رحلتى لها ميزة خاصة على الرحلات التى كتبها غيرى من فضلاء القوم ، وذلك أنهم من أصحاب الثراء والوجاهة فيباعد بينى وبينهم كونهم أغنياء دونى ، وإن جمعتنى بهم دائرة العلم . فهم لوجاهتهم وسمو منزلتهم وثرائهم لا يخالطون إلا الطبقة السامية من الأمة التى حلوا بينها ، ولا ينزلون إلا فى الأمكنة المناسبة لحالهم هذه . وبناءً عليه فمتى كتبوا عن أحوال الأمة وأخلاقها فلا يتمكنون من أن يحيطوا بأخلاق القوم الذين لا يخالطونهم من الطبقة الوسطى والسفلى . وأما أنا ولله الحمد حالتى المدنية التى باعدت بينى وبين المال تمكنت بها من مخالطة أهل هاتين الطبقتين ، وحالتى العملية جمعتنى بذوى العلم ، والثراء ، والوجاهة من أهل تلك الطبقة العالية . فأنا والحالة هذه أكتب عن خبرة عامة بكل الطبقات خصوصاً ، وأننى أقمتُ فى البلاد التى اكتب عنها الشهور العديدة إقامة سعى وراء المعيشة تجعلنى أكتب عن تحقق واختبار ، وتوضح للسائحين من الأغنياء ما يتكبده أخوانهم الفقراء من العناء ، وما تفعله معهم الشركات والحكومات . وهم إنما مروا بالبلاد التى كتبوا عنها كسحابة صيف وربما تلقفوا بعض ما كتبوه عن مرشديهم ممن استعدوا لإرشاد السائحين . وقد نبهت فى معظم النقط فى رحلتى هذه على أهم أحوالنا الحاضرة من مسائلنا السياسية والعمرانية . ولى أمل أن تلفت رحلتى أنظار سراتنا وساستنا ، وأرباب الحركة الفكرية بيننا ، وخصوصاً أصحاب الجرائد اليومية إلى ما أكتبه والتفضل ببسط ما يجدونه لائقاً بحالة الأمة العزيزة ، ووضعه تحت بساط الجدل والمناقشة . وأنى لاشكرهم سلفاً والله ولينا وهادينا إلى الرشاد والفلاح .

أسباب الرحلة :

لا يعرف الناس من لا يرتضى سفرا ... وبالتغرب كم وجه الملا سفرا

قد اغتربت فأحمدت التغرب إذ ... به قرأت لأخلاق الورى سورا
فكل درس غريب الدار يقرأه ... لم يدره قاعد مهما درى وقرأ

وما الإقامة فى الأوطان مكسبة ... علم أمرئ لذرى أوطانه هجرا
وتولهم غربة الانسان كربته ... ليست مقولة من للغربة اختبرا
كم كنت أسمع عما لا أرى خبرا ... فشمت بالخبر ما قد جاوز الخبرا

لقد يعذر الذين لا يفقهون المعنى الحقيقى للقضاء والقدر ، ولا ينسبون لأنفسهم غرضاً ولا لإختيارهم عملاً فقد يحار المرء فى تقلباته ، وانعكاس القضايا الكونية على غير مراده دون أن يفقه لها سراً ، أو يتحقق لها كنها . بينما أنا فى منزلى بالقاهرة فى أوائل شهر أغسطس سنة 1906 . إذ زارنى أحد فضلاء طلبة العلم الشريف بالجامع الأزهر واسمه (صابر عليم أفندى) من التاتار ومعه رفيقان آخران وبعد أن تبادلنا التحية ناولنى كتاباً هو من صديق تاتارى اسمه (لطف الله الشكرى الاسحاقى) كان هو وأخوه (أحمد أفندى الاسحاقى) من طلبة العلم بالأزهر فى سنة 1901 وكان كلاهما على جانب عظيم من التربية العالية والتهذيب السامى . وهما ممن أقاموا فى الشرق السنين العديدة ، وخصوصاً فى مصر والحجاز والشام . وللدلالة على ما كان بينى وبينهما من الحب المتبادل والصداقة المتينة أنبت بعض أبيات من قصيدة رددت بها على خطاب وردلى منهما وأنا فى دار السعادة سنة 1902 . وكنت تركتها بمصر

لقد شمت لطف الله فى اليوم اذحبا ... بعطفة لطف الله والخدن أحمد
هما فى المعالى بين أيدى العلا على ... محامد أخلاق بها الغير يقتدى
وأخوان صدق ما تذكرت شخصهم ... تفيض دموعى حيث أذكر معهدى
تناءيت عنهم مرغما وحشاشتى ... بها روض ود من محتبهم تدى
ومن قال تعبيراً عن الحب ان فى ... حشاشته ناراً على الحب يعتدى
وكيف محل الحب يضرم إنه ... لمهبط وحى الحب أكبر محتد
ومهما يطل عهد البعد فانه ... مدى الدهر مخضل بودى يشهد
تحركه أيدى اشتياقى فينثنى ... فيؤلم قلبى دائماً بالتأود
لتقطيع آنفاسى من البعد حسرة ... على القرب لا من شوقى المتأكد
ولست أرى لى لذة غير لذتى ... بترديد أشواقى وطول تسهدى
وأشرف وقت فى حياتى الذى انقضى ... ولى فيهمو فكر بغيب ومشهد
وقتنى على بعد الديار نميقة ... حوت من مجالى أنسهم كل مسعد

حوت كل لفظ تنطوى تحت ظله | معانى الوفا من سيد وابن سيد
من الاخ لطف الله والخدن أحمد | و .... وشتى غيرهم لم اعدد
أتيت إلى استانبول أحسب أننى | بها مستعيض عن بها مصر مقصدى
فلم أر فيها ما يروق سوى مناظر | وهبتها من مواهب موجد
منازه فيها قد تسلمت منازل | على ربوات حيث السحب باليد
وغادة حسن ليس ذو الحسن دونها | لشعب نشيط ليس يعمل للغد
وفيما عدا هذا فليست ببلدة | تفوق على مصر بأمر مسدد

تناولت الكتاب المشار إليه فإذا هو يطلب قيامى إلى سانت بطرسبورج لأحرر جريدة عربية اسمها التلميذ بمرتب شهرى قدره مائة روبل . ولما كان المتداول على السنة الجرائد من أفرنكية وعربية وجود ثورة هى على أشد حالاتها فى تلك البلاد رفضت ، واعتذرت عن الرفض متعللاً بما تذيفه تلك الجرائد وظلت من أوائل شهر أغسطس إلى أوائل أكتوبر وأنا على هذا الأباء ، وحضرة (صابر أفندى) المشار إليه على إلحاح فى الرجاء حتى استخرت الله تعالى فى الإجابة مذعنا لإشارة الكثيرين من أخوانى وأصدقائى ، وخصوصاً حضرة العالم الفاضل (محمود سالم بك) بالرغم عن التوبيخ والتأنيب اللذين كنت اسمعهما من البعض الآخر بين متوجس شراً من زمهرير تلك الديار على صحتى ، وخائف من اسنفحال أمر الثورة إلى الحد الذى لا تبقى فيه ، ولا تذرفاً كون مع الذاهبين . فقمت إلى بوررت سعيد ثم إلى الاسكندرية فوصلتها فى اليوم الرابع عشر من شهر أكتوبر سنة 1906 . ومن محاسن الصدف أن لقيت بها حضرة العالم (محمود سالم بك) بمكتبة المؤيد عند حضرة صديقى الفاضل (محمود الباجورى أفندى) فزودنى ببعض أمور نافعة شكرته ، ولا زلت أشكره عليها . وبعد أن أحضرت معدات السفر واستخرجت الجواز بارحت ثغر الاسكندرية فى اليوم السادس عشر من الشهر المذكور على وابور القومبانية الروسية المسمى (تشيخاتشوف) فاقتلع مرساه وسار على اسم الله فى الساعة الثالثة والدقيقة الأربعين مساءً وعندئذ تذكرت ما كنت قلته من قصيدة امتدحت بها حضرة السيد (أبى الهدى أفندى الصيادى الرفاعى) فى سنة 1321 وهى

لله انسان تلاعب بالبخار | فلم يهب هول البحار ان اعتدى
كم كان من أسراره فى عالم العمران ما أدى إليه وأرشدا
سفن نراها كالجبال تمر من | بلد لأخرى كالسحاب متى عدا
هل حاسب من كان فيها انه | بسفينة وهى المدينة مشهدا
ما خالها رجل الصلاح سفينة | لو أن فيها للمصلى مسجدا
فبتلك ما فى هذه متوفر | مما تعلق بالحياة أو الردى

تجرى فتحسبها كطالب مأمن ... من حتفه للفوز من كيد العدى
أو عاشق سلب القرار فلا يرى ... إلا الفرار إلى حبيب أبعدا
أو سائح دار بقيمة وقته ... فتراه يسرع كى ينال المقصدا
أو هاجر أوطانه ليرى الشريف ابن الهدى وأخا الهدى وأبا الهدى

وكان الجو صافياً ، والبحر هادئاً ، وظل ركاب السفينة يحدقون بابصارهم نحو ثغر الاسكندرية المحروس حتى غابت معالمه عن العيون . وعندئذ لم يبق من مسرح لها سوى الماء والسماء ، وكلنا سيار فوق سيار فوق سيار ، وكانت هذه السفينة من أكبر سفن القومبانية الروسية ، وأنظفها وتقطع فى الساعة الواحدة تسعة عشر ميلاً بحرياً . فوصلنا فى الساعة العاشرة من صباح اليوم الثامن عشر إلى بيريه . وقد نزلنا إلى المدينة بعد أن وقفنا على مقدار الزمن الذى تستغرقه السفينة فى هذه الفرضة وكنا قبل نزولنا منها جمعنا مبلغاً من نحو أربعة أشخاص مساعدة لفاضل بائس هو من مسلمى بلغاريا المتخرجين من المدرسة الزراعية العثمانية ، واسمه (محمد عاكف أفندى) وكان فى خدمة زراعة سعادة الشهم الهمام (عثمان غالب باشا) أحد أعيان القاهرة المعروفين بسابق خدماتهم الوطنية ووجاهتهم وثروتهم ، وانفصل عنها فانزلناه معنا ، وتركناه يستخرج ورقة جواز ليدخل بها البلاد الروسية فى صحبتى حينما أعلمنا بالخطر المحدق به فيما لو وقع فى أيدى رجال الدولة كما يزعم .

ثم تجولنا بالمدينة على إحدى العربات فإذا هى بلدة صغيرة لا تكاد تبلغ ربع الثغر الاسكندرى ولكنها أشبه به فى شوارعها ونظاماتها ، ولكن ليس فى تجارتها وحركة الاشغال فيها . وهى مستطيلة الشكل وبعض مساكنها من الجهة الغربية على جزئ منحدر من الجبل ، وبها بعض منتزهات صغيرة . وبعد ذلك قصدنا محطة السكة الحديدية قاصدين التوجه إلى أثينا عاصمة مملكة اليونان وقد كانت ربواتها بادية للعين المجردة فسار القطار يطوى الفيافى ، وعلى جانبى الطريق سهول نضرة وبساتين بهجة تسر الناظرين ، وطريق السكة الحديدية هذه تمتد بين حاجزين من البناء فى طوله ، وعليها بعض الجسور والقناطر لمرور الناس ويمر من نفق طوله يستغرق مسافة دقيقتين فوصلنا تلك العاصمة فى أقل من ساعة فإذا هى بلدة صغيرة فى شبه بحيرة بلا ماء ، ولكن الجبال المحيطة بها متنائية عنها ، ومحطتها كمحطة "بيريه" فى صغرها ونظافتها.

وهذه العاصمة منتظمة الشوارع ، ونظيفة جداً ، وبها تراموای موصل إلى محل الآثار . ولكننا وصلنا إليه على إحدى العربات لنسرع فى العود فاجتزنا فى طريقنا على سراى المجلس النيابى ، وسراى الملك والمدرسة الحربية ومحل التمثيل . وهذه المبانى ليست بأضخم من بنايات شارع شريف باشا بالاسكندرية . ولكنها ظريفة فى شكلها تكتنفها البساتين من كل جانب ، وهناك شاهدنا المحل الذى كان يحكم فيه قضاة أثينا فى العصور السالفة ، وهو على ربوة عالية جداً ، ولم يبق منه إلا أعمدة قائمة ، وبعض الدرج والأبواب ، وهو فى شكله أشبه ببعض البرابى الكائنة بصعيد مصر إلا أنه مجرد من النقوش إلا قليلاً ، وحواليه بعض النسوة يبعن الصور الشمسية المنقولة عن الآثار ، وهناك

أيضاً سجن (سقراط) الفيلسوف اليونانى الشهير الذى وقفت أمامه فتذكرت به ما يصيب الفلاسفة ، وعظماء العلماء فى كل جيل وقلت

سجنوك أعداء الفضيلة حينما جهلوا بأن الحى ليس طليقاً
هم قيدوك لأن فكرك مطلق لم يلق فى تلك العقول طريقاً

وهناك غير ما ذكر من الآثار ، ولكن الوقت ما كان يكفى لزيارتها كلها .

ومن العجيب أن هذه آثار فلاسفة اليونان الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، ولكنها لم تعمل فى النفس تلك الرهبة التى تعملها آثار قدماء المصريين ولا غرو أن تكون آثار الأساتذة أرفع قدراً لدى النفوس من آثار التلامذة .

والبرهة الصغيرة التى قضيتها فى ذينك المدينتين عند ذهابى إلى البلاد الروسية ، والأربعة أيام التى أقمتها بهما عند عودتى منها قد كانت كافية فى أن أتبين حال البلاد اليونانية ، وأعرف أنها تمتاز على قطرنا العزيز فى نظام بوليسها وحكومتها ، ووجود مجلس نيابى بها وعنايتها بترقية المعارف والضرب على أيدى أصحاب اللهو والفجور . ومملكة اليونان هذه وإن كانت صغيرة وعدد نفوسها لا يبلغ المليونين ونصف فقد ساعدها الحظ باستقلالها وصيرورتها حرة فى تكوين حكومة منتظمة ، وذلك بسعى شعبها النشيط ومساعدة الدول من الوجهة السياسية بقصد قص أجنحة الدولة العثمانية حرسها الله تعالى .

وليتذكر إخوانى ، وأبناء وطنى الأعزاء . أنه لم تجن علينا معشر المصريين أمة من الأمم جناية الأمة اليونانية هذه بما ترسله إلينا من نتائج زراعة القنب (الحشيش) . وما تهدينا به من أبنائها الذين هم علة العلل فى إفساد وطننا العزيز ، وإن كان بينهم أفراد مهذبون . إذ هم وحدهم الذين أكثروا نوادى اللهو والطرب والرقص ومحال الميسر ، وفتح محلات الفسق، واتخاذ الساقطين منا فى مهواة الفساد تحت كنفهم متسلحين بالامتيازات المعطاة لهم ، وابتزاز أموال الكثيرين منا أيضاً بتلك الأمور الدنيئة ، والربا الذى يتجاوز الحد القانونى بدرجات هائلة ، مما هو معلوم لدى كل متجول ببلاد الأرياف المصرية . ولقد اكتشفت سر دخول هذا السم القتال (الحشيش) إلى بلادنا مع شدة احتياط وعناية رجال مصلحة خفر السواحل الأمناء ؛ وذلك أنى تقابلت مع أشخاص من عربان مديرية البحيرة فألفت وجودهم بتلك البلاد نظرى إلى البحث عن أحوالهم ، والسبب الداعى لإقامتهم بها .

فظهر لى أنهم شركاء للتجار اليونانيين ، وعوناً لهم فى إدخال الحشيش إلى ديارنا العزيزة بطريقتين اثنتين : إحداهما وضع الحشيش فى أكياس من الجلد متصلة بخيوط طويلة تنتهى بعوامات من الفلين ، وعند وصولهم إلى النقطة المحازية لجهة المكس يلقون بتلك الأكياس فى البحر ثم يعودون إلى البر ، ويركبون الفلايك لاستحضارها ، وثانيهما قيام هؤلاء الأعراب بالمراكب التى تجتاز القنال إلى البحر الأحمر فينزلون بإحدى الموانى العثمانية ، ثم ينقلونه على الجمال المهربة . وعلى هذا فهؤلاء العربان بلوى ثانية فى عدم قطع فساد هذه التجارة الرابحة لهم القاتلة لسواهم ، ولا أرى دواء شافياً لسلامة وطننا العزيز وخلاص أبنائه من وبال هذه التجارة إلا إرسال موظف أمين يبقى بالبلاد اليونانية على

حساب مصلحة خفر السواحل لمصادرة هذه التجارة والوقوف على الخارج منها ، والإهتداء إلى ناقليه ما دامت الحكومة اليونانية لم يرضها منع زراعة الحشيش فى بلادها . وبغير تنفيذ هذه الفكرة لا يتسنى لحكومتنا السنية منع دخول هذا الصنف ، ومصادرته مع محاولة المتجرين به أمثال تحيلاتهم التى ذكرنا بعضها ، وخضوع بعض عساكرها لأموال هؤلاء الخائنين .

(عود) وكان معنا شاب فرنساوى مستشرق يسمى نفسه (جورج) وكان من ركاب الدرجة الثالثة ، ويزعم أنه تاجر ولكن ظهر كذبه فى الاسم والصناعة عند نزوله بميناء " أودسا " كما سنذكره بعد . ثم عدنا إلى بيريه ثم إلى السفينة التى بارحتها فى الساعة الأولى بعد الزوال من اليوم نفسه قاصدة جزيرة (اورله) من ممالك الدولة العثمانية للبقاء بها تحت الحجر الصحى (الكورنتينة) فوصلناها فى ـ الساعة الخامسة ـ من صباح يوم 19. وهناك انتقل ركاب الدرجة الثالثة الذين كنت واحداً منهم (ولا فخر) على إحدى الفلك إلى البر ، فادخلونا فى مكان فسيح به مقاعد خشبية مستطيلة وظللنا منتظرين ردحاً من الزمان ريثما تتم معدات الاستحمام ، وتبخير الملابس التى كنا قد خلعناها فى قاعة من قاعات ذلك المكان . ثم دخلنا بعد ذلك من الباب المقابل له إلى مستحم مستطيل به حجرات صغيرة متقابلة ، على أبوابها ستائر من القماش ، وبكل حجرة رشاشة ماء وقطعة من الصابون ومنشفة ، وبعد أن أتممنا ذلك تحت مراقبة أحد عساكر الصحة البحرية عدنا إلى المكان الذى كنا تركنا ملابسنا به ، فوجدناها أعيدت من المبخرة كأنها النار الموقدة، وكأنها عجين فلبسناها مضطرين ثم تجولنا بالجزيرة ، وأخذ كل واحد منّا ما لزمه من المأكولات التى يشتهيها من بائع يونانى وهو الوحيد بتلك الجزيرة ، وقد شاهدنا بأراضيها كثيراً من معدن الكبريت الذى يسمى بمصرنا (كبريت العمود) .

فى نقط متعددة ، وبكمية كبيرة وكثيراً من الفحم الحجرى ، ولم أدر ما السبب فى عدم استخراج هذين المعدنين منها ، وبها جملة من الهضاب العالية المملوءة بالنبات. وهى جيدة الهواء ، وسكانها بعيدون عن محل الحجر الصحى . ولا ينسى القارئ أن ذلك الشاب الفرنساوى كان معنا ليأخذه العجب من حالته التى ظهرت فيما بعد . ثم عدنا إلى المركب ، وقد بارحت الجزيرة فى ـ الساعة الخامسة ـ من صباح يوم 21 إلى " جناق قلعة " فوصلناها حيث كانت الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والثلاثين . ولم نلبث بها إلا بمقدار أن نزل بعض الركاب ، وركب غيرهم وزارها عمال الدولة العثمانية المنوطين بمراقبة السفن المارة . وجناق قلعة هذه ذات منظر جميل ، وبها معسكر عثمانى ، وبها يصنع الفخار الجميل على أشكال متنوعة وأحجام مختلفة . ثم بارحتها السفينة حيث كانت الساعة الرابعة والدقيقة الثلاثين من اليوم نفسه بعد أن اقتربت منها قوارب باعة المأكولات . وكنا نرى مع الواحد منهم عوداً طويلاً من الخشب بأعلاه قطعة من الصفيح على شكل إناء يضع به المشترى النقود فيأخذها البائع ، ويضع فى مكانها ما أراد المشترى بعد حصول المساومة .

ثم وصلنا إلى الأستانة حيث كانت الساعة ـ الرابعة والدقيقة الثلاثين ـ من مساء اليوم نفسه ، ولقد أكثر سواى الكتاب الفضلاء من وصف مناظر الأستانة ومشاهدها فلا أعيد

الكلام عليها هنا بمقال طالما طرق الأسماع وملأ البقاع . وإنما لى إنتقاد كبير سيأتى الكلام عليه بمناسبة ما بدا من بعض عمالها أثناء عودتى الأولى ثم بارحت السفينة مياه الأستانة فى اليوم الثانى والعشرين حيث كانت الساعة ـ العاشرة صباحاً ـ قاصدة ثغر " أودسا " إحدى ثغور الدولة الروسية على البحر الأسود ، وثالثة مدنها بعد سانت بطرسبورج وموسكو .

وفى أثناء المرور بمياه "البوسفور" أخذ القبطان الثانى للسفينة يجمع تذاكر (البسابورتات) ويحفظها بطرفه وكنا نجهل ذلك من قبل ، وعند وصولنا إلى ميناء " أودسا " فى اليوم الثالث والعشرين حيث كانت ـ الساعة الرابعة والدقيقة الثلاثين ـ ظل ركاب السفينة واقفين بأمتعتهم استعداداً للنزول إلى البر ، وطال الوقت إلى أن حضر أحد رجال البوليس وكلم القيودان فرمى إليه رزمة من الورق هى تلك التذاكر التى أخذها من الركاب ، وبقينا هكذا منتظرين إلى أن وافى ضابطان وبضع عساكر ثم وضعوا الدرج ووقف على طرفيه العلوى والسفلى حارسان وأخذ بعد ذلك ضابط يقرأ أسماء الركاب واحداً واحداً حتى أتى على آخرهم إلا أنا ، وكان كل من قرئ اسمه يستلم تذكرته وينزل بعد أن يطلع عليها الحارسان أيضاً . ثم طال الكلام بين الضابطين بعد أن نودى باسمى وتمثلت أمامها ثم جئ بشخص يعرف القليل من اللغة العربية فترجم لى أنهما يريدان التفتيش على أمتعتى ، ففتحت ما كان مغلقاً وحللت ما كان معقوداً على عكس أمرى إذ ذاك ثم أمرنى المترجم عن لسانه برد كل شئ إلى حالته من تلك الأمتعة ، ثم سلمنى إلى أحد رجال البوليس وفهمنى أن أذهب معه إلى حيث يريد فأمتثلت الأمر ، وتبعت العسكرى ومعه حمال يحمل الأمتعة بعد أن سألت المترجم عن السبب ، ولم يجبنى بشئ فذهب بى إلى مركب آخر اسمه (سات سارى فيج) أى " ولى العهد " فوجدت ذلك المترجم هناك وأفهمنى أن السبب فى ارجاعى ومنع نزولى بالبلد عدم التأشير على تذكرة المرور المحررة باسمى من جانب قنصل دولة روسيا باسكندرية ثم تركنى العسكرى والمترجم قبل سفر السفينة بدقيقة واحدة .

وكانت ـ الساعة السادسة ـ من مساء اليوم نفسه ، وهنا أنبه القارئ الكريم إلى مسئلة (محمد عاكف أفندى) المار ذكره فإنه لم ينادِ باسمه ولكنه أجاب عند نداء الضابط باسم " ينى بابا دوبولو " فلا يبعد أن يكون من استحضر له تذكرة المرور ، ولم يستخرجها له وباسمه . بل اشتراها من آخر وأشر له عليها من قنصل الدولة الروسية بثغر " بيريه " فليعجب القارئ الكريم من ذلك ، ولينظر كيف أن الشخص الذى هرب من الأستانة بلا تذكرة إلى مصر قد دخل البلاد الروسية بتذكرة غير تذكرته ، وباسم غير اسمه مع كلما تتخذه حكومة تلك الدولة من الحذر والاحتياط ، وكيف انعكس الأمل أمام كلينا إذ كان يظن أن حيلته ستنكشف وأنه سيرد ، وكان يقينى أن لا حرج علىّ ما دامت بيدى تذكرة المرور . وهذا وأمثاله مما يحار له الفكر تحقيقاً لما يقوله رجال التصوف من وجود السبب عند تحقق عدمه وعدمه عند تحقق وجوده ، وإن كان المشاهد فى الصورة خلافه .

أما الشاب الفرنساوى ولا إخال القارئ نسى الإشارة إليه آنفاً فلم يتل اسمه فيما تلى من الأسماء عند النداء ، ولكنه أجاب عند ذكر اسمه الذى كنا ندعوه به منذ تعارفنا

وقد وضح أن اسـمه (بيير) . وأنه مكلف من حكومة الجمهورية الفرنساوية بمأمورية سياسية وقد تبين لى ذلك من احتفاء الضابطين به عندما أطلعهما على أوراق أخرى استخرجها من محفظته ، ثم ذهب بمعيته أحدهما فى الحال وعاد . فليتأمل المتأمل كيف كان موقفى فى تلك اللحظات خصوصاً وأنى قد وجدت بين ركاب سفينة كلهم لا يعرفون العربية ، وكانوا خليطاً من ذوى الأديان الثلاثة منهم نحو الثلاثمائة من مهاجرى اليهود الروسيين الذاهبين إلى القدس و نحو الثلاثـمائة حاجاً من مسلمى بخارا ، ومستخدمو السفينة من مسيحى الروس .

وما جاء وقت العشاء حتى رأيت مؤذن البخاريين يؤذن للصلاة . فأقاموها غير متجهين إلى قبلة واحدة لعدم إمكان ذلك حينئذ ، واجتمع اليهود للتفرج عليهم يتغامزون ويتهامسون، وهكذا كانوا يفعلون كل صلاة فى أوقاتها حتى وصلوا إلى يافا وكذلك اليهود كنت أراهم وقد وقف الفرد منهم واضعاً وجهه لحائط السفينة يتلو ويهمهم وللكل صوت كدوى النحل ، والمسلمون يضحكون منهم ويسخرون ، وكان المسيحيون مشغولين باشغال وظائفهم فلم يبد لاحد شئ من عبادتهم لولا أن أحد القسس البلغاريين كان من الركاب وبه بعض خلل فكان كلما هبت الريح ولو قليلاً أو أقل من القليل صعد على محل عال من السفينة ، وأخذ يصلى ويشير إلى السماء بيديه ، رافعاً وجهه إليها قائلاً : بعض كلمات كأنه يكلم بها المولى سبحانه وتعالى ومع ذلك فقد كان ركاب السفينة يسخرون به ويعبثون حتى المسيحيون أنفسهم .

ولقد مضت ليلتى الأولى وأنا لم أذق طعاماً لكونى جاهلاً لغة القوم . وبينما أنا فى اليوم الثانى إذ مر بى شخص حبشى متزى بزى الروسى ، وما كلمنى بالعربية حتى سررت به غاية ما يمكن من السرور ، وأخذ يسألنى وأسأله تلك الأسئلة التى تدور بين غريبين يتعارفان ، ثم كلفته بأن يرينى كيف أشترى طعاماً من طاهى السفينة فدلنى على ما أريد ، وأثناء ذلك أرشدنى إلى أحد السوريين بين الركاب ، ومنذ عرفنى به إلى أن نزل فى يافا كان لا ينفك عن التودد إلىَ ، وبذل الجهد فى سد إحتياجاتى دون أن أطالبه بشئ منها ، وكان يمنعنى قهراً من دفع شئ من دراهمى حتى أدهشنى بمكارمه على غير سابق تعارف . ومثل هذا الشخص المهذب الظريف يجب على أن أربط عقدة التعارف بينه وبين القارئ الكريم فأقول إنه حضرة الخواجه (شكرى جورجى ديب) من التجار المشتغلين بنقل تجارة وطنه (القدس الشريف) من فواكه ومسبحات وصلبان من الصدف، ومصنوعات خشبية من صناعاته إلى البلاد الروسية ، وجلب ما ينفق بوطنه منها .

وكانت هذه السفينة ذاهبة إلى بورت سعيد عن طريق يافا فمرت بالأستانة ثم جناف قلعة فازمير فساقس فمارسين فبيروت فيافا فبورسعيد . وكانت تقف فى كل أسكلة من هذه الأساكل للتفريغ والشحن ، فلم نصل إلى بورت سعيد إلا فى اليوم الثانى من شهر نوفمبر سنة 1906 حيث كانت الساعة ثمانية ونصفاً من صباح ذلك اليوم فتكون السفينة قد استغرقت فى سيرها من " أودسا " إلى "بورت سعيد " أثنى عشر يوماً .

ومن المسائل التى تستحق الذكر فى مدة هذه الأثنى عشر يوماً أن تقابلت بأحد القضاة بولاية بغداد آيبا من الأستانة إلى وطنه ، ومعه آخران أحدهما أحد طلبة صنف المأذونية

بمدرسة الحقوق العثمانية ، والآخر تلميذ بالمدارس الإبتدائية وكانت تجرى بينهم محادثات سياسية وإدارية فما دار على ألسنتهم أن (طالب باشا) الذى هو الآن من أعضاء شورى الدولة كان متصرف نجد ، وكان (منصور باشا) أحد أغنياء نجد المشتغلين بتجارة اللؤلؤ مأموراً بالدائرة السنية السلطانية إذ ذاك ، ومن سكان قضاء القطيف . وحدث أن طلب (طالب باشا) من (منصور باشا) جانباً من المال على سبيل الهدية ، وإن شئت قل على سبيل الرشوة، فلم يذعن هذا لمطالب ذاك فلم يكن من (طالب باشا) إلا أنه طالبه بالأسلحة المهربة الموجودة بمنزله ولما لم يكن لديه منها شئ فقد أجابه سلباً ، وبعد ذلك لم يشعر (منصور باشا) إلا وقد هاجمته فى منزله قوة عسكرية قبضت عليه ، واستخرجت من إحدى جهات المنزل الخارجية صناديق أسلحة مدفونة ، ومع وضوح الحق بعد سنوات قضاها (منصور باشا) فى السجن . وأن هذا العمل مكيدة مدبرة من (طالب باشا) فلم يكن جزاءه إلا نقله إلى وظيفة عضو فى شورى الدولة . وهكذا صادروا يوردون من أمثال هذه النادرة إستدلالاً على الفوضى فى الأحكام مالا يحسن عن دولتنا العثمانية .

ثم انتقلوا إلى حديث آخر أوجب أن ذلك القاضى يشرح عن نفسه ما أفهمنا أنه كان قاضياً فى جهات نجد وعزل عنها بعد سنتين ، فذهب إلى دار السعادة ليشترى وظيفة أخرى ، وهى التى يذهب إليها إذ ذاك. وقد أخذ على العهد أن لا اسميه فى محادثاتى أو كتاباتى وقد فعلت . ومن المسائل التى تستحق الذكر أيضاً أنه لما رست السفينة بمياه يافا ، وكان ذلك فى اليوم الأول من شهر نوفمبر سنة 1906 كان الركاب الآتين منها إلينا يلغطون بذكر حادثة لم أسمع بمثلها فى حياتى ، وربما لم يقع شبيهها فى الأمة الإسلامية ، وذلك أنه بينما كان الناس يصلون العشاء والتراويح فى يوم 13 رمضان سنة 1324 الموافق 31 أكتوبر سنة 1906 بالمسجد الجامع عارض - أحد رجال المذهب الحنفى - باقى المصلين من ذوى المذاهب الأخرى . ريثما يتم جماعته صلاتهم فلم يقبل منه ذلك أحد الأئمة الآخر، ولم يمهله هذا المعارض حتى أزهق روحه برصاصة من مسدسه فى وسط المسجد . فلينظر القارئ وليتأمل كيف أدى إختلاف المذاهب بين أولئك الجهلة الذين لم يفقهوا للدين معنى حقيقياً إلى التفاخر والبغضاء حتى بين جدران بيت الله تعالى فى بلاد إسلامية ذات حكومة إسلامية .

بارحت ثغر بورت سعيد فى اليوم الثالث من الشهر ، وبعد أن مررت بالزقازيق وتزودت منها برؤية بعض أصدقائى ، ومكارم كل من حضرات الأفاضل (دياب أفندى سعد) المحامى الشهير ، والشيخ (عفيفى أحمد) المحامى الشهير أيضاً ، و(أمين عبد الكريم أفندى) التاجر، وحضرة صديقى المهذب الشيخ (محمد المنهى) عمدة البقاشين ، وحضرة الوجيه شيخ العرب (حمد بك أبو سلطان) قمت إلى الاسكندرية فوصلتها فى ظهيرة اليوم الخامس ، وبعد أن قصدت دار القونسلاتو الروسية فأشرت على تذكرة المرور بما لزم ، وقضيت لوازم السفر صادفت وجود الوابور الروسى (تشيخاتشوف) الذى سافرت به المرة الأولى فركبته ، وأقلع حيث كانت الساعة التاسعة مساء فوصل " بيريه " فى اليوم الثامن ، وقام منها فى اليوم نفسه إلى جزيرة القديس جورج لقضاء زمن الكورنتينه الذى لم يكن منه فائدة إلا تعذيب ركاب الدرجة الثالثة ، إن كان العذاب يسمى فائدة . وكما حصل فى جزيرة "أورله" حصل بهذه الجزيرة ، ولكن ليس بالاحتياط والنظافة التى هى بذلك المحجر التابع للدولة العثمانية .

وهذه الجزيرة ككل الجزر اليونانية فى الكلاء والغابات . وبها مقام "القديس جورج" كأضرحة بعض المشايخ فى مصر ، وبه صندوق للنذور ونسخة خطية من الكتاب المقدس.

وبينما نحن نتنزه فى أرباضها إذ عثر صاحب المطعم الذى هناك بأحد ركاب الدرجة الثالثة من اليونانيين يحاول أن يعبث بشرف سيدة من بنات جنسه ، وكان لحادثته مشاجرة عنيفة بينهما ، وبين ضابط يونانى من المتنزهين بالجزيرة ، ولولا أن توسط بعض جمهور الحاضرين لاشتغل الرصاص بين الجميع فى تلك الجزيرة الخالية من رجال الضبط، والتى كان من الواجب على حكومة اليونان أن لا تخليها من ذلك ما دامت أعدتها للحجر الصحى ببلادها ، وما دام فيها بعض السكان ، ثم بارحت السفينة تلك الجزيرة فى اليوم العاشر عائدة إلى بيريه ثم خرجت منها حيث كانت الساعة احدى عشر ونصفاً من صباح ذلك اليوم . فمرت بالأستانة وجازت البوسفور إلى البحر الأسود .

وقد جمع القيودان تذاكر المرور كالمرة الأولى ، ومن وقت مبارحة السفينة دار السعادة فى اليوم الحادى عشر إلى أن وصلت " أودسا " فى اليوم الثالث عشر لم نذق النوم والأكل إلا قليلاً ، إذ اشتدت الأنواء فكانت السفينة كريشة فى مهب الريح لا يستقر لها حال من الإرتفاع والإنخفاض بفعل الأمواج ، وقد اشتدت الأنواء حتى أفرغ كل إنسان ما فى جوفه بسبب الدوار الذى أصابه . وما كان من القيودان إلا أنه زاد سرعة السير ليتغلب على الأمواج ولولا فضل الله تعالى ، وما أوتيه ذلك الرجل من قوة الجأش وحدة الذهن ونبوغه فى واجبات وظيفته لابتلعنا البحر ولكن الله سلم فوصلنا سالمين وألقت السفينة مرساها ، وصعد إلينا رجال البوليس ونادوا الأسماء فنودى اسمى فى جملتهم ، وأنا بين مصدق ومكذب من جراء ما صادفنى بالمرة الأولى .

فاستدعيت أحد الحمالين الذين يمتازون فى البلاد الروسية جميعها بوضع قطعة من القماش الأبيض تستر نصفهم الأسفل . كما يضع خدمة المحال العمومية هنا وسار معى يحمل الأمتعة حتى نزلنا فى المينا ، وجاء عمال الكمرك ، فلم يجدوا معى ما يستحق الرسوم فاعطونا أوراق بعدد القطع للخروج من دائرة الكمرك واكتريت إحدى العربات " وهى عربات صغيرة لا تسع سوى اثنين يجرها حصان واحد " بأن أطلعت صغيرة الحوذى على الورقة التى كان كتبها لى حضرة (صابر عليم أفندى) المشار إليه آنفاً ، وهى باللسان الروسى . ومن الفكاهات التى تستحق الذكر أن الحوذى شاهد بين أمتعتى ماكينة السبيرتو ، التى كنت أصنع به الشاى أثناء السفر فأشار إلى أن أناوله إياها فأخذها وشرب ما فيها ، وأنا أمنعه وهو لا يمتنع كأنما حظى بماء الحياة ، وقد اتضح لى من إقامتى فى روسيا أن السيبرتو مشروب عموم الروسيين . إلا أنهم يستخرجونه من القمح على ما يقولون ويسمونه (فودكا) .

ومما تمتاز به حكومة الروس فى مصلحة الكمرك أن القيودان يؤشر على كل تذكرة مرور بعدد القطع التى يحملها كل سائح فيطلع عليها رجال المصلحة ، ومتى رأوا فى أمتعة أحد شيئاً زائداً على ما رقمه القيودان أو أقل منه فهناك يصير التدقيق وتلقى الشبهة عليه ، وربما كان ذلك خوفاً من التهريب أو غير ذلك مما لا أقف عليه . ظلت العربة سائرة إلى بضع دقائق فأشار إلى الحوذى بالنزول وخوفاً من أن يكون المحل الذى أوقفنى

عنده ليس بالمقصود نزلت وتقدمت إلى أحد رجال البوليس الروسى فأطلعته على تلك الورقة فما قرأها حتى دنا من الحوذى وألزمه بالمسير بعد كلام طويل دار بينهما فهمت منه أنه أرشده إلى حقيقة الذى أبغى الذهاب إليه ، ومما تكرر على سمعى فى محاورتهما جملة (مسلما نسكى صبرانيا) ، وفيما بعد عرفت أن تعربها " المقبرة الاسلامية " لأن المسجد بداخله رحبة فسيحة بها قبور اخواننا المسلمين كما سيلى .

أخذ الحوذى يعدو ذاهباً بى إلى ذلك المحل ، ثم وقف بى نحو الساعة أمام باب كبير فى آخر البلدة من الجهة الغربية ، ونزل فذهب ودق الجرس فخرج إليه شخص قصير القامة جداً ، وأتى إلى العربة فبدأنى بالسلام ، وكلمنى بالتركية يسألنى عما أريد . ولما علم أنى أطلب حضرة العالم الفاضل المشار إليه آنفاً أخذ ينقل الأمتعة هو والحوذى إلى الداخل ، وبعد الإنتهاء من ذلك أبى الحوذى لسكره الشديد إلا أن يتقاضى منى ثلاثة من الروبلات أى ثلاثين قرشاً صاغاً . على أنه ظهر فيما بعد أنه لا يستحق من الأجر إلا نحو الثلاثة قروش ، ولكنى دفعتها فوراً منعاً للأشكال بسببى بين الخادم والحوذى . دخلت المحل فى غيبة الإمام فى بعض المهام ومع إنى سقيم من دوار البحر لم يمهلنى شوقى إلى رؤية مسجد إسلامى فى بلدة مسيحية ، حتى تعود إلى صحتى . بل أخذت اتفرج على المحل ومشتملاته فإذا هى كما أصفها للقارئ فيما يلى . يدخل الداخل من الباب العمومى فيجد رحبة فسيحة بها أشجار باسقة ، وعلى يمينه المسجد ، وأمامه حاجز من الخشب ذو باب منتظم يجتاز منه إلى قطعة أرض تبلغ الفدان وكسور بها المقابر على أسلوب بديع فى أرض مشغولة بالحشائش والأزهار البديعة ، وعلى اليسار مكتب به نحو العشرين تلميذاً ، وست تلميذات ، ومعلم يعرف اللغة العربية جيداً .

واسمه (محمد بن فتح الله) من مهاجرى بروسه إلى الأستانة . وقد كان هاجر إليها مع جده لأمه ، ونشأ وتربى بين مصر وبروسه والأستانة وعمره سبع وعشرون عاماً ، وعلى يسار المكتب منزل فخيم به جملة مساكن أحدها للمعلم المذكور . والباقى للإمام وآخر للضيوف . أما المسجد فله وجهة من الخشب والزجاج على شكل بهيج منتظم يدخل الداخل منه إلى فسحة صغيرة معدة لترك الأحذية بها ، ثم باب آخر للمسجد الذى مساحته اثنتان وعشرون خطوة طولاً ، وخمس عشرة خطوة عرضاً ، وهو فى غاية الحسن والرواء .

شديد النور كأنه أسس من الاخلاص لا من أموال الناس وبانية رجل من أهل الخير اسمه (عبد الله بن أبى شحمان) . والمسلمون فى ثغر "أودسا" لا يزيد عددهم على ثلاثمائة غالبهم مشتغل بالتجارة إلا القليل من أصحاب المطاعم ومحلات النوم ، ولحضرة (صابر أفندى) المشار إليه مركز إحترام بين الجميع حتى الروسيين أنفسهم ، وهو كشيخ للمسلمين ورئيس وهو فى الحادية والخمسين من عمره ، ولكنه قوى البنية ممتلئ الجسم وجيه جميل الطلعة يعرف العربية الفصحى ويتفهمها جيداً ولكنه يعسر عليه التكلم بها كثيراً ووجوده بأدوسا نافع لعموم المسلمين الذين يمرون بالثغر المذكور فتراه ولا شغل له إلا قضاء حوائجهم وإقامة الصلاة لهم . ولما قابلته كان ضيفه من العلماء واسمه (ابراهيم بن غازى قاى) عمره نحو الثلاث وستين سنة قال لى : إن بلده "اتنه" إحدى قرى ولاية "طنبو" من ولايات روسيا ، وقد كان خطيباً فى "أودسا" بمركز حضرة (صفروف

أفندى) فى سنة 1872 . ثم رقى إلى درجة آخوند وهى درجة علمية بين مسلمى روسيا للخدمة فى مصالحهم الشخصية ، ثم فصل من الخدمة فى سنة 1898 . وقد تلقى علومه فى خان كرمان بولاية رازن من الولايات الروسية أيضاً .

وثغر "أدوسا" هذا من أعظم ثغور المملكة الروسية على البحر الأسود . وهو يرتفع عن سطح البحر بنحو الخمسين متراً وكسور ، وبه من المبانى الضخمة ، والشوارع الواسعة المنتظمة ما يدهش الأبصار وبه منتزهات جميلة خصوصاً ما هو منه على البحر . فهناك منتزهات لا يوجد أعظم منها بهاء ورونقاً ، وتشغل جانباً من أرض المدينة إلى أن تنتهى بشاطئ البحر وبها سلم كبير للنزول إلى البحر وبجانبه آلة ميكانيكية ذات عربتين كعربات الترامواى للصعود والنزول للمتنزهين ، أو لمن لا يقدرون على المشى . وبهذا الثغر محل للآثار ومكتبة عمومية ، ومدارس ودور صناعية كثيرة ، وحركته التجارية والصناعية مستمرة لأنه واسطة بين تجارة روسيا وتركيا بل بين روسيا والشرق .

وبعد أن بذل حضرة الأستاذ صابر أفندى صفارون كل العناية بى فى ضيافته أناب عنه مؤذن المسجد فى تشييعى إلى محطة السكة الحديدية ، وعمل ما يلزم لسفرى حيث كان مشتغلاً بترحيل الكثيرين من مريدى الحج إلى بيت الله الحرام فذهبت إلى المحطة قبل ظهر يوم 14 نوفمبر سنة 1906 فاستخرج لى ثلاث تذاكر إحداها للسفر وعليها نمرة سرير النوم ، وأخرى للأكل ، والثالثة للفرق بين أجرة الاكسبريس والقطار العادى . ثم ودعته وقام القطار فى وقت الظهر تماماً ، وكان أوصى بى عمال عربة الأكل وهم من مسلمى ولاية (قاسم) إحدى الولايات الإسلامية الروسية . إذ لا يوجد مطعم فى أية محطة أو عربة أكل فى أى قطار إلا وأصحابها وعموم مستخدميها من مسلمى تلك الولاية .

ولما كانت تلك الأيام من أواخر شهر رمضان المعظم فكان خادم عربة الأكل يأتى ليدعونى للافطار معهم وأما فى وقت الصحور فيأتى بالأكل إلى موضعى وكان التفاهم بينى وبينهم عسر جداً إذ أنى أعرف قليلاً من اللغة العثمانية وهم لا يعرفون منها إلا أقل من القليل . وهكذا ظلت فى حراستهم وعنايتهم ، وإن كنت قضيت هذه المدة كأعجوبة بين المسافرين لمخالفتى لهم فى الزى واللون وعدم معرفة لسانهم ، وقضيت الوقت صامتاً إلا ما كانت تدعو إليه الضرورة من إشارة تغنى عن العبارة حتى وصلنا إلى محطة سانت بطرسبورج فى الساعة الحادية عشرة من اليوم السادس عشر من الشهر ، فوجدت هناك فى إنتظارى كلاً من حضرة الفاضل (عبد الرشيد ابراهيم أفندى) ، ومعه شخص من الذين كنت أعرفهم أثناء المجاورة بالأزهر الشريف مع من ذكرتهما آنفا فعرفنى وعرفنى بحضرته فكلفه بنقل أمتعتى. وتركناه وسرنا إلى أن خرجنا من المحطة التى دهشت لضخامتها ، وإرتفاعها وسعتها وحسن منظرها ثم ركبنا عربة فلما سرنا بضع خطوات دون أن أسمع لسيرها جلبة التفت فإذا هى بلا عجل وإنما لها ساقان من الحديد تنزلق بهما على الثلج الذى كان يغطى كل الشوارع ، ويعلو الأشجار ، والأسطحة فى المدينة وفى طول الطريق من أودسا إلى بطرسبورج .

غير أنى لم أشاهد فى أودسا شيئاً من ذلك عند نزولى بها ولا بعد أن بارحناها حتى صحوت من النوم فى صباح اليوم الثانى وأنا بالقطار فشاهدته بإحدى المحطات فظننت أنه جير مخلف

من أثر عملية بناء ، أو ترميم بالمحطة ، ولكنى لما صرت أراه فوق كل شئ تحققت أنه الثلج . وظلت العربة تعدو بنا فى شوارع المدينة يميناً وشمالاً وأنا فى غاية الدهشة حتى وصلنا إلى منزل فخيم هو المنزل الذى يسكن إحدى طبقاته حضرة (عبد الرشيد أفندى) وتلك الطبقة تشتمل على قاعة جلوس كبرى بها أثاث ثمين وبيانو وباب آخر يوصل إلى غرف أخرى للجلوس والنوم وعلى شمال الداخل قاعة صغيرة هى مكتبة حضرته وبينهما طرقه توصل إلى قاعة الأكل .

ولما كان غرضى من هذه الرحلة بيان ما عليه القوم من الدرجة العمرانية وليس حكاية الحال عن شخصى فقط فسألخص ذلك فيما يلى بمشئية الله تعالى .

(بطرسبورج)

غير خاف على قراءة رحلتى . أن بطرس الأكبر هو الذى ـ اختط هذه المدينة الكبيرة ـ فى سنة 1704 ميلادية . وسماها باسمه وباسم القديس بطرس ، وانتخب موقعها على نهر عظيم يسمى " النيفا " وهو يخرج من بحيرة تسمى (لادوجا) فصارت عاصمة الروس بعد أن كانت عاصمة المملكة مدينة " موسكو " وصارت هى من أعظم مدن الدنيا عمراناً. ومدنية ولا بأس من الإشارة إلى شئ من ملخص تاريخ ذلك القيصر الكبير حتى يعرف القارئ ممن لم يطلعوا على التاريخ ما كابده ذلك القيصر فى تخطيط هذه المدينة ، وما عاناه من المتاعب فى سبيل ذلك ، وفى جعلها عاصمة المملكة . فهذا القيصر تولى المملكة فى سنة 1689 . وهو فى السابع عشرة سنة من عمره ، وأخذ يفكر فى توسيع دائرة ملكه وسمو عظمته فعمد إلى التفكير فى بناء أسطول حربى وتجارى يدور فى موانئ البحر الأسود بعد الوصول إلى ذلك البحر بامتلاكه "ازوف" وهى إحدى الثغور بعد عناء عظيم . ولما كانت خزينة المملكة خالية من المال فرض ضريبة على الأشراف وخدمة الدين ، واستخدم من يعتمد عليهم فى جمع ذلك المال ، ثم قام هو بنفسه متنكراً متنقلاً فى ممالك أوروبا المشهورة بقواها البحرية والحربية فأقام فى انجلترا والدنمارك عاملاً بسيطاً فى بناء السفن يتعلم دقائقها بحيث إذا عرفه أحد إنتقل إلى جهة أخرى غير معروف فيها ، وهكذا حتى عاد إلى بلاده فى سنة 1700 . واستلم أزمة الملك وشرع بالعمل فى بناء الأسطول بالبحر الأسود . ثم استعمل الدهاء فصار يتحد مع هذا الملك لمحاربة سواه ، كما اتحد مع ملك الدنمارك وملك بولونيا على محاربة أسوج واقتسام أملاكها ، ولم يرتد عن هذه السياسة حتى أضاف إلى روسيا مقاطعات كثيرة كنص وصيته المشهورة التى سلك سبيلها القياصرة بعده . ثم انقطع لإصلاح داخلية البلاد حتى نظم جنديتها ، وماليتها ومدارسها ومعاملها .. الخ . وجعل نفسه رئيس الكهنة الروسية ، ولم يزل القياصرة بعده كذلك . وبطرس الكبير هو من عائلة رأسها رجل اسمه (ميخائيل رومانوف) كان ابن أحد الأساقفة ، وأمه من بيت رورك وورك هذا هو أول أمير قام فى سنة 862 ميلادية من قبيلة تعرف باسم روسن اشتهر بالحكمة . فاستدعته جملة قبائل للحكم عليها فبدأ الدولة الروسية الحالية . وأطلق على رعاياه

اسم روسيين نسبة إلى قبيلة روسن وتوارث الملك عنه أمراء من نسله وسعوا نطاق الدولة حتى قام فلاديمير الأول وأدخل الديانة المسيحية إلى البلاد فى سنة 988 . ومن ذلك الحين ظهرت الدولة الروسية ، وصار لها علاقة بالدولة الأخرى ولكن مملكة بولونيا هاجمتها وكسرتها ، فصار قسم منها تحت سيادة بولونيا، وظل كذلك إلى القرن الثامن عشر، وقسم تحت سيادة التاتار إلى أوائل القرن الخامس عشر . وكان ما عدا ذلك هو القسم الذى يعرف باسم روسيا الكبرى أو بلاد المسكوف . وهو الذى تغلب بعدئذ على بقية البلاد الروسية وصيرها دولة واحدة فى زمن (إيفان الثالث) ، وما ذكرته هنا هو من المسائل التى توجب على الأمم أن لا يجعلوا لليأس على قلوبهم سلطاناً. فدولة التاتار التى كانت بالأمس سائدة على الروس صارت جزءاً منها وتحت سيادتها كبولوائة التى إنقسمت بين ثلاث دول ، وقامت دولة الروس تسود اليوم ولله فى خلقه شئون .

عود وكانت مدينة موسكو عاصمة روسيا فقد رأى القيصر أن عدم إتصالها ببلاد الغرب يضر ببلاده فانتخب موقع بطرسبورج وباشر عمارتها بنفسه حتى بلغ المشتغلون فيها من العمال نحو الأربعين ألفا ، وكان يباشر كل شئ حتى قيل إنه اقتلع ضرس عامل جاءه يشكو الآلام من ضرسه ، وللترغيب فى سكنى مدينته هذه نقل إليها رفات القديس والآثار الدينية التى كانت بكنائس موسكو وكييف وجملة ما نقله رفات القديس والآثار الدينية التى كانت بكنائس موسكو وكييف وأن جملة ما نقله رفات القديس "نيفسكى" الذى يتسمى باسمه أول شارع فى بطرسبورج ، أو هو نسبة إلى نهر النيفا لأن لفاهم (سكى) أداة نسبة فى اللغة الروسية فصارت بعنايته ومجاهدته من أكبر مدن الدنيا إتساعاً وعمراناً ، وعدد سكانها يبلغ الأثنين مليوناً ونصف مليون . ونهر النيفا يقسمها بجدار المتفرعة إلى نحو ست من الجزر ولكن الجسور الحجر والحديدية الكثيرة على النهر وعلى فروعه جعلت المواصلات واخره للغاية وكل هذه المجارى سواء من أصل النهر أو فروعه تسود جانبيها الأرصفة المتينة العالية والحواجز الحديدية البديعة الأشكال مما لا يمكن تقدير قيمته ، ويدهش الفكر عند حساب إليفها .

ولما كنا أشرنا إلى عدم الفائدة من الرحلات التى يملأها من وصف البقاع لأنها تخرج بهم عن حكمة السير فيجدر بنا الآن بعد ما ذكرنا من مبدأ قيامنا وما صدفنا فى طريقنا ليكون كنصيحة لمن يود الرحلة إلى تلك الأمصار القاصية أن نقسم كلامنا بغاية الوجازة إلى ما يهم معرفته تميز أمة عن أمة أخرى فنقول :

أولاً: ليس شئ أهم من الوقوف على عقائد القوم فى عقائدهم ، ولهذا نذكر أنهم قسمان: قسم على المذهب الأرثوذكسى وهم الأغلب وهو مذهب الحكومة الرسمى ، وقسم على المذهب الكاثوليكى وهو الأقل ، وبين هذين القسمين فريق من الأكراد وفريق أخر من المسلمين . وكل هؤلاء قابضون على دينهم أكثر من سواهم فى البلاد الأخرى وأقل تخريفاً ، وعلى نقاوة قلب وخوف من الله واستقامة تامة خصوصاً بين ديننا الإسلامى الشريف. وتوجد عداوة كامنة بين الأرثوذكسيين والكاثوليكيين وبين هذين ، واليهود أما المسلمون فمحبوبون منهم كافة. حتى إنى كنت سكنت عند عائلة يهودية فلم يقبلونى إلا بعد أن تأكدوا أنى مسلم ، وكذلك سكنت مرة أخرى

مع عائلة مسيحية ، فلم يسكنونى إلا لما تأكدوا أنى لست يهودى ، وهم يحترمون الكنائس والمعابد ورجال الدين أعظم إحترام . وكنت إذا ركبت عربة رأيت الحوذى كلما مر على كنيسة أو " أيقونة " ـ صورة لأحد القديسين ـ أسرع بكشف رأسه ورسم الصليب جملة مرار حتى يتجاوزها ، وهكذا حال كل المارة مشاة وركبانا . وكان ذلك يؤثر فى قلبى أشد التأثير ، إذ تتمثل أمامى وحدة الخالق سبحانه وتعالى ، وتوجه الكل إلى تعظيمه وعبادته على إختلاف الطرق والتنافس فى سلوكها .

وكلما يسمع عن الروسيين من بغضهم للمسلمين أو التضييق عليهن ليس صحيحاً. ولكنه يوجد من ذوى الجاه والنفوذ من يتظاهر بذلك فيسند فعله إلى الأمة بأجمعها . والروسيون أهل وداعة وتودد ، وحسن معاملة ، ومكارم أخلاق . ويكفى أن أقول أنى فى تسعة أشهر لم أر مشاجرة واحدة فى أحد الشوارع ، أو بالمجتمعات العمومية . ولم يوجد من أعمالهم الدينية ما يتشابه مع بعض أعمالنا الا وجود بعض الإحتفالات لبعض القديسين كالموالد عندنا .

وتوطيد العقائد الدينية فى قلوب الروسيين سبب كبير فى عدم وجود الجرائم بينهم ، ولا يقدح فى قولى هذا وقوع الفظائع من رجال اللجنة الثورية . فإن هؤلاء ليسوا من الدين فى شئ بسبب مالابس عقائدهم من كتابات فلاسفة الفرانساويين ضد الدين . وكان أول ما طلب منى تحريره أن أكتب كلمة إلى المسلمين فنظمت القصيدة الأتية تحت عنوان إلى المسلمين ، وذلك بالعدد السابع من جريدة "التلميذ" الصادرة فى يوم السبت 14 شوال سنة 1324 ، أول ديسمبر سنة 1906.

(إلى المسلمين)

إلى ما إلى ما نحن يا قوم نوَم ؟	عن السبق فى كسب العلا النوم يجرم
هلموا وهبوا ليس للنوم قيمة	إذا كان للتأخير والفقر يسلم
ألا فاسألوا أهل البصائر واسمعوا	بماذا تأخرنا اذا هم تقدموا ؟
يقولون عنا ان للجو علة	لتأخيرنا كلا فهذا توهم
أليس هو الجو الذى فيه قد نمت	حياة لاسلاف على الفوز أقدموا
وآثارهم فينا تؤكد أنهم	هم الناس أما نحن كالبهم سوم
لعمر المعالى لو يقدر بعثهم	لما قدروا أن ينسبونا اليهمو
لقد نسب الافرنج تأخيرنا إلى	أوامر دين فيه فوز ومغنم
وما الذنب إلا قولنا وصنيعنا	وما الدين إلا النور والجو معتم

وهاكم بأرض الهند قوما بغير ما ندين به دانوا ولم يتقدموا
ومن يتبين حالنا يدر أننا بترك أمور الدين نشقى وندهم
ولم لا؟ وهذا ديننا فيه كل ما يقوم به العمران أو هو سلم
وأسطع برهان عليه رجاله فقد قادهم نحو العلا حين اسلموا
وسادوا بنى الدنيا بأقصر مدة بقانونه السامى السماوى فعظموا
ولو شئت تشريحاً لداعى انحطاطنا لما وسع التشريح قول يتمم

***

فمن ذاك خسراً أن أضعتم لسانكم ويأبى لسان الغير أن تتعلموا
هموا رغبوا أن ينقلونا لجنسهم بتحويله عنه وحتماً سنعجم
ألا فانظروا للقبط فى مصر نظرة فأين همو من مجدهم وهمو همو
اليس لأن القوم ضاع لسانهم فضاعت معاليهم ولم يغن مندم

***

ومن ذاك دور العلم لم تك بيننا على ما اقتضت حاجاتنا وهى الزم
وما هو من دور الصناعات عندنا كلا شئ مما يرتضيه التقدم
شعرنا بأنا فى افتقار اليهما فكيف عن الاقدام والسعى نحجم
هما اثنان مسئولان مثر وعالم وليس مسئول جهول ومعدم
بدر همه هذا وهذا بعلمه فإن يفعلان فالأجر أعلى وأعظم
وإن بخلافا لخسر عام ولم يكن لنا قدم فى الارتقا تتقدم

***

ومن ذاك أن أهملتم المرأة التى عليها إرتقا الأبناء إن هم تعلموا
تغذية بالألبان لكن فكرها كمدرسة أولى له حين يقدم
فأهملتموها للجهالة لم تكن بعارفة شأن الحياة لتغنموا
وتدبير أمر البيت من كل وجهة عليها وإلا فهو بيت مهدم
لهذا فأولى أن تحلى بحلية من العلم ثم الدين وهو المقدم

***

ومن ذاك تقليد الأجانب فى الذى يضر وعنه الفقر والبؤس ينجم

ولو كان ذا التقليد فيما يفيدنا لكنا سبقناهم وما نتبرم
وأكبر من هذا وذلك كله تفرقنا واحسرتا فهو يعدم
وخشية غير الله جبناً وخسة على أن نصر المؤمنين محتم
وأين همو لو كان يوجد منهمو ذوو العزم كنا فى المنافع نعزم

***

فيها نبى الاسلام هبوا بحكمة إلى وحدة الدين الحنيف وأقدموا
إلى الأخذ بالحسنى إلى القول بالنهى إلى الفعل فى حزم فذلك أحزم

والمسلمون غير مضطهدين فى دينهم . وهم فى البلاد الروسية نحو الخمسة وعشرين مليوناً من النفوس ، والموجود منهم فى عاصمة الروس نحو العشرة آلاف منهم التجار ، والصناع وفيهم ذوو الوجاهة والثراء ، ولم يكن لهم فيها مسجد للصلاة سوى بيوت استأجروها لإقامة العبادة . وقد دعونا الناس للإكتتاب بواسطة جريدة «التلميذ» ، ووجهنا الخطاب لملوك الإسلام فلم يجب النداء سوى الأمير الجليل المعظم سمو أمير «بخارا» الأفحم بأن تبرع بثمن أرض المسجد من جيبه الخاص وتوج ذلك بعمل اكتتاب عام فى بلاد إمارته فاجتمع المال الكثير ، مضافاً إلى ما كان جمعه حضرة «رئيس الجمعية الخيرية الإسلامية» فى بطرسبورج وهو بولونى الأصل من سكانها المسلمين . وقد اشتروا بيتاً كبيراً على شارع النيفسكى ، وشارع آخر متقابل معه واختاروا أن يجعلوا صحنه مسجداً ويتركوا مساكنه للاستغلال ، ولكنه لم يتم للآن .

وممن اشتغلوا بخدمة هذا الاكتتاب ، وكانت له اليد الطولى فى خدمة المسلمين هناك أيضاً رجل مثر فاضل اسمه (محمد عليم مقصودف أفندى) وديع الأخلاق طاهر القلب ذو مزايا شريفة وخلال عالية . أما ما تذيعه الجرائد من وجود إضطهادات من الدولة الروسية للمسلمين فراجع إلى ما أشرنا إليه من قيام بعض وجهاء الحكام الذين هم من رجال الدين والعسكرية بشئ من هذا القبيل . فيسند عمله إلى الأمة الروسية وحكومتها جملة ، وهو غير صحيح . إلا أن حكومة الروس ككل الحكومات المستعمرة تخشى قيام أهالى المستعمرات المحكومين بها ، فهى تعمل للحذر من هذه الجهة بأن أوجدت الأحكام على ثلاثة أنواع حكم عرفى بلا مجالس تحقيق ، وحكم عرفى بعد إنعقاد مجلس تحقيق خاص ، وحكم قانونى أمام المحاكم . والنوعان الأولان لمحاكمة المجرمين السياسيين وأمثالهم بحسب أهمية الجريمة . وحكام المستعمرات عموماً عسكريون .

ثانياً: إن الحالة العمرانية فى البلاد الروسية سائرة على محور منتظم إن لم يزد على مدينة الممالك الأوربية الأخرى . فلا ينقص عنها . وهى بلاد صناعية زراعية تجارية .

فأما الصناعة ففيها مدارس صناعية كثيرة راقية ، ومدارس فنية للعمليات الكبرى ، وبها من المعامل العدد العظيم ، وليس شئ مما يصنع فى الممالك الأوربية إلا ويصنع بها .

إلا ما كان خصيصاً بغيرها . ومما تمتاز على غيرها به صياغة الذهب الأبيض (البلاتين) الذى يستخرج من جبال أورال ، وبعض المصنوعات الخشبية مما سيأتى بيانه قريباً .

وأما الزراعة فكذلك غير أنها خصيصة بزراعة القمح لصلاحية أرضها له ، ولإتساع مساحتها ، وبها من الأثمار والنباتات الأخرى ما يوافق البلاد الباردة فقط . ومما يدور فى مآكلهم طول السنة تقريباً الكرمب فهم يقدمونه فى أول الطعام كالشوربة ويسمونه (برش) . وهم فى حالتهم الزراعية كأهالى الصعيد عندنا إذ ينتظرون انحسار الثلوج والمياه عن الأراضى ثم يزرعونها (بالتلويق) ، وفيما عدا إبان الزراعة تراهم يشتغلون بالصناعة فالنساء والأطفال يشتغلون بعمل العلب على شكل الفواكه من التفاح ، والكمثرى ، وغيرها مما يوجد منه عند تجار الأفرنج هنا بمصر .

وأما التجارة فما تمتاز به على سائر الممالك الأخرى التجارة فى الخيول التى تكثر بها "الخيول البلق" ثم القمح ، وبعض تلك المصنوعات التى أشرنا إليها .

ولكل نوع من هذه الأنواع مدارس خاصة موجودة بكثرة عدا المدارس العلمية والدينية منها ما هو للحكومة وما هو للأهالى ، ومنها العام والخاص ، ولكل مدرسة سواء كانت أميرية أو أهليه لباس خاص يعرف به . فتعرف الحوذى ، والحمال ، والطرزى ، والحداد من شكله وهندامه . ومما يجعل ذكره هنا أنه غير مسموح لأحد من التلاميذ بالمدارس الإبتدائية أو الثانوية أن يدخل المحال العمومية كالقهاوى والحانات وأمثالها . اللهم إلا أن يكون من طلبة المدارس العالية فلا حرج عليه ، على العكس منا معشر المصريين فهذه محال المقامرات والحانات والفسق مملوءة بالشبان بلا رقيب من الحكومة ، ولا من الأهالى .

وللمسلمين ببطرسبورج مكاتب أهلية لا سيطرة للحكومة عليها . غير أنها مكاتب إبتدائية بسيطة يديرها رجال بسطاء إلا القليل منها فى يد بعض العارفين ، ومواردها من البر والإحسان ، وقد كان فى الإمكان أن يجمع المسلمون أمرهم فى تلك العاصمة لعمل مدرسة كبرى نافعة ، ولكن لهم العذر فى ذلك إذ ليست حكومة الروس كحكومة فرنسا التى أنشأت المدرسة الصناعية فى تونس من أموال أوقاف المدرسة الصادقية ثم جعلتها لأنباء الفرنسيس خاصة ولم تدخل بها من المسلمين إلا ستة بعد رفع الشكاوى العديدة بحجة أن أبناء المسلمين يفسدون أخلاقهم بل أن حكومة الروس سوت بين رعاياها فى التعليم فتجد مدارسها تقبل أبناء المسلمين وبناتهم بعناية تامة بلا استثناء وترى بين أبناء الروس من يساويهم من أبنائنا وبناتنا فى كل الدرجات العلمية .

وهكذا الشأن فى المدرسة الحربية فمن ترقوا بها من أبناء المسلمين إلى رتبة الفريق وما تحتها كثيرون . ولكن مما تؤاخذ عليه الحكومة الروسية أنها كانت أرادت أن تجعل التعليم فى المدارس الاسلامية باللغة الروسية وأن تكتب اللغة التاتارية بحروف روسية. وقد كتبت بجريدة التلميذ أدعو المسلمين هناك لمعارضة ذلك فلم يتم فعلا لما فى أخواننا المسلمين هناك من الشدة واليأس واليقظة والعمل للمستقبل وإن قام منهم من ساعد فى عمل كراسة دينية تشتمل على التوحيد وبعض العبادات بنصها العربى بحروف روسية حتى مسخت النطق وكانت هذه الكراسة باعثة لإحدى الراهبات على طلب تعيينها

معلمة للدروس الدينية بالمدارس الاسلامية ولا يؤخذ ذلك على أخواننا هناك ففيهم بعض المارقين كما هو الحال عندنا .

ويشكو المسلمون هناك من تدخل الحكومة فى إدارة شئون المحاكم الشرعية فى حالة أنها لا تتدخل فى شئون محاكم الشريعة الموسوية . ولكنى أقول أن ذلك ليس فيه غبار على حكومة الروس . بل تبعته على الأمة الإسلامية نفسها عموماً ، وعلى رجال الدين خصوصاً ففيهم من لا يعارضون الحكومة فى ذلك ولو بالقول إستخفافاً بالأمر ، ومحافظة على الراتب كما يفعل الكثيرون عندنا ، ومن كانوا على هذه الشاكلة محقورون مرذولون لدى الأمة التاتارية بأسرها .

ثالثاً: أن حالة التعليم لدى المسلمين فى روسيا سائرة كغيره ، كالسيل الجارف بباعث الاخلاص فى الخدمة من زمرة الأغنياء والوجهاء . بل الفقراء ففى كل قرية مكتب لتعلم القرآن الشريف ، وليس للمعلم أجر من التلاميذ سوى قطعة من الخشب يستحضرها الطفل معه للوقود ولأجل التدفئة . إذ أن الجو فى البلاد الروسية بارد ويصل فى بعض الأحيان لدرجة 30 تحت الصفر ، ويثبت فى كثير من الأيام على درجة من العشرين إلى الخامسة والعشرين . ونزول الثلوج مستمر فتراه كالقطن المندوف المتطاير . ومن الأغنياء فى كل جهة من له مكتب خصوصى، ومنهم من له جملة مكاتب حتى أن أحد الأغنياء فى مدينة باكو افتتح مائة مكتب على نفقته ، ولهم شغف كبير بمساعدة الفقراء ، وإحترام العلماء ومعاونتهم وحب الجنس العربى من حيث أن النبى الكريم صلوات الله عليه من العرب .

وبالإجمال فحالة مسلمى روسيا أحسن بكثير من كل مسلمى العالم الآن من الوجهة العمرانية. وهم على رقى متقدم للأمام دائماً ، ولقد افتتح أحد أغنيائهم مكتباً فى خربين بالصين، وسيكون الفضل فى نشر الإسلام ببلاد الصين لمسلمى الروس دون غيرهم .

ومن أعجب ما فى عاصمة الروس مما يلفت النظر ويدهش الفكر ضخامة بناياتها ، وإتساع شوارعها ، وتقيسمها فترى قسماً للمشاة ، وقسماً للعربات ، وقسماً للترامواى ، وقسماً للتنزه وفى تقاطع الشوارع منتزهات جمة وكل منتزه به تمثال إما لأحد الأدباء ، أو القواد ، أو العلماء، أو السواس ، أو الملوك .

وأهم شارع بها هو شارع "النيفسكى" ـ الذى يمتد من الشرق إلى الغرب على مسافة خمسة آلاف متر ، وعلى جانبيه الفنادق والمراسح والمنتديات والمخازن المملوءة بمختلف الأمتعة والمقتنيات والكنائس إلى غير ذلك ـ . ومن عجائبها أن الترامواى الكهربائى يسير فوق الثلج المتجمد مدة الشتاء من العاصمة إلى قرية تسمى " بتربورج استرانا " والثلج يتجمد فوق سطح الماء إلى عمق ثلاثة أمتار تقريباً . وعند دخول شهر مايو ينقطع فيأخذون منه القطع الكبيرة فيخزنونها فى مطامير تحت الأرض لاستعماله مدة الصيف وهو عندهم من شهر مايو إلى أوائل سبتمبر . ومن عجائبها أيضاً أن الجسور التى وضعت على نهر "النيفا" وفروعه تبلغ مائة وخمسين جسراً فوق واحد وعشرين فرعاً . وأن مساحة بحيرة " لاودجا " تبلغ 18000 كيلو متر مربع ، وطولها 200 كيلو متر ، وعرضها 158،

يذهب الناس إليها للتفسح على بواخر صغيرة ، وبها خمس محطات للسكك الحديدية ، وواحد وعشرين خطا للترامواى . ومن عجائبها أن خدمة الذوات وخصوصاً "العائلة المالكة"، وسائقى عرباتهم لهم ملابس مزركشة بالقصب على اللون الأحمر ، وكذلك إختلاف أزياء ملابس الضباط بإختلاف أسلحتهم . ومن عجائبها المشهورة "كنيسة العذراء" فهى قائمة على 132 عموداً ضخماً من الرخام الذى يشبه رخام أعمدة الكرنك. ولها قبة من النحاس قطرها عشرون متراً على ستة وخمسين عموداً قواعدها وتيجانها من النحاس المطلى بالذهب ، وفيها أعلام ، وأسلحة غنمها الروس من النصر على الدولة العثمانية ، ودول النمسا ، وفرنسا ، والمانيا ، وإيران ، والكنائس فى روسيا كل واحدة منها خاصة بمسألة تاريخية . لأن من القواعد المتبعة فى روسيا أن لكل واقعة تنتصر فيها كنيسة تبنى لهذا الغرض . ويودع بها كلما يكتسب من الغنائم وهناك كنيسة أمامها مدافع عثمانية على شكل نصف دائرة ومدافع فوق بعضها على شكل منارة قائمة فى مركز نصف الدائرة .

ومن عجائبها "حديقة الكسندره" أنشأها (القيصر اسكندر الثانى) تذكاراً لكاترينا الثانية ، وبها تمثالها تحمل الوسامات الكثيرة وحولها رجال المملكة . ومن عجائبها "مرسح الكسندره" وبه قاعة تسع ألفى متفرج . ومنها "دير نيفسكى" الشهير وهو مبنى على شكل حصن عظيم تحيط به الخنادق ، وكانت وهبته الأمبراطورة اليصابات ما استخرج من الفضة مدة سنة كاملة تبلغ 1800 كيلو ، وذلك سنة 1752 ومنها جسر مصر ومنها تمثالان لأبى الهول أخذا من مصر ووضعا على نهر "النيفا" فى زمن بطرس الأكبر مما يدل على أن آمال ذلك القيصر كانت ترمى إلى الإستيلاء على مصرنا العزيزة . ومن عجائبها أن بها نحو من الثمانية وعشرين الفا من عربات الركوب .

ومنها أن الروسيين لا يستعملون غير الشاى ومحلاته كثيرة ، ومنتظمة . وبها آلات الطرب وجميع من يؤدى الخدمة من النساء إلا محلات الخمر فخادموها من الشبان أو الرجال وتلك يبتدئ فتحها من الساعة الحادية عشرة صباحاً إلى الساعة الحادية عشرة مساء وهذه تفتح من السادسة صباحاً وتظل إلى الساعة الثانية بعد نصف الليل وجميع المحلات تكون مغلقة يوم الأحد إلا محلات الأكل فتفتح بعد الظهر ومنها المكتبة القيصرية فهى فى بناء متسع ومنتظم جداً وبها نحو مليون وسبعمائة ألف مجلد مطبوع و نحو أربعين ألفا بخط اليد و نحو ثمانين ألف رسم متقن لجميع جوانب الأرض وقد زرتها مع حضرة عبد الرشيد أفندى ابراهيموف وأطلعت فيها على نسخة من القرآن الشريف قيل أنها أحد نسخ سيدنا عثمان رضى الله عنه .

ولنظارة الحقانية مكتبة خاصة أطلعنى عليها حضرة العالم الفاضل والأديب المهذب أنطون أفندى فضول الخشاب الطرابلسى من كبار المعلمين بمدرسة اللغات الشرقية القيصرية وقد أطلعت فيها طائفة من أنفس الكتب وعثرت فيها على ذيل لكتاب يتيمة الدهر بخط جميل وكتاب فى التثليث نافع لكل من أطلع عليه من جهة القول الحق فى عقيدة التثليث والوقوف على حقيقتها وغير ذلك . ومنها دار التحف وهى تشتمل على آثار جمة من قرون مختلفة ومنها معرض الصور وهى فى بناء ضخم مركب من

طبقتين به من صور المشاهير والمشاهد الحربية والآثارالدينية والقواد والشعراء والكتاب والملوك فى مختلف العصور بيد مشاهير المصورين ولنابليون بونابرت أكثر من عشرين رسماً على أحوال مختلفة وخصوصاً فى حريق موسكو . وترى بها من الفتيان والفتيات من يشتغل بنقل تلك الصور . ومنها معرض الألعاب وهو للأهالى ومن أعجب ما رأيت فيه أن صعد شخص ممتلئ الجسم راكباً عجلة بسكليت على قوائم خشبية تحكى شكل شبه منحرف قاعدته أرض المحل وظل فى أعلاها يلعب ألعاباً مختلفة ثم نزل بالعجلة وفى أثناء نزوله جاء شخص آخر وقلب تلك العجلة فانكفأت براكبها واعتدل ثانية وهو يجرى بها دون أن يقع أو يختل فى سيره .

ومنها معرض لصور الأمراء . وخصوصاً الأمراض الزهرية ومرض العيون . ومنها أن بها جمعية خيرية افتتحت مطاعم مجانية للفقراء الذين بيد كل منهم شهادة تدل على فقره ومطاعم أخرى لمن لم تكن بيد أحدهم شهادة بحيث أن كل صحن لا يزيد عن ثلاثة مليمات .

ومن عجائبها التى سررت لها أن ليس فيها امرأة مسلمة فى دور الفحش حتى أنه فى ذات يوم لما علم كبار التاتار بوفود بعض النسوة المسلمات لغرض الفحش بقيادة امرأة أفرنكية كانت استوتهن أجمعوا أمرهم وطلبوا من الحكومة إخراجهن فأجيبوا لما طلبوا . ومنها أن من قوانين الحكومة أن كل مالك يبنى فى منزله محلاً عمومياً لقضاء الحاجة ولهذا لا ترى الحكومة مباول ولا مراحيض للماره .

ومنها أن الحكومة تطبع كتاباً إحصائياً لكل من يسكن المدينة مهما كان جنسه وسنه فى كل ستة أشهر وله كتبة خصوصيون لإجراء التعديلات الوقتية به فإذا ذهبت إلى بطرسبورج مثلاً وأردت أن تسأل عن شخص لم تهتد عن محل سكناه فما عليك إلا أن تكتب تذكرة من ذات الثلاثة ملليمات لإدارة البريد فير د عليك الرد بعنوانك مذكوراً به عنوان من تريد . وكيفية ضبط القيد فى كتاب الاحصاء هذا أن لكل بيت بوابا لديه دفتر من قبل إدارة المحافظة يقيد به كل من يسكن بالمنزل حسب المنصوص فى تذكرة المرور التى يحملها وإذا خرج يؤشر أمامه أنه خرج فى يوم كذا و يخطر المحافظة عن كل ذلك والمنازل هناك تبنى على شكل مربع له فناء متسع وكل مسكن له باب من الداخل وآخر من الخارج وعلى كل باب خارجى شخص ذو لباس خاص ويسمى "شويتسار " أى خادم والبواب يسمى "ديفرانك ".

والشويتسار من وظيفته أن يخطر البواب بكل ما يحصل فى سكنه وعليه أن يستلم البريد من الموزع ويسلمه إلى السكان وبهذه الكيفية قد استغنت الحكومة عن الخفراء ليلاً واكتفت بمرور البوليس " السوارى " ومنها أن الحكومة تطبع خريطة المدينة مبينة فيها جميع محلات الحكومة وقناصل الدول والمدارس والجمعيات الخيرية والطبية ومحلات الحريق بالألوان المختلفة بوضاحة تامة ومعها كراسة صغيرة بها جملة تعليمات للبوليس وللعامة وتباع بعشرة ملليمات .

وتقسيم العملة الروسية كتقسيم العملة المصرية بلا فرق سوى اختلاف نقش السكة

فقط ، ومنها أن يوجد على باب كل بيت لوحة سوداء ذات مسامير بارزة لتعلق بها الأوراق عن المحلات الخالية بالمنزل فإذا كان الخالى شقة كاملة كانت الورقة بيضاء وعليها نمرة تلك الشقة ومشتملاتها بالكتابة وإذا كان الخالى غرفة كانت الورقة خضراء وإذا كان الخالى موضع سرير فى غرفة كانت الورقة حمراء فلا يحتاج الباحث هناك إلى شيخ حارة أو إلى سمسار . ومنها أنه ممنوع قطيعاً غسيل الملابس بالمنازل بل عند الغسال ومحلات الغسيل كثيرة جداً وبها السيدات يغسلن و يخيطن ويكوين الخ ولرئيس كل محل للغسيل دفتر مصدق عليه من إدارة المحافظة ذو قسيمتين ثابتة ومنقولة مكتوب فيها كل أنواع الملابس مطبوعة فمتى أحضرت له شيئاً أشر عليه ووصف ما يمتاز منه وأمضى الورقة وناولك إياها وأعطاك الموعد الحقيقى فتعود وتدفع الورقة مع الأجرة فتستلم ملابسك فى غاية النظافة . ومنها أن كل محل مرسوم على وجهته جميع الأصناف التى يعرف بها فأنت من بعيد تعرف هذا بائع ألبسة وذاك بائع فاكهة وهلم جرا وكل شئ يباع مكتوب عليه ثمنه المحدد . ومنها أن لكل محطة للسكة الحديدية أمين تودع عنده ما تريد نظير عشرة ملليمات عن كل قطعة وتأخذ بها قسيمة مقيدة بدفتر معتمد من المحافظة .

ومنها عدم زواج البنات قبل العشرين ومن يخالف يعاقب . ومنها أن الاكتتابات لا تكون إلا بتصريح من الحكومة ومنها أن اليانصيب ليس فوضى كما هو عندنا ومنها أن للجمعيات الخيرية صناديق موزعة بجميع المحلات العمومية والطرق والكنائس الخ . وليس فى بطرسبورج من أبناء العرب الآن إلا حضرة الفاضل أنطون أفندى الخشاب المشار إليه وهو رجل فى غاية الوداعة وعلى جانب عظيم من مكارم الأخلاق ومعرفه غزيرة ويعرف من اللغات العربية والفرنساوية والروسية والفارسية والتركية تربى بالمدارس الروسية ناشئاً ثم هاجر إلى فارس بوظيفة بالبنك الروسى هناك وبها تعلم اللغة الفارسية وعاد منها بعد سنوات . وقد بارحت مدينة بطرسبورج فى مايو سنة 1907 وهو على وشك التعيين بنظارة الخارجية بوظيفة سامية وأخوه بإحدى المدارس العالية وآخر اسمه سليم خورى من جبل لبنان وكان بها رجل اسمه سليم نوفل من ألد أعداء المسلمين مات بعد أن كسرت رجلاه وذاق الهوان . وأنطون أفندى هذا متزوج بسيدة روسية هى آية فى الكمال ومكارم الأخلاق وقد صنعا معى من المعروف مالا أزال أشكرهما عليه فلا أفيهما حقهما منه .

رابعاً: أن السبب فى إذاعة السوء عن البلاد الروسية وشهرتها بالقلاقل على غير حقيقة هو أن بها جمعية ثورية تحاكى حزب تركيا الفتاة ولكنها تتعمد الفتك بالحكام وبهدم أبنية الحكومة لغرض قلب نظامها وليس هناك عقدة لم تحل بين الأمة والحكومة إلا مسألة تقسيم الأراضى فإنها كلها مملوكة للعائلة المالكة والطبقة العليا من الملاك الذين يسمونهم باللغة الروسية " باميشيك " وإلا فكل شئ سواها سائر على محور البلاد المتمدنة الراقية ويقابل الفدان عندنا ما هو تحت اسم " دستينا " عندهم وهو نصف فدان تقريباً .

وقد حضرت إفتتاح "الدوما الثانى" بتاريخ 2 مارس سنة 1907 . فكنت أسمع الفلاحين يصيحون بقولهم الأرض الأرض . وبهذه المناسبة نقول : أن المسلمين فى الدوما قليلون فى جانب غيرهم ، ولكنهم مع ذلك مشتتو الإرادة ولم يميلوا إلى حزب واحد وكنت نشرت

بجريدة "التلميذ" قصيدة تحت عنوان مع أى الأحزاب نكون ؟ لا بأس بإيرادها وهى :

هموا ثبتوا على دأب فسادوا	ولم يعرف ديارهمو الفساد
لأن المجد ليس ينال عفواً	ودأب ذوى الحياة هو الجهاد
ترى الاحزاب منهم فى اختلاف	فتحسبهم عن المقصود دحادوا
و يحتدم الجدال وقد يؤدى	إلى حال يحاكيها الجلاد
فتحسبهم على شر تناجوا	وشؤم جره ذاك العناد
إذا هم بعد هذا فى ائتلاف	يقودهمو إلى الغرض اتحاد
وكيف وكل حزب فى ثبات	على مبداه ينكشف المراد
أليس من الغرابة فى مكان	من القوم اتحاد وانفراد
و يختفلون فكراً واعتقاداً	وأس النفع فكر واعتقاد
نعم هو من عجائبهم ولكن	توحد قصدهم فبدا الرشاد
وما ضر اختلاف ذوى جهاد	لمنفعة تسود بها البلاد
فإن تضارب الأفكار منه	سديد الرأى تعرفه العباد
ومملكة حوت أبناء سعى	إلى خيراتها أبداً تشاد
ومملكة ينقب من بنيها	رجال عن علاها لاتباد
ومملكة تفانى كل فرد	حوته لنفعها هى لا تُكاد
ومملكة حوت من نام عنها	خمولاً كيف سؤددها يعاد
فهيا وأدركوا المقصود سعياً	لتسمو من منافعنا العماد
ولا تتقسموا فيضيع منا	مع الريح اهتمام واجتهاد

ثم ذيلت هذه القصيدة بمقالة طويلة استغرقت نحو الثلاث صفحات من الجريدة جاء فى ختامها ما يأتى :

فإذا انضممنا واتحدنا ولا نخالنا إلا كذلك بحكمة رجالنا الذين يقع عليهم الانتخاب وتساءلنا بعد ذلك .

(مع أى الأحزاب نكون ؟)

فالجواب على هذ مما يجب إعمال الروية والفكر له ولكنه بسيط للغاية فهذا ديننا الاسلامى الشريف يدعو إلى الحرية الدينية وإلى المساواة وإلى العدل والنظام والعمران والتسمح وعدم التشديد كما أنه يدعو إلى الأخذ بالحزم وعدم التهاون والتساهل فى الواجبات إلى مالا حصر له من مكارم الأخلاق فأى حزب رأيناه أقرب إلى هذه المبادئ الكريمة أو هو منها على جماع الأخذ بها فإننا نكون معه ويكون صوتنا صوته وغايتنا غايته وإلا فنكون مع كل حزب فيما يلائم هذه المبادئ وينطبق على حاجتنا فى المدينة والعمران كما إننا يجب أن لا نترك حقاً أو واجباً دون أن نتمسك برأينا فيه فإن الأساس الذى نضعه نحن فى الدوما ستكون عليه الطبقات الآتية بعدنا من أبنائنا ومالا يوافقهم حينذاك من تلك الأصول التى أسسناها لا يمكنهم نقضها ونكون جنينا عليهم شر جناية ووقعنا فى معنى قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه يحيى بن أيوب وقتيبة بن سعيد وابن حجر عن اسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبي هريرة ص 110 جزء 10 قسطلانى (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً) أى بعد أن سنها سواء كان العمل بها فى حياته أو بعد موته .

فلنتدبر ونتفكر ونتبصر و نحتط كثيراً فإن وقت النوم فات فيجب التيقظ للآتى فى سائر الأوقات والله ولى المؤمنين

ولا شك أنهم مهما اختلفوا فى الآراء وضاعت أصواتهم فى ذلك الوسط المزدحم فإنهم أحسن حالاً منا معشر المسلمين فى مصر إذ تمادت حكومتنا المطلقة فى إنفرادها بالحكم حتى ساعت الحال ولم ندر إلى ما يكون المآل

نعم أن الدول الأوروبية وعلى الخصوص دولة انجلترا المحتلة تعارض كل المعارضة فى نوالنا الحكم الدستورى التام كما هو الشأن فى البلاد المستقلة المتمدنة إذ لو نلنا الحكم الدستورى التام لكننا نتناول التصرف فى المالية وفى التعليم وفى الجيش فأما المالية فيمنعنا من السيطرة عليها أرباب الديون العمومية ومساعدة الدول الأوروبية لأولئك المداينين وأما التعليم والجيش فلا إخال أن الدول الأوروبية تعارض فيهما اللهم إلا أن الدولة الانجليزية تعارض فيهما أو فى الثانى دون الأول كما تدل عليه مطامح ساستها .

وعلى كل حال فإن المطالبة بالحكم الدستورى من كل مصرى واجبة . وأما نوع المطالبة فلا أوافق الذين يطعنون على الأمة الانكليزية ويكتبون الكتابات الشديدة ويبعثون العامة على المظاهرات الشائنة التى أشغلت المحترف عن حرفته والصانع عن صناعته والمتعلم عن دروسه حتى كدنا نترك الدين والدنيا للاشتغال بالسياسة من غير بابها وإنى أوافق فريق العقلاء الذين راعوا المناسبات الزمانية فى الأحوال الحاضرة فرأوا الاستعانة بإيقاف الأمة المحتلة على ما هو أوفق وأجدرينا لنوال مطلوبنا فإن بيننا وبين الزمن الذى تنجلى فيه الانجليز عن وطننا العزيز مسافة طويلة ولكن

يمكننا تقصيرها بإعداد أنفسنا من الوجهة العلمية والاقتصادية بالطرق الحكيمة .

فإذا شاء رجال الأحزاب ومن يهمهم أمرنا من قادة الأفكار وكبار الكتاب أن يتناولوا الأنفع قبل النافع والأهم قبل المهم فليجتهدوا فى إزالة ما ألصق بنا العار بين الأمم الأخرى فإنه طالما أخجلنى الكثيرون من الروسيين المسيحين والمسلمين ورجال العلم والأدب فى تونس مما شاهده سائحوهم من سوء حالتنا الأدبية . فليس بين تلك الأمم رجل يتزيى بزى النساء أو امرأة تتشبه بالرجال أو امرأة مسلمة يستعملها المسيحى الاجنبى فى الرقص القبيح ليتفرج عليها إخوانها المسلمون و يخسرون على هذا مالهم قدر ما يكتسبون من الاثم إلى غير ذلك مما انفردنا به دون سوانا من الأمم الاسلامية على الخصوص وليس عندنا غيرنا انتشار حفظة القرآن الكريم فى الشوارع والطرق يقرأونه ليسألوا الناس به ولا يبالون بشرف المحل الذى يقرأونه فيه أو دناسته .

فإليهم وإلى علمائنا ورجال الصحافة عندنا أرفع صوتى مضافاً إلى أصوات من يهمهم الأمر راجياً أن يتناولوا الكلام فى كل شئ من مهام أمورنا فلا يجعلوا اهتمامهم قاصراً على جلاء الانجليز فقط وليتركوا التشاتم وما يدعو إلى التفريق والانقسام فهذا أولى بهم وأليق .

ولا بأس أن نورد هنا بعض ما اقترحه علينا رجال الفضل فنشرناه فى جريدة التلميذ من المنظومات وهى :

(سانحة)

لكل باد خفاء فيه نفتكر ... لاحد للفكر مهما حدد النظر
ادخل إلى الروض تنفح من أزاهره ... وفوق رأسك منه يسقط الثمر
أم كيف إذا ما الدوح أسقطها ... واشرح وعلل لما لم يسقط القمر
أم كيف لم تسقط الشمس المنيرة أو ... تسقط عوالمها والانجم الزهر
الكل جسم له ثقل وقد بقيت ... تسرى بدهر قديم ليس ينحصر
وفى مداراتها مازال سائرها ... يرعى النظام وبدء عنده السرر

* * *

هذا " نيوتن " قد أبدى بفكرته ... تعليلها ، وهو تعليل به تظر
فالجذب والدفع ناموسان قد وضحا ... بفكره وبه الانصار تفتخر
لكن إذا ما تساوى اثناهما ثبتت ... ولم يكن قط سيار به بصروا

وإن يكونا على حال اختلافهما — هذا كبير وهذا شأنه الصغر
فإنها حال كون الجذب أكبر من — نقيضه فى المكان الفذ تنحصر
أو إن يكونا بفكس الفرض فهى إذاً — عن صفحة الكون للأطراف تنحسر
هذا وذاك بعيد ليس يعقله — عقل به فى مجال البحث ندكر
فاصفح " نيوتن " أن الجاذبية لا — سلطان منها على الأكوان يقتدر
نعم أتيت ببعض الحق تثبته — فى العلم رايا وليس الرأى يحتقر

* * *

(الله أكبر) قد قامت بقدرته — وعنده وحده عن كونها الخبر
ولا مجال لعقل عند حكمته — مهما ارتقى فى سماء الحكمة البشر
كم لا حق فى صنوف العلم فنُدما — قد كان يبديه ذو سبق ويبتكر
وأول أولوا ما قاله خطأ — وصوبوا رأيه من بعد واعتذروا
وبين أخذ ورد فى مباحثهم — تطوى الليالى عليهم ثم تنتشر
حتى غدا العلم آراء مبعثرة — وبالخطأ والصواب ازدادت الصور

* * *

أواه يا شرق كم من عالم قبرت — آراؤه فيك لم تحفل بها الفكر
جهلاً بقيمتها طوراً وآونة — حسبان قائلها من فرقة كفروا

* * *

لو كان يعرف (ماركونى) وزمرته — (عمرو بن بحر) لما تاهو أو ما افتخروا (1)
عن كهربائية الجو استقر له — رأى وقد ظل فى الأوراق يستتر
ألفا وستين عاماً لو تناقله — فيها بنو البحث أهداهم به النظر

* * *

ففتشوا الكتب تلقوا كنز معرفة — أهدا كموه الأساطين الالى غيروا
هاكم بنى الغرب أهدوها عنايتهم — وقد هدوا بهداها اذهم افتكروا

لسانكم عرفوه حين أعوزهم أن يفهموها ففاقوافيه واشتهروا
واخجلتاه بقيتم فيه دونهمو فكيف يسعفكم بالحكمة القدر

هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصرى المتوفى سنة 360 هجرية وقد رود رأيه عن ذلك فى كتابه (الحيوان)

* * *

(العلم)

ما الشمس عند ضياء العلم والقمر العلم عين وأما غيره أثر
هما به عرفا لا من ضيائهما والعلم يدرك ما لا يدرك النظر
لذى وذاك طريق لا يغادره إلى سواه ومجهول له السفر
والعلم لم تحص عن عد طرائقه وليس عقبى له تخفى ولا سور
هما لدى الفلك الأعلى على دأب وعنده بهما بين الملا خبر
والعلم يعلم أن الكل منفعل لفاعل بيديه الأمر والقدر
يدرى العوالم طراً مادوناو نأى وما بها من برايا ليس تنحصر
هم فى الفضاء وكل تحت سيطرة ساعون فى الفلك الأعلى كما أمروا
والعلم لولاه لم تعرف مناهجها ولم يبن للنهى ما منه تنبهر
والعلم فى العالم الادنى به اطلعت فى ساحة العالم الأعلى له فكر
دلته أن سفين الخلق سائرة بهم إلى غير ما هم منه قد فطروا

* * *

تخالفوا وطريق الحق واحدة وسخر وللهدى لكنهم سخروا
لو صالحوا العلم لا نقادوا لما خلقوا له مع الرشد ما ضلوا وما خسروا
لكنهم خاصموه فاستذلهمو جهل هو البغض والتفريق والضرر
وكلما لمحتهم منه بارقة تكثروا من ضروب الجهل وادخروا
واستعملوا نوره فى حوز مخترع يفنى الانام ولا يبقى ولا يذر
الله فيهم فلم يخشوا أوامره وليس منهم بأمر الله مؤتمر

اللّه فيهم فقد تهدى شرائعه ... إلى اتحاد ولكن منه قد نفروا
فاولوها بأوهام تطيش بها ... أحلامهم ثم عن مدلولها اندحروا
فالبهم تسرح تهديها غرائزها ... إلى طرائق عنها قد نأى البشر
بل العوالم طراً للذى خلقت ... له تسير ولا يبدو لها ضجر
الا ابن حواء لم يصدع بما سمعت ... اذناه فالوعظ لا يهديه والنذر

* * *

قلَم بأن البرايا سخرت لكمو ... وانها لمجالى نفعكم وطر
وانكم نسخة من مثل عالمه ... الأعلى اليكم كمال الكون يفتقر
وأنكم قد أحطتم بالوجود دوما ... يحويه علماً وهذا منكم هذر
العلم للّه ما تدرون منه سوى صفر ... وقد غابت الأرقام والصور

* * *

الوقت والعمل

يا أسير الحياة يهوى الدعاره ... من يود الفساد قد ود عاره
تاجر أنت رأس مالك عمر ... وصنيع اليدين صنف التجارة
لا تكن مثل تاجر يترامى ... بغية الكسب فى مهاوى الخسارة
بل تبصر مع التدبر واعمل ... بتأن يكن لنجحك شاره
إنما الشغل لو تفكرت كنز ... وهى داعى التمدين أس العماره
ومن العقل أن تحاسب نفسا ... عن فنا العمر سالكا أدواره
ربما يستطيع فاقد مال ... رده دون أن يرد نهاره
هل رأيت امرءا رقى للمعالى ... دون سعى وشاد فيها دياره
أو ترى فى عوالم اللّه شيئاً ... مخلداً للسكون يبغى قراره
أم ترى الكل مستمراً على الدأب ... بحسن السلوك يقفو مداره
فاصرف العمر منك فى عمل ينفع ... واصنع خيراً وأبغ ادخاره
إنما العمر ينتهى ككتاب ... أنت تقراه راغباً اخباره
فحروف تتلى بها كلمات ... وسطور إلى تمام العباره

مثلما تنهب الدقائق والساعات — عات منا بطالة ودعاره
فقضاء الاعمار دون اشتغال — بمفيد الاعمال عين الخساره
مثل أنفاسنا الدقائق تمضى — وهى أجزاء عمرنا المختارة
نفس واحد يضيع هباء — خطر غير مدرك وغرارة
إنما الوقت فى الحقيقة روح — حفظها واجب بأقصى المهارة
يا ابن حواء هؤلاء بنوها — فاشتغل للاخاء واحفظ شعاره
فجدير أن يعمل الكل للكل — ويغدو نفع الجميع فخاره
وامرؤ لا يفيد فرداً سواه — حيوان يود منا احتقاره
يذهب المرء والمنافع تبقى — يذكر الناس بعده آثاره

(رجاء)

(رفع إلى سمو خديوى مصر العظيم)

" منى وأنا أحد رعاياه المخلصين (منذ كنت فى روسيا) "

أيا ملكا يحمى الملا تحت ظله — بماضى حسام من نهاه وعدله
لكل امرئ مرآة حال وانها — لاعماله يبدو بها قدر عقله
يرى الناس فيها ما أكن ضميره — وان حاول الكتمان تمويه قوله
فباطن كنه المرء تهدى لكشفه — دلائل قد تجلى بظاهر فعله
وكم رجل يختال فى غير ثوبه — ولولا يداه لاغترنا بدله

وكم رجل جلت نياشين صدره — عن العد لكن ما أبانت لفضله
ومن كان انساناً بحق وفت لنا — يداه بانسان نباهى بمثله
فان امر ألم يحى من روض غرسه — رجال فكل الناس فى مثل شكله
وما ميزته عن سواه فضيلة — فنغطى لها لما نرى جر ذيله
وما خلد التاريخ ذكراً لمن مضى — بغير صنيع دل عن كنه أصلة
فإن كان خيراً كان أدعى لذكره — بخير وإلا دام ترداد عذله
وشتان بين اثنين حقر واحد — بذكراه واعتز الا خير بنبله

* * *

أمولاى إنى من رعاياك ههنا ... أفاخر من حولى بمصر وأهله
أفاخر بالمولى العزيز مردداً ... لعلياه ما يفنى الثنا لأقله
ويقصر طول الدهر عن حصر بعضما ... تولى الرعايا من مكارم طوله
وأعيا أولى التاريخ ما عددوا له ... وقد آد أسفاراً لهم بدء نقله
فقد منح الاهلين أكبر نعمة ... سيودعها التاريخ بطن سجله
بأن ولى العهد يرأس لجنة اكتتاب ... فيا نعمى رئاسة نجله
لننشى لنا كلية نعتلى بها ... ونجلس فى نادى العلا بين أهله

* * *

فأضحكهم فخرى بهذا وقيل لى ... ظنناه أولا كم بذا القصد كله
فعدت إلى ذكرى مآثر جدكم ... فقالوا وهل وافى بفعل كفعله

* * *

فبالله يا مولاى عطفاً فإننا ... عبيدك واحى القطر من سوء محله
واحلل لنا من عقدة الأمر ينفتح ... بكم بابه والصعب يضحى كسهله
أنل ذلك المشروع من فيض فضلك ... جزيل ومن تدبير حزمك أوله
ودم راقياً أوج الأريكة ظافراً ... أيا ملكا يحمى الملا تحت ظله

وقد بارحت مدينة «بطرسبورج» فى شهر مايو سنة 1907 . حينما علمت ممن أثق بهم من كبار أخوانى هناك عزم الحكومة على إبطال جريدة « التلميذ» العربية ، وجريدة « الفت » التركية . فطالبت صاحب تينك الجريدتين (عبد الرشيد ابراهيموف أفندى) بما تأخر عنده من مرتبى وتحصلت على بعضه بعد العناء الشديد بمساعدة حضرة العالم الفاضل (عطا الله أفندى) صاحب جريدة "نور والمعلم" بالمدرسة الكلية القيصرية ، وحضرة ولده (محمد صفا أفندى) . وبعد ذلك توجهت إلى تونس للأسباب التى أشرحها فى الرسالة التالية ، وإنى قبل الختام اثنى على جميع من ذكرتهم برحلتى هذه ، واستلفت القراء وجمهور أخوانى المصريين إلى ما سينشر فى الرسالة التالية فإن فيها ما يهم كل مسلم على الخصوص ، وكل مصرى على العموم . والله سبحانه وتعالى أسأل أن يوفقنا لما فيه الخير والفلاح إنه سميع مجيب .

تم طبع هذ الرسالة بمطبعة التقدم الكائنة
بشارع "محمد على" بمصر - القاهرة .
فى اليوم الثانى عشر من شهر رمضان
المعظم من عام 1326
هجرية على صاحبها
أفضل التسليم
والتحية .



لسموّ الأمير محمد علي باشا البرنس
شقيق الحضرة الفخيمة الخديوية
حفظهما الله تعالى
آمين

المطبعة الأميرية بمصر

١٩١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الآمر بالسير والنظر، المعين في الحضر والسفر، والصلاة والسلام على سيد المرسلين المنزل عليه الكتاب المبين : ‹‹قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين›› ، وعلى آله وأصحابه الذين أكثروا الأسفار ودوَنوا الأخبار ومصروا الأمصار، في سالف الأعصار (بعد) فإن الله جلت قدرته وتعالت عظمته قد خلق الأرض وقدر فيها أقواتها، وأوجد الأمم وحبَب إلى كل أمة عوائدها وأخلاقها، ورغبها في جوَها و مهادها، ولغتها وبلادها، وجعل الناس مختلفى الأشكال والطباع . كمان خالف بين ما وجدوا فيها من البقاع ، ولكنهم مهما اختلفوا في المشارب وتفرقوا في الملل والمذاهب. فإن رابطة الإنسانية تجمعهم والأبوة الآدمية تقربهم وتشملهم والمزاحمة في طلب الأرزاق هي التي يتسبب عنها ما بينهم من الخلاف أو الوفاق . فحب الاختصاص يفرَقهم وضرورة المساعدة تجمعهم لأن كل فريق من سكان الأرض يحتاج بعضه إلى بعض كما قيل :

النّاسُ للناسِ من بدوٍ و حضارةٍ　　　بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروُا خدمُ

ولكن لما كان حب الأوطان طبيعة مفطوراً عليها الإنسان وجب على العاقل أن يطوف في بلاد الله ما استطاع ، ويرى كثيراً من الأمكنة و البقاع ، و يعرف ما لكل من العوائد التي يترتب عليها جزيل الفوائد، وإذا رأى أن جهة من الجهات أكثر ثروة وأعظم منْ أمته قوَة بحث في أسباب ذلك بحث المدقق الخبير وعرفه معرفة الناقد البصير . حتى إذا عاد إلى وطنه عرف ذلك إلى أهل وطنه وإذا رأى أمة مضمحلاً حالها كاسفا بالها ، عرف أسباب ذلك الكساد ، وما يترتب عليه من مضرات العباد ، وحذر من ذلك أهل بلاده بقدر استطاعته ومبلغ اجتهاده ، ويكون إذا أخبر بشيء مخبرا عن مشاهدة وعيان لا عن تخمين وحسبان فيحصل بذلك على الفوائد الجليلة، ومزايا جزيلة. أهمهما منفعة وطنه الذي فيه رُبيَ وببحبُوحة فضله حُبيَ ، والفوز برضا الله ومزيد ثوابه بنفعه البلاد وخدمته للعباد ، وأحب عباد الله إلى الله أنفعهم لعباده ، وزيادة علمه واتعاظه بأحوال الناس وتباين طباعهم وأخلاقهم، وإطلاعها إلى كثير من الأسرار الإلهية المكنونة والقوانين المدبرة المصونة التي دبر الله بها شؤون المخلوقات ، وأحكم بها نظام الكائنات . فمن وقف على سر صنع الخالق زاد في تعظيمه ، وعكف على إجلاله وتكريمه ، وتقرب إليه بامتثال أوامره ونواهيه ، واعتصم بحبل حب ومراضيه . إذ كلما انكشف الغطاء ، وجلا نور العلم غياهب الظلماء ، انكشفت أسرار الأشياء فيزيد الإنسان في تعظيم مودعها ، و يجتهد في التقرب إلى مبدعها ومن سافر ، واطلع على غير بلاده كان كمن عاش زيادة على عمره ، وشهد عصره وغير عصره لأنه عليم بالمشاهدة والأسفار أضعاف ما يمكن أن يعلمه بالإقامة ، ومطالعة الأخبار، وذلك علمه بالمشاهدة والنظر، وهذا علمه بالسماع والخبر إلى غير ذلك من الفوائد التي لا تحصى ، ولا

يمكن حصرها ولا تستقصى، ولا يخفى عن ذوي الألباب كثر مما وقع للأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين، والعلماء والعظماء والصالحين من التنقل والأسفار للقرى والأمصار، وما جاء في الكتاب العزيز ووردت به الأخبار من الحث على السير في الأرض للنظر والاعتبار.

ولما كان لا يمكن كل واحد من الناس أن يسير في الأرض ويتجوّل في طولها وعرضها لموانع تمنعه من الأسفار، وبواعث تلزمه بعدم مبارحة الديار نصب كثير من الفضلاء أنفسهم للسير في البلاد لمقاصد جليلة أهمها منفعة العباد، ودوّنوا الرحل المفقدة في الجهات العديدة ، فمن طالعها فكأنما شاهد ما شهدوه من المشاهد، وأطلع على ما رأوه من الآثار والمعاهد ولذلك قد رأيت أن أقيد رحلتي إلى اليابان ليطلع عليها كل إنسان خدمة للإنسانية أؤدّيها، وهدية للمسترشدين من بنيِ الأوطان أهديها، وأسأل الله دوام التوفيق والهداية لأقوم طريق.

مبدأ السفر

إني كُنتُ قد عزمت على السفر إلى بلاد اليابان من مدة . وكان العزم على الارتحال إليها في الوقت المناسب . لذلك قبل هطلان الأمطار بها ، و كان هذا يستدعى أن يكون السفر إليها في أول شهر مايو ، ولكن لما حصلت الحوادث التي حصلت باسلامبول كان ذلك باعثاً على التأخير، ولم نتمكن من السفر إلا في أول شهر أبريل فنزلنا من الإسكندرية متوكلين على الله تعالى ، وركبنا متن البحر في الباخرة النمساوية المسماة (الليد) فأخذت تشق بنا عباب البحر حتى وصلنها بحفظ الله تعاليِ وحسن رعايته إلى (تيريستا) بعد ثلاثة أيام ونصف يوم ، ومنها قد ركبنا وابور البر ليلاً و لم نزل سائرين حتى وصلنا صباحا إلى (فينا) عاصمة النمسا ، وقد مكثنا بها يومين لأجل أخذ التذاكر اللازمة لنا ، والتوصية على حفظ أماكننا بواسطة شركة كوك ، وبعد إقامتنا مدة هذين اليومين، وحصولنا على الغرض المقصود من الإقامة بها قد برحناها ليلا متوجهين إلى بلاد الروسيا ، وبعد مضي يوم وليلتين من سفرنا هذا قد وصلنا إلى مدينة (موسكو). وكان ذلك قبل قيام (الترنسيبريان) وابور سكة الحديد السيبرى.

ولم نرد أن نتكلم على هذه الطريق لكونها معروفة بين الأنام مطروقة للخاص والعام، وقد جعلنا مبدأ الكلام في رحلتنا هذه من بعد الوصول إلى «موسكو» ببلاد الروس، و في الساعة العاشرة الإفرنجية ليلاً قد حملت عربة الفندق أمتعتنا إلى (اركتسك) بموسكو. التي بينها وبين الفندق عشرون دقيقة بالعربة ، وقد توجهنا إليها بعد ذلك أيضاً . وكانت هذه الليلة ممطرة مطراً شديداً ، ولما وصلنا إلى المحطة وجدناها في غاية من الازدحام ، وجدنا الترجمان الذي كان ملازماً في موسكو في انتظارنا ، وبمجرد وصولنا إلى القاطرة توجهنا سريعاً لتفقد أماكننا التي وصينا عليها لنعلم إن كانت محفوظة لنا أم لا . فرأينا أن خدام القطار لكثرة أسئلة الناس لهم وشدة اشتغالهم بأعمالهم مع الازدحام الكثير لا يكادون يتمالكون الرد على أحد من السائلين . فلما رأيت ذلك اضطررت للتكلم مع

ناظر المحطة، و شاب تابع لشركة عربات النوم ، فأجابا إلى ذلك بكل أدب واحترام ولطف وابتسام، وساعدانا على ذلك فاهتدينا إليها بدون دنى تعب ولا مشقة بعد ما كانت بعدت علينا في معرفتها الشقة ، وجدنا أن عربات النوم الموجودة بهذا القطار كسائر عربات النوم التابعة لهذه الشركة بأوروبا . ولا تفترق عنها إلا بالاستضاءة والأنوار الكهربائية فإن في عربة منها بطريات كهربائية تضئ سائر العربات ، وفي كل عربة خادم كالعادة، ولكنه يحشن التكلم مع الركاب باللغة (الفرنسية و الانجليزية والألمانية) ، وقد تحرك القطار من هذه المحطة الساعة الحادية عشر ونصفاً على حساب ساعة (سمترسبرج) الموافقة للساعة الثانية عشرة ببلاد المسكوف ، وحيث أن هذا هو المبدأ الحقيقي للسفر الطويل الذي قد عزمنا عليه. فقد توكلنا عليه تعالى . والتجأنا إليه أن يلحظنا بعين عنايته ، ويكلأنا بالليل والنهار بحسن رعايته ، ويمدنا بروح منه حتى نقوى على تحمل مشاق السفر ، ونأمن من غوائل الخطر .

ثم لمَّا كانت عادتي أن أنام في أوائل الليل توجهت إلى المحل الذي أعدَ ليَ ، ودخلته ونمت فيه طالباً من الله أن يحرسني بعينه التي لا تنام مَتيمَنا قوله صلى الله عليه و سلم: «باسمك ربي وضعت جنبي و بك أرفعه» ، وقضيت ليلتي هذه بحمد الله على أحسن حال، وأجمل مثال ، ولما أصبح الصباح توجهت إلى المحل المعد للماء فلم أجد به ماء فاضطرتني الحالة للبحث عنه، ولم أزل كذلك حتى اهتديت إليه وأجريت ما هو لازم من وضوء وغسل، وليست ملابسي وصليت ثم توجهت إلى عربة الأكل فوجدتها كسائر عربات الأكل المعروفة . ممتعاً النظر برؤية المزارع المجاورة للسكة الحديدة يمينا وشمالاً . فوجدتها أحسن من المزارع التي رأيتها بقرب (موسكو) بكثير . وكان يلوح ليَ أن الزرَاع رجال يحبون العمل ، ولا يميلون إلى البطالة والكسل، وهم يتولون أمر زراعتهم بأنفسهم ولا يشركون معهم نساءهم في أمرها أو يتركونها لهم كما هو شأن كثير من الجهات ، وأن الأراضي بهذه الجهة مستوية صالحة للزراعة جيدة التربة خالية من الغابات والمستنقعات. فضلاً عن كون الأشغال العملية تكسبها قوة وتزيدها استعداداً . ثم إني أخبرتُ أن الوابور به ثمانون سائحاً مختلفو الأجناس وأغلبهم قاصد «الصين أو اليابان» ، وكان بالقطار أحد المفتشين فلما أخبر بعدم وجود الماء ببعض محاله نبه على إصلاح مواسير المياه حتى صار الماء موجودا بجميع مواضعه ، فسررت بذلك حيث إن وجود الماء قريباً منا يسهل لنا تناوله بدون مشقة في جميع الاحتياجات التي تدعو إليه .

وبعد الظهر من هذا اليوم قد تقابلنا مع الوابور (الترنس سبريان) إلى أعلى درجات التقدم والحضارة, وتكون جديرة بالعظمة والإمارة وفي الساعة الحادية عشرة قبل ظهر ذلك اليوم قد مررنا مزَارع واسعة جرت العادة أن يكون في مثلها كثير من أنواع الماشية ، ولكن لم يكن فيها سوى الخيل .

وقبيل الساعة الثانية عشرة قد وصلنا إلى محطة (ياكوبووا) ولما وصلنا إليها رأينا بهذه البلدة جامعين إسلاميين ، وهذان الجامعان يدلان دلالة واضحة على أن أننا قد دخلنا بلاد التتار، ولم يمض على ذلك مدة إلا وقد رأينا كثيراً منهم فتحققنا من ذلك ، وسررنا سروراً كثيراً لما رأينا أراضيهم مشغولة بالزراعة ومخدومة خدمة جيدة تدل على أن لهم دراية

وعناية بالزراعة ، وإن عندهم نشاطاً و محبة للعمل ، وكراهة للتقاعد والكسل ، وقبل غروب الشمس قد وصلنا إلى (أوفة) وهي بلدة كبيرة موضوعة على تل مرتفع ، وتحت هذا التل نهر متفرع من نهر (أورال) . وللوصول إليها قد اضطرتنا الحالة إلى المرور على كبرى كبير . وبعد المرور عليه قد وجدنا معامل كثيرة ومصانع شتى مكتوبا عليها أسماؤها بحروف عربية . وكان الوقوف في هذه المحطة نصف ساعة وفي أثنائها قد اشترينا أوراق بريد عليها مناظر جميلة ، ووقت الغروب كان المنظر جميلاً جداً يحار في وصفه الكتاب ويدهش من حسنه الألباب ، ويا حبذا لو وجد شاعر ماهر ووصف تلك المناظر ، وذلك لأن البحر قد حصل فيه مدّ حتى دخل فيه كثير من الأشجار والأعشاب التي كان لظلالها شكل على الماء في غاية من حسن الروعة ، وانعكاس احمرار الشفق وزرقة السحاب يكسبان لون البحر طلاوة ، ويزيدانه بهجة وحلاوة ، فكأن ذلك المنظر من أحسن ما يشرح الخاطر و يقربه الناظر، وبجوار هذه البلاد غابات كثيرة ومروج شهيرة .

وقبل زوال الشفق ودخول الظلام قد رأيت لأول مرة إبلاً من إبلهم فوجدتها لا تختلف عن الإبل العربية إلا بطول وبرها وكونها «ذات سنامين» ، وقد عوّدوا هذه الإبل على جر عربات الحمل المثقلة ، ولا يحملون على ظهورها كالعادات العربية ، والذي سهل لهم هذا هو اعتدال الطرق واستواؤها بخلافها في بلاد العرب لكثرة صخورها وتلالها ، ونجودها ووهادها ، وذلك امتن الله بها فقال : (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) وهذه الجهات فيها بلاد كثيرة وقرى متقاربة ، ولذلك يكثر فيها السكان في كل مكان، وفي هذه البلاد مساجد كثيرة أيضا تشبه مساجد تركية غير أن الجزء الأعلى من مناراتها مصنوع من النحاس المطلي بالذهب ، وينتهي من أعلاه بهلال كذلك ، ولذلك يرى بريقها من مسافة شاسعة وفي هذا اليوم قد مررنا على جملة قطارات مملوءة من المهاجرين إلى سبريا «سيبيريا» .

وفي اليوم التالي لذلك اليوم قد استمر الهواء معتدلا وبقيت السماء صحوة وغاية الأمر أن البرد قد اشتد قبيل الفجر ، ولكن بمجرد طلوع الشمس صار الهواء في غاية الاعتدال ، وكسيت المناظر أبهى حلل الجمال ، وصار القطار يمر بنا مر السحاب ، وكم مررنا على مناظر جميلة تدهش بحسنها الألباب ، و في أثناء سيرنا كنا نمر أيضاً على بلاد كثيرة بوسط غابات غزيرة ، وهي موضوعة فوق تلال مرتفعة وأكمات مجتمعة تسر النفس من حسن رؤيتها وتبهج القلب بجميل بهجتها و هذه البلاد تشبه بلاد سويسرا لما اكتست من حلل الجمال الطبيعية والحالة البديعة الوضعية. إلا أنه يظهر عليها أنها وإن كانت في الصيف ممتعة بجودة الهواء، وعذوبة الماء، ونضرة الأشجار، وأرج الأزهار ، فإنها لابد وأن تكون في الشتاء كثيرة البرد والثلج صعبة المعيشة ، ويكون أهلها في غاية من الضنك والضيق ، لا يملكون ما يقوم بضرورياتهم ويكفى لاحتياجاتهم ، وبعد الظهر قد مررنا على بلاد في أرض مستوية وبها بعض مستنقعات ومزارع كثيرة وسرنا بجوارها مدة كبيرة ، وقد مررنا على كثير من المحطات الصغيرة ورأينا جملة قطارات تحمل كثيرا من المهاجرين .

وهؤلاء المهاجرين وإن كانت حالتهم يظهر عليها الفقر والفاقة إلا أنهم لا يكترثون بما

هم فيه بل يظهرون الفرح والسرور ، والبشر والحبور ، ويظهر ذلك من ملاعبتهم لأولادهم وملاطفتهم لنسائهم ، وفضلا عن ذلك فإنك تراهم عند وقوف القطار في أى محطة مشغولين باللهو والطرب .

وفي الساعة العاشرة صباحاً وصلنا إلى محطة (صليابس) وقد مرّ بنا قطار كبير مملوء بالمهاجرين ، وكان معهم "حرس من العساكر" لأجل الحفظ ومنع ما عساه أن يقع منهم، وقد أردت أن آخذ صورهم فأخبرت أن ذلك ممنوع في بلاد سيبيريا .

وفي الساعة السادسة بعد الظهر من ذلك اليوم قد وصلنا إلى (جورجان) . وهي بلدة كبيرة ولكنها أصغر من (أوفا) وهي واقعة في أرض مستوية ليس بها غابات ولا تلال .

وفي اليوم التالي لذلك اليوم وصلنا إلى (اومسك) وكان ذلك اليوم شديد البرد . وقد انضم لقطارنا بهذه المحطة عربة صالون لخدمة دولة الغراندوق (قونستانتان) . وكان معه جنرالان وأميرالاى . وجملة من الضباط المستخدمين بحكومة "سيبيريا" الذين كانوا يلازمون لآخر مراكزهم، و كانت المحطة مزدحمة إزدحاماً كثيراً ، وقد وافق ذلك اليوم) يوم الأحد (الذي يتفرغ فيه الناس من أعمالهم ويستعدون للتنزه والتفسح ، وبوصولنا إلى هذه المحطة وجدنا العساكر قد أحاطوا بالقطار من كل جانب للمحافظة ، ومنع الناس عن كثر الازدحام تجاه القطار مخافة حصول أي أمر كان ، وكانت عساكر (الجندرمة) في غاية من حسن الهيئة و تمام النظام، و لما رأى ذلك دولة (الغراندوق) نزل من القطار وتمشى على رصيف المحطة مظهرا السرور والبشاشة للوافدين ، وقابلهم بكل احترام وهو قوي الشبه بالعائلة (الملوكية الروسية) طويل القامة ، نحيف الجسم ، طويل الأنف كسائر عائلة (رومانوف) . ثم ركب القطار وسرنا بعد أن حيته الجماهير بالتحية اللائقة به . والدعاء ببقائه . كنا نمرّ في هذا اليوم على بلاد قليلة السكان ، وأغلب أراضيها مستنقعات على قدر مد البصر ، وفيها كثير من الطيور المائية المغرّدة التي تطرب المسامع وتشجي بحس صوتها السامع .

وبعد ظهر ذلك اليوم قد ابتدأ ظهور الغابات الكبيرة ولكنها متأثرة من شدة البرد . وفي أراضي هذه الجهة أيضاً كثير من الأعشاب الطبيعية التي لا تمكن أهلها من الزراعة مع وجودها ولكثرتها لا يمكنهم تنقيتها منها ، ولذلك يحرقونها لأجل خلو الأرض منها وجعلها صالحة للزراعة ، وأهالي هذه الجهة يلبسون على (رؤوسهم قبعات من الفرو) إلا أنهم يجعلونها كبيرة جدا لتقيهم من شدة البرد .

وعند الغروب قد وصلنا إلى (نيكولا يسفك) وهي بلدة كبيرة موضوعة على شاطئ نهر كأغلب بلاد "سيبيريا" وهذا النهر واسع يشبه في سعته نهر النيل بجوار قصر النيل وفيه كثير من المراكب الشراعية ، والبواخر البحرية وقبل الوصول إليها قد مررنا على كبري موصول لها . ولمّا وصلنا إليها رأينا كثيراً من المستخدمين ، وأعاظم طبقات الناس في انتظار (الغراندوق) والكل يظهر عليه علامات الفرح والسرور ، وقد علمت أنه محبوب لديهم كثيراً أكثر من سواه وذلك لإخلاصه في خدمة أمته وسهره على منفعة بلاده ورأفته بهم وإحسانه إليهم ، وهكذا جرت عادة الله في خلقه أن الإحسان يستعبد به الإنسان كما قيل

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم　　فلطالما استعبد الإنسان إحسان

وكان يرافق القطار (قومندان المركز العسكري) وأحد مفتشي السكة الحديدة . وفي اليوم التالي كان البرد شديداً والهواء كثيراً ، وقد صحب هذا الهواء قليل من المطر وقد ابتدأت هذه الحالة من "نيكولاي يفسك" لما دخلنا وسط الغابات الكبيرة ، وقد أخذ الجو في الاعتدال والمطر في القلة إلى أن تلاشى وصفاً الوقت وانكشف السحاب في الساعة العاشرة . وكان المنظر جميلا بالنسبة لبقاء الثلج المفكر بالشتاء ، ووجود أشجار كثيرة من أنواع مختلفة ، ولم نزل سائرين في غابات كبيرة ، وبعد الظهر قد تأملت فوجدت القطار يسير صاعداً في مرتفع من الأرض ولذلك كان سيره في ـ غاية البطء ـ حتى إن الراجل ربما يمكنه أن يسير معه ، وقد شاهدت (تجار الأعشاب) يقطعونه بالطرق القديمة المعروفة ، و يحملونها على عربات متخذة من أعواد الخشب تزحلق على الأرض اللينة بدون عجل يجرها حصان أصغر من الخيل العربية ، وشعر ذيول هذه الخيل ومعرفتها وغرتها طويلة جداً .

وبعد الظهر من هذا اليوم صار الهواء معتدلاً والجو صافياً وسار القطار كأنه يسير بنا في لجج من الماء ، وذلك من كثرة الثلج الذي تذيبه حرارة الشمس فيعود ماء . وفي الساعة السادسة ليلاً قد وصلنا إلى (كراسنيوارسك) . ولما وصلنا إليها رأينا المدير وكبار المستخدمين ينتظرون بالملابس الرسمية ، والازدحام شديد من كثرة الوافدين من الأهالي ، وغيرهم لرؤية (الغرندوق) وهذه المديرية لها مدير يحكم على البلاد الموجودة على شواطئ نهر "شيانشان" ، وهي تساوي حكومة فرنسا ثلاث مرات في أراضيها لا في سكانها ، وهذا النهر أكبر من النهر السابق وأوسع منه وأما الكوبري فإنه كان جاريا فيه العمل ولم يتم نظامه ولذلك كان المرور عليه بتكلف وكان في هذا النهر كثير من الاوز البرى الذي ليس مملوكا لأحد ، و في اليوم السادس قد تراكم المطر ، واشتد الهواء و البرد ، وكان سيرنا في غابات كثيرة و أشجار كبيرة ، وكانت هذه الأشجار على عظمها مجردة من الأوراق يظهر عليها التأثير من شدة البرد، وكما نرى كثيراً من هذه الأشجار محترقاً ، وقد سألنا عن السبب الذي أوقع هذه الأشجار في العطب ، وكيف وصل إليها هذا الحريق ؟ فأخبرنا أحد السائحين أن هذا الحريق يحصل من تطاير الشرر أثناء سير القطار مع يبوسة الشجر و شدة حرّ الصيف فتصير محترقة كما ترى .

فإنه عند شبوب النار بهذه الأشجار لا يطفئها أحد لبعدها عن البلاد ، و قلة وجود المارّ عليها فكانت هذه الحالة مؤثرة حيث أن هذه الأشجار الجميلة معرضة لهذه الآفات الكثيرة ، فالذي ينجو من الثلج يحترق بالنار ، والذي ينجو من الثلج لا ينجو من قطع التجار ، وبعد الظهر قدَ مررنا على أناس يشتغلون بعمل سكك وقناطر لأن أراضيهم فيها كثير من المعادن ، وقدَ أخبرنا أحد السائحين الذين كانوا معنا أن حالة هؤلاء الناس أحسن من فقراء المهاجرين الذين يتوجهون كل سنة إلى "أمريكا" ، وقد دخلنا إلى النوم في أول الليل بالنسبة لكوننا عازمين على القيام في الساعة الرابعة صباحاً لأجل تغير القطار في (اركتسك) عاصمة سيبيريا ولذلك قد حصل لنا أرق شديد ناتج عن اشتغال الفكر

بالساعة التي يحصل فيها التغيير ، ولذلك كان النوم بالملابس المعتادة لأجل عدم العناء في الصباح في تغييرها ، وقبل الوصول إلى اركتسك قد رأيتُ "قسيساً" في محطة صغيرة بملابسه الرسمية وبيده صليب وصار يحي (الغراندوق) بهذا الصليب ، وقد وصلنا بعد ذلك إلى محطة (اركتسك) فوجدناها محطة جميلة مبنية بالأحجار , ولما وصلنا إليها وجدناها مزينة بالبيارق وغيرها من أنواع الزينة ومزدحمة ازدحاماً كثيراً . وكانت العساكر مصطفة تضرب بالموسيقى . وذلك ليس لقدوم الدوق فقط . بل إن هذا اليوم قد وافق يوم ميلاد وليّ عهد الروسيا أيضاً . فكان السرور مزدحماً والفرح عاماً . وكان منظر هذه المحطة في غاية من البهجة و الجمال و العظمة و الجلال . خصوصاً لانحصار هذه البلدة في وسط جبال عالية مكتسية بأشجار كثيرة، ونباتات طبيعية ذات بهجة . ولم يزل الثلج موجوداً فوق رؤوس هذه الجبال . وهذا الثلج عند ذوبانه يتكون منه عدة أنهار تحيط بالبلدة وتزيدها حُسناً وجمالاً ، وبهجة وكمالاً . وهذه البلدة أعظم بلاد سيبريا ، وبها آثار جميلة ، ومناظر كثيرة . وقد صار التغيير من قطر إلى آخر منتظراً بالمحطة ، وذلك لأن حكومة الروس لا تأذن لشركة عربات النوم بالاستمرار في السير أكثر من أحد عشر يوماً. ولذلك قد اضطرتنا الحالة لهذا التغيير . وبعد الخروج من هذه المحطة قد مَرَرنا على كوبرى من الحديد موضوع في آخر بحيرة بيكال . وكان المنظر حسناً بالنسبة لوجود عدة جزائر صغيرة كثيرة بها أعشاب طبيعية تكسب البحر رونقاً وجمالاً .

ومما رأيناه جديراً بالعناية بالذكر إننا مع كوننا كنا في شهر مايو كانت بحيرة (بيكال) كلها مثلجة كأنها قطعة واحدة من الزجاج ، وكأنها مرآة للناظر ، وكان بداخلها وابوران محبوسان قد منعهما الثلج عن العبور وعاقهما عن المرور . فإن صيرورة هذه البحيرة العظيمة البالغ قدرها مثل (بحر مرمرة) ثلجاً وجعلها قطعة واحدة لدليل على قدرة الصانع جل و علا . وكان سفرنا بقية هذا اليوم ملازماً لشاطئ هذه البحيرة ، وكان الهواء جيداً . إلا أن الوابور كان يسير بنا سيراً بطيئاً فسألنا عن سبب ذلك فقيل لنا أنه خطر الطريق وأرونا وابوراً ملقى بجانب الطريق على الأرض . وعرفونا أن الأرض في هذه الجهة ليست صلبة ، وأن الجبل فوقها ، وكثيراً ما يقع منه بعض أحجار على السكة فينحدر القطار ، ويترتب عليه مثل هذه الأخطار ، وينتج عنه حوادث مثل هذه الحادثة التي مات فيها رجل وجرح سبعة ، ومع كون السير كان بطيئاً فإنه كان ينهار على الركاب رمل يثيره الهواء مثل الرمل الذي يثار على الركاب الراكبين بقطر السويس ، وبقدر ما كان الهواء بارداً في الصباح بقدر ما اشتد الحر بعد الظهر حتى صار بدرجة لا تقل عن الحر الذي يوجد بقطر مصر بهذا الأوان ، ثم أخذ الوابور يسير بنا في جهات خلوية ليس بها إلا أشجار, وبعد عشر ساعات من ملازمتنا لسواحل البحر سار بنا في أرض يابسة وغابات محترقة كالتي سبق الكلام عليها ، وفي هذا اليوم رأيت خادماً من خدام القطار من الصين وهو أول رجل قابلته من الشرق الأقصى ، وقبيل الساعة السادسة بعد الظهر قد مَرَرنا على كوبرى كبير جداً ورأينا بحافتيه غابات كثيرة ثم سرنا إلى أرض مائية و فيها كثير من الغابات وفيها خيام نحو الأربعين .

وكلها مرتبة ترتيباً عسكرياً ، ومحشودة بالعساكر . وبالسؤال عنها أخبرنا أن هؤلاء 45000 عسكري بفناء بلدة في حدود "منشوريا" من "المسكوف" وهذه البلدة تسمى

(اودتسك) وفيها محطة ، فلما وصلنا إليها رأينا التر يتساب الرسمية وتلاميذ المدارس ذكوراً وإناثاً ينتظرون (الغراندوق) من القطار وسلم على "الراهبات" بيده واظهر لهم البشر والعواطف ، وقد صار سيرنا بعد هذه المحطة نحو كيلومتر ، ونحن بحذاء خيام العساكر "البيادة والطوبجية" ، وكنا كلما مررنا على جهات فيها عساكر يهتفون بالدعاء إلى الدوق عند مرور القطار عليهم، وبقينا كذلك طول ليلنا وعند صباح اليوم السابع قد أصبح البرد شديداً كالعادة ، ولكنه ليس مصحوباً بمطر وفي الساعة الثامنة ونصف صباحاً قد وصلنا إلى "شيطه" وهي ثاني بلدة عسكرية بمنشوريا وفيها 8000 عسكري من "المسكوف" وفيهم "الكوذاك الدون" المشهورون بالشجاعة والتدبر والقوة الهائلة ، ويظهر على أجسامهم الضخامة وهم في غاية من حسن الهيئة وتمام النظام ، وكان وقوفنا في محطة صغيرة قريبة من محطة العاصمة ، وذلك لأن العساكر كانوا منتظرين الدوق بها .

وأراضى هذه الجهة مستوية إلا أنها قليلة المزارع ، كثيرة الكلأ والمراعي الطبيعية ، والسكك الحديدية بها منحنية تشبه أنصاف دوائر ، ولذلك قد فكرتنا هذه السكة بالسكك الحديدية التي بالرملى الشرقى المشابهة التامة بينهما .

وفي وقت الظهر قد تزايدت الحرارة ، ولما جاء وقت الأكل قد حضر دولة (الغراندوق) إلى حجرة الأكل العمومية . وأكل معنا بكل سرور وابتهاج ، ولم يظهر عليه ما يفيد أدنى تأفف ولا تكبر ، ولا ثقة ولا عظمة فعلمنا من ذلك أنه رجل وديع الأخلاق كامل الصفات يميل للتواضع والموادعة ، و يحب المجاملة والمصانعة . وبعد الظهر وصلنا إلى محطة (بورياتسكايا) ووجدنا فيها كثيراً من الصينيين بملابسهم العجيبة ما بين ذكر وأنثى، ومما رأيته جديراً بالاستغراب أنهم لابسون الفراء في شدة الحر ، ورأيت الفرسان منهم راكبين خيولهم بحالة لا بأس بها إلا أنهم يرفعون الركاب إلى أعلى حتى تصير ركبهم مقوسة وأرجلهم معوجة وأراضي بلادهم قليلة المزارع كثيرة الرمال والصخور . ولولا وجود الثلج لما وجد عندهم شئ من الكلأ والمراعي ، ولذلك يرى على جميع مواشيهم أنها في غاية الهزال والاضمحلال . وفي هذا اليوم قد رأيت بعض مراعيهم بعض جمال بيض والخيل كثيرة عندهم ، ولذلك يسوقونها للمراعي كما تساق الإبل ، وسروج خيلهم كالسروج العربية لها مسند من الأمام ومسند من الخلف ، ورأيت لهم تعودا على الركوب والنزول بغاية السرعة والراحة ، وخيولهم صغيرة الحجم وهي في غاية من الهدوء ويظهر عليها الهزال وعدم الراحة ، ولعل ذلك ناشئ من كثرة الأسفار عليها ، وعدم إعطائها من العلف ما يكفيها مع عدم الاعتناء بخدمتها ، ومن عوائدهم أنهم متى نزلوا عنها يربطونها في أسفل عمد مجعولة لذلك الغرض ، ورأيت الكثير منهم يركبها مسافة طويلة مع أن الظاهر عليها أن ظهورها يابسة يحصل منها للراكب على تعب كثير . ولكن بالنظر لكثرة تعودهم على ركوبها ربما تسهل هذه المتاعب والمشاق ، وفي هذه الصحراء الواسعة يوجد ملايين من الحيوان المعروف في أمريكا (بكلب الغيظ) ، وهو في الحقيقة نوع من أنواع الفار البري كبير الحجم يماثل حجمه حجم الثعلب ويداه أصغر من رجليه ، ويوجد أيضاً فيها كثير من الاوز على اختلاف أنوعه وأشكاله .

وعند الوصول إلى محطة صغيرة قد رأيت كثيراً من (النساء الصينيات) فوجدتهن يضفرن

شعورهن ضفيرتين طويلتين ويرسلنها إلى الأمام ، وأما رجالهم فأنهم يجعلون شعورهم جديلة واحدة ويرسلونها خلفهم ، و يجعلونها مسدولة على ظهورهم .

وعند منتصف الليل قد طلبوا منا (الباسبورتات) لكوننا خرجنا من حدود "الروسيا" و دخلنا "منشوريا" وهي تابعة للصين إلا أن السكك الحديدية الشمالية فيها تابعة للروسيا و محروسة بحرس منها .

وفي منتصف الساعة ـ الحادية عشرة صباحاً ـ وصلنا إلى محطة (يوكيدون) . ولما وصلنا إليها وجدناها مزدانة بزينة جميلة كالعادة . وكانت العساكر الموجودة للمقابلة من ألاى الأعمال الهندسية بالموسيقى ، و كان بهذه المحطة الجنرال المسكوفي المناط به العمل في منشوريا الشمالية ، كما أنه كان بكل محطة عشرون من عساكر (الجندرمة) لأجل الحراسة والحفظ، وهم يقيمون بمحل واحد محاط بسور مرتفع ، وفيه منافذ كثيرة للبنادق تشبه منافذ الخنادق ، وفي هذه الجهة قد أذن لنا أن نأخذ الصور الفتوغرافية التي نريد أخذها حيث أن هذا الأمر غير ممنوعا فيها لأنها غير تابعة للروسيا ، وقد جعل بهذه اللحظة استعراض للعساكر واصطفوا على جانبي السكة الحديدية حتى إذا قام القطار أخذوا يهتفون بالدعاء (للغراندوق) .

و كانت الأراضى بهذه الجهة قليلة المزارع كثيرة الجهات الرملية والحجرية ، إلا أن بعد مدة من الزمن وصلنا إلى أراض جميلة المناظر تكسوها الطبيعة بهجة وجمالاً ، و قد مرّ القطار "بخندق صغير" ، وهو أول خندق قابلناه في طريقنا هذا .

وأهالي هذه الجهة معتادون على الحمل على ظهورهم ، وقد وصلنا بعد ظهر هذا اليوم إلى بلدة صغيرة تسمى (سيسكار) . ولما وصلنا إليها رأينا الازدحام شديداً والوفود كثيرين ، ومن ضمن الوافدين رجل من عظماء الصين قد أرسل لمقابلة (الغراندوق) ، ومعه عشرون من العساكر الصينية لابسين ملابس تشبه ملابس العساكر اليابانية ، ولما شاهدتهم رأيت أنهم ليسوا متمرنين تمرناً تاماً واستخففت بهم . فقيل ليَ إنك لو رأيتهم في بلادهم لرأيت جنداً منتظماً وجيشاً قوياً, وملابس جميلة وأعجبك تمرنهم على جميع الأمور العسكرية, وقد مرّرنا على نهر يسمى (نونى) ـ وهذا النهر هو الذي فاض في العام الماضي فيضاناً كثيراً حتى أغرق أربعة وتسعين كيلومتراً عرضاً ـ وغرق في بلاد كثيرة . لكنها في هذا العام لما مرّرنا عليها وجدناها في غاية من البهجة والنظارة ، وفي الحادية عشرة ليلاً قد وصلنا إلى (خاربين) عاصمة منشوريا الشمالية ، وهي مركز الوالي المسكوفي ، ولما وصلنا إليها وجدناها مزينة تمام الزينة متأهبة لقدوم (الغراندوق) على حسب العادة ، وفي انتظاره كثير من الناس ، وبينهم ثلاثة من عظماء الصين لابسين حُلل زرقاء ، وعلى رؤوسهم قبعات من الخوص لكل قبعة حجر من الأحجار النفيسة ، وهذه الأحجار تدل على رتبة كل واحد منهم ، وفضلاً عن ذلك فإن هذه القبعات عليها كساء من شعر الخيل مصبوغ بألوان مختلفة على حسب اختلاف مراتبهم ، وفي هذه المحطة قد نزل السائحون اللذين يريدون الوصول إلى بلاد الصين لينتظروا ليلتهم ويركبوا بالقطار الذي يؤمُها صباحاً .

وفي آخر يوم قد أصبحنا في قطار بمحطة (انجو) ، والتي رأينا بها ألايا من الفرسان ، وآخر

من المشاة وثلاث بطريات ، وجميعهم في انتظار (الغراندوق) . وحيث أننا قربنا من اليابان فقد رأينا ثلاثاً من نسائهم وهذه أول مرة شاهدنا فيها نساءهم فوجدناهن غاية في حسن الشكل، و نظام الملابس ، وقد مررنا على جملة محطات صغيرة والذي تنبهت إليه أن عجائز نساء الصين ، و كذلك شيوخهم يشربون الدخان في عيدان طويلة كالتي كانت مستعملة من عهد غير بعيد في القطر المصري. كما أني رأيتهم يضعون الدخان في أكياس من الجلد كالعادة المصرية القديمة ، أيضاً وبقي الهواء طول ذلك اليوم في غاية الاعتدال والجودة . أن السحاب كان متراكماً حتى خفنا أن يعقبه المطر ، ولكن لم يحصل ذلك . وكنا نمر على جبال قليلة الارتفاع وأراضي زراعية مزينة بالزراعة وقبل مرورنا على بلاد (نوتستك) نتكلم على السكة الحديدية فنقول "إن هذه السكة لها إعلانات كثيرة تربرب الركاب ، وأن قطاراتها مشتملة على كل ما يلزم من الاحتياجات من عربات أكل وصالون ومعبد ومكتبة وحمام وغير ذلك مما يرغب المسافر ، ويجعله يعتقد تمام الاعتقاد أنها أوفى من السكة الحديدية الأوربية ، ولكن الحقيقة أن قطاراتها لا تزيد شيئاً عن قطارات النوم الموجودة بأوروبا . وأن هذه الإعلانات كلها ترغيبات يراد بها جلب المنفعة ليس إلا ، وأغرب من ذلك أن الوابور يوقد بالغاز أو الخشب أو الفحم ، وأنهم يجعلون الوقود مما رخص ثمنه وقلت قيمته ، من هذه الأشياء فعند المرور على بلاد يوجد فيها الغاز كثيراً يوقدونه به ، وعند المرور على الغابات الكثيرة والأشجار الكبيرة يجعلون وقوده من فحمها أو خشبها حتى لا تكلفهم هذه الوابورات شيئاً كثيراً في ذهابها وإيابها ، وبهذه السكة حرس (موسكوفي) ، وهو ضروري لها بالنسبة لكثرة وجود فريق من عصابات اللصوص يسمى (كونكوز) ينزلون على الركاب متى تمكنوا من ذلك ، ويزعجونهم بضرب البارود في وجوههم ، وغير ذلك من أنواع المخاوف التي تمكنهم من سلبهم ونهب ما معهم ، ولطالما يركبون مع الركاب في زي سواح حتى إذا سار القطار وهدأت الأفكار ووضع الراكب حمولة ، وأرخى الليل سدوله ، أخذوا يهددون الركاب ويعذبونهم بأنواع العذاب ويشهرون عليهم السلاح ، حتى إذا عجزوا عن المدافعة والكفاح سلبوا ما قدروا على سلبه ونهبوا ما تمكنوا من نهبه ، ولولا خوفهم من الحرس لكثرت أغاراتهم وقويت عصاباتهم ، ووجود هذا الحرس يشعر بأن الولاء على هذه الجهات للروس .

وفي محطة من المحطات الصغيرة قد نزل رجل من الركاب الذين كانوا معنا ، فرأيت كثير من مستخدمي الجمارك الصينية في انتظاره ، فسألت عنه فقيل لي إنه أحد رؤساء رجل الجمارك الصينية ، وأن أغلب أكابر مستخدميها من الأوربيين ، وهؤلاء الموظفون الصينيون الذين كانوا ينتظرونه ترا عليهم سمة الوقار وحسن الهيئة .

و بعد قيام القطار من هذه المحطة قد أخذ يسير بنا متدرجاً في الارتفاع في جهات مرتفعة حتى اضطروا لوضع ماكينة أخرى مساعدة لجر القطار حتى يتيسر المسير ويسهل العسير، وبعد قطع هذا المرتفع قد وصلنا إلى محطة (نيكولايفسك) فرأينا بها عساكر كثيرة ومعهم رايات وهم في انتظار (الغراندوق) فنزل من القطار فركب حصاناً من جياد الخيل كان قد أعدَ له ، و ذهب هو وحاشيته ومن معه إلى تلك البلدة ، وفي الساعة- الحادية عشرة - ليلاً قد وصلنا إلى (نوكوستك). ووجدناها منارة بالنور الكهربائي الكثير الذي يدل على أنها بلدة كبيرة لا قرية صغيرة ، ومن حسن الحظ قد وجد معنا (موسيوشفالي)

أحد مفتشي عربات النوم فإنه قد دلنا على وابور البحر الذي يوصلنا إلى اليابان بدون تعب، وقد أخبرنا أحد مستخدمي السكة الحديدية أنه يمكننا أن نبيت بوابور البحر ، ولو أنه يسافر صباحاً فأنشرح صدرنا لهذا الخبر ، وسررنا به سروراً كثيراً . فإنه كفانا كلفة التنقيب والبحث عن محل نبيت فيه مع ما هو حال علينا من تعب السفر فضلاً عن مشقة الذهاب والإياب .

ولما وصلنا إلى السفينة البخارية ، وجدناها صغيرة محدودة لحمولة ألف طولوناته ، وهي تابعة لكمبانية همبرج مؤجرة من الحكومة الروسية لأجل تسهيل السير بين الروسيا واليابان ، فركبنا فيها وقلنا: "بسم الله مجريها" . ولم نزل سائرين حتى وصلنا بسلامة الله تعلى إلى (فلاديفوستوك) . فحصل لنا في ذلك سرور إلا أنه لم يمكن تاماً لأن الهواء كان شديداً جداً ، وقبل الدخول إلى حجرة النوم مكثنا مدة مع مفتش عربات النوم نتحدث معه، وكان مدار الحديث بيننا فيما يلزم لنا عند رجوعنا من حفظ الأماكن وغير ذلك مما يكفل لنا الراحة ويسهل طريق العودة ، ولما سأل السمتخدمين عن وجود محال في العودة أخبروه أن جميع المحال مشغولة من أول شهر أبريل إلى أخر شهر سبتمبر ، فلم نسر لهذا الخبر الذي ترتب عليه أن نبقى ثلاثة شهور و نحن في بعد عن الأوطان ، وهذا مقدار عظيم من الزمان ، ولكنه لم يحصل ذلك . بل أنه بهمته وحسن عنايته أمكن والحمد لله أن تأخذ أماكن من الأماكن الاحتياطية في الوابور الراجع من خاربين في سبعة يوليو إلى أوروبا .

ولذلك اقتضت الضرورة بأن يكون مكثنا في بلاد اليابان مقيداً بهذه المدة ، وفي هذه الليلة قد حصل لى أرق كثير وتواردت عليّ خواطر شتى ، واشتغل الفكر ببعد المسافة التي بيني وبين وطني وتذكرت أهلي وجيراني وصحبي وخلاني ، وتخيلت أن كل فرد من أفراد عائلتي وكل صاحب من أصحابي بل ، وكل شجرة في البستان وغصن من الأغصان يطالنبى بالرجوع إلى أوطاني فأكثرت من الدعاء لله سبحانه وتعالى أن يعيدني إلى وطني سالماً وأن يحفظني في الذهاب والإياب ، وعزمت على أني بعد انقضاء رحلتي هذه أن لا أتوجه إلى بلاد بعيدة بهذا البعد الشاسع لأنى تأملت فوجدت نفسي فريداً فى هذه البلاد لا أجد من يسامرني ولا من يخبرني عن الأوطان ، وما حصل من الأمور المهمة والحوادث الملمة .

وفي ـ منتصف الليل الساعة الثامنة صباحاً ـ قد تحرك الوابور للسفر فلبست ملابسي سريعاً لعدم إمكان ذلك في البحر بالنسبة لكثرة هوائه ، ورداءة جوه وكان (قباطين الوابور) كلهم من (الألمان) وجميع عماله من الصينيين حتى النجار والطباخ ، وكان الوابور في غاية النظافة لاعتناء كل فريق من العمال بأداء ما وكل إليه من الأعمال ، ورأيت الشيوخ منهم في غاية من قبح المنظر وتشويه الخليقة ، وأن الشبان منهم رؤيتهم مقبولة وصورهم مألوفة فعجبت من التغير العجيب الذي يعتريهم عند الكبر فيغير خلقتهم ويمسخ صورهم ، وقلت سبحان مغير الأحوال من حال إلى حال . وأما كلامهم فإنه يشبه كلام البرابرة . وهم يتكلمون بصوت منخفض بقدر ما يسمع أحدهم الآخر ، ولهم اعتناء تام بالنظافة ولا يفترون عن ذلك طرفة عين .

وقد تغير حال البحر تغيراً عظيماً حتى مرض جميع من في السفينة من السائحين ، ولذلك لم يبق معي إلا اثنان وقت الجلوس على المائدة ، و قد استطاعا الحضور إليها وكان الهواء

جنوبياً غربياً ، ومع اشتداده واستدامته قد تراكم السحاب واغبر الجو وأظلم البحر حتى صار القبطان لا يستطيع أن ينظر شيئاً أمامه ، واضطرته هذه الحالة إلى استعمال الصفير في كل خمس دقائق مخافة من الوقوع في شيء من الخطر الذي يحصل من المصادمة .

وفي - الساعة الثامنة ليلاً - قدَ تحسنت حالة الجو واعتدل الهواء وانكشفت غياهب الظلمات حتى تمكنا من رؤية القمر وهدأ البال ، كما وأن القبطان قد أخبرنا أن هذه الجهة ليس فيها خطر كغيرها لقلة وجود السفن السائرة فيها ، وغاية الأمر أننا نتقابل غداً الساعة التاسعة مع الوابور الآتي من اليابان قاصداً (فلاديفوستوك).

وفي اليوم التالي قد أصبح الهواء جيداً ، وصار الجو معتدلاً ، ولكن البحر لا يزال مضطرباً ، والأمواج تلعب بالباخرة ومن فيها ، فتارة ترتفع بنا حتى نتخيل أننا طود الماء ، وتارة تنخفض حتى نظن أننا قد وصلنا إلى قاع البحر ، وصار الناس في انزعاج عظيم كل ذلك و نحن في غاية الثبات متوكلين على الله تعالى ، واثقين بكرمه ورحمته وفضله ورأفته ملتجئين إليه أن ينجينا من ظلمات البحر كما حفظنا من غوائل البر .

وبعد الزوال قدَ قيس الأفق الذي نحن فيه فعلم أننا قد برحنا النقطة التي كان يلزم أن نكون فيها بنحو خمسة عشر ميلاً ، وهذا من قوة الريح وشدَة تأثيره على الباخرة ، وبهذه الحالة كنا ندخل في الساعة - السادسة صباحاً - إلى (سروجة) وهي بغاز طوله عشرة أميال بحرية .

فصرنا في غاية الوجل من أن يوجد سحاب أو أي مانع يمنعنها عن الدخول في هذا البوغاز، ولذلك قد أمرت خادمي أن يوقظني من النوع من مبدأ الساعة الرابعة صباحاً ، ولكن بحمد الله تعالى وجميل لطفه وحسن تيسيره قد سهل الأمر ، ووصلنا إليه ولم نجد أيَ مانع يمنعنا عن الدخول فيه ، ولمَا كان الإنسان الذي يسافر السفر الطويل يحصل له سرور عظيم ، وفرح شديد إذا وصل بسلامة الله تعالى إلى الجهة التي يريدها . كان السرور في هذه الليلة لا يمكن وصفه حتى أنه من شدَته قدَ منعنا من النوم ، ووجدنا على سطح الباخرة بملابسنا العادية من الساعة الثانية بعد نصف الليل . إلا أنيَ وجدت عزيزي "على بك رضا" قد حصله له تعب كثير وفتور زائد لكونه مضى عليه يومان ولم يذق شيئاً من الزاد واضطراب السفينة .

وقدَ شاهدنا دخولنا في البوغاز قبل طلوع الشمس وكان المنظر جميلاً أجمل من مناظر النرويج المشهورة بالألوان الكثيرة ، وذلك لأن جبال اليابان كلها مزدانة بالنباتات الطبيعية والأشجار المختلفة الألوان والأشكال ، وهذه الأشجار موضوعة وضعاً طبيعياً بنظام جميل حتى يتخيل لرائيها أنها موضوعة بوضع بستاني ماهر ، فسبحان من أبدعها على هذا المثال وأوجدها على ذلك المنوال ، وبالجملة فإني مهما وصفت هذا المنظر الجميل والصنع المتقن الجليل فإنه لا يمكنني أن أوفيه حقه لما اشتمل عليه من الجمال والبهاء، وحسن الشكل وجميل الرواء ، فإنه لا يقوى على ذلك إلا ناثر قادر أو شاعر ماهر . و لمَا وصلت الباخرة إلى البوغاز أكثروا من الصفير إيذانا بوصولها و بمجرد سماعه قد حضر نحو 200 زورق صغير ، وفي كل واحد من هذه الزوارق رجل واقف وفي يده مقذاف يقذف

به الماء إلا أن وقوفه في آخر الزورق لا في جانبه ، خلافاً للعادة المعروفة وفي كل زورق فانوس من الورق وفيه كتابة باللون الأحمر ، فكان ذلك المنظر شارحاً للصدور موجباً للسرور ، سيما لرؤيته أول مرة وجاء في أحد هذه الزوارق ضابط من ضباط البوليس ومعه اثنان من البوليس السري وأخذوا يفتشون جميع الأماكن من دون أن يكلموا أحداً ، ولما انتهى عملهم أذنوا بالدخول لغيرهم ، وبمجرد ذلك الأذن قد وجدنا جملة من الشبان قد دخلوا الباخرة وصاروا يتكلمون بكلام غير مفهوم لنا ، فسألنا عنهم فأخبرنا أنهم من قبل أصحاب الفنادق ، ووجدنا الحاملين لهم قدَ تعوَد على الحمل ، ومعرفة تامة به وتظهر عليهم علامات القوة والشهامة ، وعلى ظهورهم بطاقات مكتوب عليها أسماؤهم (أو نمرهم) باللغة اليابانية ، وخرج كثير من الناس وبقينا حتى حضر رئيس الكمبانية لأجل أن يخلص ما معنا من المكس ، ويوصلنا إلى المحطة أحضر سفينة أكبر هذه الزوارق لأجل حمل ما معنا من الأمتعة ، وفيها شاب حسن الهيئة نظيف الملابس يحسن التكلم باللغة الإنجليزية ، فودعنا القبطان وأعطيناه نقودا لأجل أن يعطيها للخدم منحة لهم ، وسروراً بوصولنا بسلامة الله تعالى إلى البلاد اليابانية التي قصدناها .



سياحة فى الروسيا

بقلم

رشاد بك

رئيس محكمة مصر سابقاً

مطبعة التقدم بشارع محمد على بمصر



من مصر إلى أودسا

هل أتاك حديث روسيا وقريمها ؛ وقافقاسية وزعيمها على بعد الدار وشط المزار. وأن تعجب فعجب قولهم أهذه بلاد تستحق أن يرحل إليها ؛ وماذا بها من المشوقات والمرغبات حتى يتجشم المرء من أجلها عناء السفر ، ويتقطع البعيد من المسافات

أجل أن بلاد القياصرة جديرة بأن تشد إليها الرحال ؛ لأنها فى الواقع لا تقل عن غيرها رونقاً ونظاماً ولا امناً وسلاماً. ولأن بها ما بالممالك الاخرى من المناظر الطبيعية ومعالم الحضارة والمدينة ما يستفز السائح لمشاهدة آثارها الجميلة ، وزيارة معاهدها الجليلة و يجعله لا يمل من الإقامة بين ربوعها الناضرة وغياضها الزاهرة أو يأسف بحال من الأحوال على ما يصرفه فيها من الوقت والمال .

ولكل أمة عادات أهليه وتقاليد دينية وقيود رسمية وقواعد نظامية يجب على الغريب احترامها ولو كانت مخالفة لعادات وتقاليد قومه . كما أن لكل شخص أخلاقاً وطباعاً ينبغى لغيره عدم التعرض له بها ولو كانت مما لا يلائم أخلاقه وطباعه .

تلك سنة درج الناس عليها من القدم تلطفاً منهم وتأدباً فى حق بعضهم بعضاً، ومنعاً لما عسى أن يحدث من عدم احترم الأخلاق والعادات من الأحقاد والمشاحنات والضغائن والعداوات . إذ من المحال أن يكون جميع الناس على مشرب واحد وأخلاق وطباع واحدة. نظراً لتباين الأمزجة والجبلات وتأثير قوانين الوارثة والبيئة فى الشخص ، وتباعد الأقاليم والمناطق وإختلاف اللغات والأجناس والديانات . وقصارى القول :

إن جئت أرضاً أهلها كلهم	عور فغمض عينك الواحدة
اذا تمهـد هذا وجب عليـك	أن قصدت السفر إلى روسيا

أن تعرف قبل كل شئ نظامات الدخول فيها والخروج منها، وأن ترضخ إليها ولو أنها غريبة فى بابها ، وفيها من الشذوذ مالا يوافق روح العصر بالمرة . فأول ما تعمله أن تحصل على باسبور كالعادة ، ثم تؤشر عليه من (قونصلاتو الروسيا) بعد أن تدفع لها رسما قدره "24 قرشاً" وبغير هذه الإشارة يستحيل عليك أن تطأ أرض روسيا أياً كانت صفتك ، ومهما علت فى الهيئة الاجتماعية منزلتك . على أن الباخرة نفسها تجمع الجوازات من ركابها قبل السفر من ـ الاستانة إلى أودسا ـ أن وجد منهم من لا جواز له ، أو كان جوازه غير مؤشر عليه من القنصل أنزلته حالا إلى البر ، ولم تسمح له بالسفر حتى لو كان دافعاً للأجرة بتمامها، وإذا فرض أنه سافر خلسة ردوه عند وصوله إلى" أودسا " مثلاً من حيث أتى ولم يقبلوا فيه أدنى شفاعة .

ومتى وصلت السفينة إلى "أودسا" يصعد البوليس اليها لفحص الجوازات المجموعة من قبل فحصاً دقيقاً. فان وجدها مستوفية للشروط القانونية صرح لأصحابها بالنزول إلى البر وإلا فلا .

وفى اللوكاندة لا يكتفون ببطاقة الزيارة . بل يطالبونك " بالباسبور" ليقيدو اسمك فى دفاترهم من واقعه ، وليرسلوه بعد ذلك إلى "بوليس المدينة" ليعرف من أنت وأين أنت ؟ وهو بعد أن يسجله يرده إليك ، ويأخذ على ذلك رسما تحاسبك عليه اللوكاندة عند مبارحتها . ولو انتقلت من لوكاندة إلى أخرى فى نفس البلد طالبوك بالباسبور أيضاً ، وأرسلوه إلى البوليس مرة أخرى . وهكذا يجرى الحال على هذا المنوال فى كل بلد تحله من بلاد الروسيا . وعند الخروج من الروسيا يجب حتماً التأشير على الباسبور من البوليس قبل السفر ببعض أيام، وفى نظير ذلك تدفع رسماً لا يقل عن رسم الدخول ، وعليك بعد ذلك أن تمرّ يوم السفر على بوليس الميناء ليتحقق من هذه الاشارة ويقيد أسمك عنده، وبغير ذلك لا يمكنك أبداً الركوب فى الباخرة والخروج من الروسيا .

وليس هذه القيود قاصرة على الأجانب . بل هى شاملة أنفس رعايا الروسيا ،ولكن ذلك كله لا ينبغى أن يقعد همتك ويثنى عزيمتك عن السفر إلى هاتيك البلاد الجميلة. للوقوف على درجة مدنيتها ومعرفة حقيقة قوتها وموارد غناها وثروتها. فإنك متى دخلتها تمتعت فيها بكل حرية كما لو كنت فى" فرنسا أو انكلترا" وذهب عنك تأثير الباسبور وقيوده .

ابحرت بنا الباخرة من "سكندرية" فى يوم من مايو رق نسيمه وصفا أديمه ، ولكنها لسوء الحظ لم تلبث أن سطا عليها الضباب فى غداة ذلك اليوم فحجبها عن الانظار حتى خلنا أننا فى المحيط الاطلانطى ، أو تحت جو "لو ندرة" فى زمن الشتاء ، ولم نعد نبصر شيئاً فأخذت الباخرة تستجير بكثرة الصفير والشهيق والزفير لكى تحيد عن الطريق البواخر القادمة عليها ، ولا تتصادم معها إذا سمعت نعيقها وصمت آذانها من ذلك لنعير . وفى اليوم الثالث وصلنا إلى بيرية مينا بعد سفر 40 ساعة من سكندرية، وفى الرابع إلى "أزمير" و بينها وبين بيرية 20 ساعة ، وقدّ سبق لنا أن قلنا بعض الشئ عن هذه المدن الثلاث فى رحلتنا التى نشرناها عن "المجر و رومانيا" .

ولما دخلنا مينا "أزمير" كانت أحدى ـ البواخر اليونانية ـ قادمة من جهة البد فمسها لغم فانشقت وحصل فيها دوى عظيم ، وتصاعد منها دخان ولهيب وتطاير أكثر ركابها إلى الجو "فتمزقوا أربا أربا" على مرأى منا، ويالهول هذا المنظر ثم هوى الجميع إلى قاع البحر فاستولت الكآبة علينا، وإنقلب سرورنا إلى أحزان وكثر عويل النساء والصبيان ، وكان من ضمن السيدات "فتاه روسية" ذات جمال فتان تحاكى ـ البدر فى تمه ليلة النصف من شعبان ـ فكأنما هى حورية من حور الجنان، أو ملك من ملائكة الرحمن .

وقدّ أقمن فى الميناء ثلاثة أيام . ولم يرض الربان بالسفر إلا بعد أن أخذ على ضباطها تعهداً بالكتابة بسلامة الطريق وخلوها من الخطر فسارت بنا السفينة بعد ذلك "باسم الله مجرها" قاصدة القسطنطينية . ولما أقتربت من محل الحادثة كان الكل وقوفا على ظهرها

يصعدون الزفرات ويرددون الحسرات ، ويندبون سوء طالع أولئك التعساء ، وما لا قوه بين طرفة عين وفى الطريق مرَت الباخرة على "متلين" وتسمى بالتركى" مدللي"، وكانت تسمى قديماً "أليبسوس" وسميت "متلين" باسم عاصمتها، وكان ذلك فى زمن "البيزنتيين "،وهى من أهم وأكبر جزر البحر المتوسط . وعدد سكانها 130 ألف نفس أكثرهم روم . وهواء الجزيرة فى غاية الاعتدال حتى فى فصل الشتاء وبها ثلاثة ينابيع معدنية ومن أهم حاصلاتها الزيت والزيتون .

ولم تقف الباخرة بها بل أستمرت فى سيرها، وبعد خمس ساعات أجتازت "الدردنيل" . ثم دخلت فى ـ بحر مرمرة ـ وأخيراً إلى "القسطنطينية" وأنت الآن تعرفها معرفة المستفيد مما نشرناه لك عنها، وعن أختها بورصة وما عهد ذلك ببعيد .

ومن "ازمير" إلى "الاستانة" 24 ساعة . إن مكثت بها الباخرة يومين أو ثلاثة سافرت إلى الروسيا فى "البوسفور " ثم فى البحر الأسود. وهذا البحر يكون هادئاً على الغالب فى الربيع وفى الصيف ، أما فى الشتاء فيهج وتكون الملاحة فيه وقتئذ محفوفة بالمصاعب ولا يتجلد منه فى هذا الفصل إلا الجهات القريبة من سواحله ولكن لمدة قصيرة وفى الخريف يكثر فيه الضباب والزوابع خصوصاً فى آخر أكتوبر، وبعد سفر نحو ثلاثين ساعة وصلت الباخرة إلى أودسا .



من أودسا إلى تفليس

أودسا من أجمل مدن الروسيا وأبهاها. وكانت في الأصل قرية تركية صغيرة بها تعرف ـ بقلعة حاجي بك ـ أستولى عليها رجل أسبانيولى أسمه "ديريباس إنتظم فى سلك البحرية الروسية فى سنة 1769. ووصل فيها إلى رتبة "أميرال" ، وهو أول من أسس أودسا، وكان ذلك فى عهد الإمبراطورة الكبيرة "كاترين الثانية " . ثم جاء بعده رجلان فرنسويان ودخلا فى خدمة الحكومة الروسية الواحد بعد الآخر، وهما "الدوك دوريشليو ، والكونت دولا نجرون" فوسع كلاهما دائرة المدينة وزاد فى تقدمها وعمرانها، ومازالت التجارة فيها كل يوم فى إزدياد حتى أصبحت الآن تعد" مرسيليا الروسيا". وأول من استعمرها قوم من "الاروام واليهود والبلغار" سعياً وراء الرزق والكسب . واسمها مشتق من أسم مدينة يونانية تدعى أوديسوس (أى مدينة عولص المذكورة فى وقائع تلماك) كانت بالقرب من هذه الجهة وذ كرت فى تاريخ حرب "ترواده" .

وقد أطلق أسم "ديريباس" على شارع من أهم شوارع "أودسا". كما سميت المدرسة الاعدادية فيها باسمه، وأطلق اسم لا نجرون على الجهة الموجودة فيها حمامات البحر . وفى أودسا جملة تماثيل لكاترينه وآخر لريشليو، وفيها شارع لطيف مشرف على البحر اسمه "بولفارنيقولا" ، وبها جملة لوكاندات منها "لوطاندرة وسان بطرسبروج وأوروبا وسافوراى وباساج وبريستول" وفيها عدة بنوكة وتياترو ومتحف وجنينة كبيرة ، وأكبيرة قهاويها "روبينا وفانكويى" وفى ضواحيها حمامات، وحل مشهورة مفيدة للصحة . وعدد سكان أودسا 400 ألف نفس .

وفى" سنة 1812" ظهر الطاعون فى أودسا للمروة الاولى . وكاد يخربها حتى أن من مات فيها بهذا الوباء لا يقل عن 13 ألف نفس، وفى "سنة 1854" حاصرتها أساطيل الدول المتحالفة فى حرب القريم ، وأطلقت عليها المدافع. وأهلها خليط من "الروس والاروام واليهود ومن الاروام" من أثرى فيها مثل ـ بيت رالى ـ الذى أصبحت ثروته لا تقل عن أربعين مليوناً من الروبلات (الروبل قطعة بعشرة وكسور) . وعلى بعد 80 ميلا منها لجهة الاستانة جزيرة جبلية صغيرة اسمها "فيدونسي" أى جزيرة الثعابين كفاك الله شرها .

ومن أودسا سافرت إلى القريم المشهورة باعتدال هوائها، وجمال مناظرها، وكان السفر على باخرة فى البحر الأسود من بواخر روسكى باراخوت لأنها أفضل وأنظف وأجمل ، من بواخر شركة روسيان باراخوت. خصوصاً إذا كانت من وابورات الطبقة الأولى . فسارت بنا الباخرة تشق بحيزومها عباب الماء إلى أن رست فى الغداة على "أوباتوريا" أول موانى القريم ويسميها التتار كوزلاوه ، والروس كوزلزف ، وكانت فيما مضى من الزمان سوقاً

للنخاسة تباع فيه المماليك والجوار البيض.

وقد امتكها الأتراك في «سنة «1478»، والروس في «سنة 1552» على مثال جامع - أياصوفيا بالاستانة - وعدد سكانها 25 ألف. وهم «روس وتتار وأروام ويهود»، وفيها ملاحة شهيرة وعلى بعد فرستين منها حمامات وحل صحية في بحيرة مونياك و18 فرست حمامات وحل أخرى في بحيرة ساك (الفرست مقاياس روسي يساوي 1035 متراً). ويبتدئ موسم هذه الحمامات في 25 مايو وينتهي في آخر أغسطس، وفي هذه المدة يقصدها كثير من المرضى والمستشفين. وعلى بعد 63 فرست من «أوباتوريا» توجد «مدينة سنفيرو بول» عاصمة القريم الجديدة، وهي مدينة لطيفة وبها 60 ألف نفس.

وبعد سفر نحو خمس ساعات من أوباتوريا، وصلت الباخرة إلى «سواسطابول». وهي الآن مدينة كبيرة ذات شوارع عظيمة ومبان فخيمة، وبها النور الكهربائي وفيها يسير - الترام - في كل مكان، وفي ميناها أسطول البحر الأسود، وبها حامية روسية كبيرة حتى أن القادم عليها لا يتصور لأول وهلة إلا أن كل أهلها ضباط وعساكر. ومع كونها مدينة تجارية فانها تعد مدينة حربية من الدرجة الأولى، وهي متصلة مع كل الروسيا بخطوط حديدية، وفيها تماثيل للضباط الذين امتازوا في الحروب بريين كانوا أو بحريين، وتذكارات حربية أشبه بتذكارات "واترلو" في بلجيكا. ومن الطف منازهها على البحر الجنينة البلدية، وفيها تصدح الموسيقى في كل يوم ويقصدها الضباط بكثرة لا يجوز للعساكر الدخول فيها.

ومن ضمن شوارعها شارع مهم اسمه "البولفار التاريخي" فيه جنينة كبيرة على جهة مرتفعة موجودة بها بناية مستديرة في غاية العظم مرسومة في دائرها من الداخل. وقائع "حرب القريم" وصور العساكر الذين اشتركوا فيها من "تركية وفرنساوية وانكليزية" وغيرها. وبها معدات الدفاع وكثير من أدوات الاستحكامات والمهمات الحربية، وما أشبه ذلك في شارع آخر بالقرب من مدخل المنيا متحف تاريخي في غاية الاهمية يختص بحصار "سواسطابول" وكل ما استعمل فيها من مدافع وأسلحة وخرط وغير ذلك. وقد اشتهرت "سواسطابول" بهذا الحصار سنتي - 1854و 1855 - وفيه خرجت كلها تقريباً ولكنها لم تلبث أن نهضت من كبوتها، وقامت بسرعة عظيمة من عثرتها، وعدد سكانها الآن 50 ألف نفس الأكثرية نصارى والأقلية تتار وأروام ويهود، وفيها بعض لو كاندات أشهرها لوكاندة كيست على البحر، والجران أوتيل وعلى بعد 10 كيلو مترات منها "دير مارجرجس" وله الآن ألف سنة وموقعه جميل للغاية.

ومن "سواسطابول" إلى "باغجه سراى" عاصمة القريم القديمة 43 كيلو متراً في السكة الحديدية. وهي مدينة صغيرة بها جملة جوامع وبساتين، ولكن ليس فيها شئ من آثار الرقي الحديث فلا طرق ممهدة، ولا تراموای ولا نور كهربائي ولا لوكاندات معتبرة. وبها قصر خانات التتار بني في القرن السابع عشر، وعلى باب جامعه مكتوبة هذه العبارة: (سلامت كراى خان ابن الحاج سليم كراى خان سنة 1155). وبحوش القصر حنفية مكتوب عليها: "قبلان كراى خان ابن الحاج سليم كراى خان غفر الله لهما ولو الديهما سنة 1162". وعلى هذه الحنفية الآية الكريمة (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) ومرسوم بها

شجرتا ورد وثلاثة أصناف من الفاكهة.

وفى الحوش حنفية أخرى مكتوب عليها (عيناً فيها تسمى سلسبيلا) . وبالدور الأعلى قاعة الاستقبال مكتوبة على جدرانها قصيدة فارسية ، ومرسوم عليها أطباق فاكهة متنوعة ، وهذه القاعة هى أجمل ما فى القصر وبالدور الأرضى قاعة سقفها من أجمل ما صنع الصناع ، وعلى بابها منقوشة هذه العبارة : باب ديوان سلامت كراى خان ابن الحاج سليم كراى خان سنة 1156 ، وبالقصر باب السلسبيل مكتوب عليه صاحب هذه الديار سلطان الأعظم الأكرم «منكلى كراى خان »... الخ . وبداخل القصر جنينة وبخارجه جنينة وهذه الأخيرة هى الآن جنينة البلدية التى يتنزه فيها الناس ، وفيها الجامع السلطانى وكانت العشا تؤذن فيه وقت زيارتى للبلد فى مايو فى منتصف الساعة العاشرة الأفرنكية.

وفى باغجه سراى - جريدة تنشر بالغة التركية - لصاحبها اسماعيل بك غصبرنسكي اسمها «ترجمان»، وبها مدرسة للبنات تديرها كريمته ، وفيها يتعلمنَ التركية والروسية، ومبادئ اللغة العربية ، والعقيدة الإسلامية ، والحساب والجغرافيا وعلم الصحة ، وعلم تدبير المنزل والأشغال اليدوية ، ومن البنات من تحفظنَ القرآن كله .

وعدد سكان باغجه سراى 18 ألف نفس منهم 14 ألف من التتار ، وثلاثة آلاف مسيحى وألف يهودى .

ومن «سواسطابول» إلى «يالطه» ثلاث طرق البحر والأوتوموبيل وسكة الحديد ، والأول جميل لأن المسافر فيه يشاهد شاطئ القريم بجباله المختلفة الألوان ، والثانى أجمل خصوصاً من إبتداء باب بايدار لأنه كله مناظر لطيفة وجبال وأشجار ، والثالث لا شئ فيه يستحق الذكر . ويالطة هى من أجمل مدن الحمامات البحرية فى القريم . وهواؤهافى الصيف معتدل ونافع لأمراض الصدر، ويسمونها «نيس الروسيا » وكل شوارعها ومبانيها على الطراز الحديث ، وفيها جنينة بلدية لطيفة تصدح فيها الموسيقى يومياً .

ومن أشهر لوكانداتها روسيا «وفيلا ايلنا ومارينو» وعدد سكانها 35 ألف نفس الأكثرية نصارى والأقلية مسلمون ويهود . ومن ضواحيها «ليفاديا» وفيها يصيف القيصر. وألوبكا وأورياندا وغيرها من الجهات الخلوية الجميلة . ومن «يالطه» سافرت إلى «باطوم» فمرت الباخرة على جملة ثغور أهمها (تيو دوزى وكيرش) آخر موانى القريم . وفى بوغار «كيرش» هذه يتصل بحر أزوف بالبحر الأسود .

فساحل القريم يبتدى إذن من - أوباتوريا وينتهى فى كيرش - وبعضه سهول وبعضه جبال، والمناظر الجبلية كلها فى غاية الجمال . وأما ساحل القوقاز فيبتدئ من (أنابا وينتهى فى باطوم). وكله غابات وأشجار وجبال من أجمل ما يكون . ومن أهم ثغوره» نوفور وسيسك» وهى مدينة كبيرة وجاجرى وكلها غارقة فى الأشجار والخضرة ، وهى من أجمل المصايف وعلى بعد 15 فرست منها «جبل اتوس الجديد» وبه دير أسسه فى سنة 1875 بعض رهبان جبل اتوس القريم - وسوخوم عاصمة مملكة أباظا (أبخازي). وكلها فواكه وأزهار وهواؤها فى غاية الجودة ، ومنها يرسل مقدار عظيم من الدخان إلى «مصر»،

وفى ضواحيها آثار مدن قديمة وهيا كل وقصور وقلاع ومعاقل ، وعدد سكانها 20 ألف نفس . أما سكان نفس مملكة أباظة فيبلغون نصف مليون ثلاثة أرباعهم مسلمون ، والباقى «نصارى أورثوذكس» ومعظم سكان هذه المملكة المسلمين هاجروا إلى تركيا ولم يبق فى القوقاز سوى 30 ألفاً منهم ثمانية آلاف من ضمن سكان «سوخوم» ، والباقون منتشرون بينها وبين «نوفوروسيسك» على ساحل البحر الأسود وقبائلهم تسمى أونج .

ومن جاجرى إلى باطوم يرى المسافر وهو على ظهر الباخرة جبالاً جميلة فى ساحل القوقاز ذات غابات وأشجار ، وقممها البالغ ارتفاعها 2500 متر مغطاة كلها بالثلج .

وبعد سفر ثلاثة أيام من يالطه وصلت الباخرة أخيراً إلى باطوم آخر مينا للروسيا على البحر الأسود وبينها وبين أودسا 563 ميلا .

وباطوم كما أنها مدينة تجارية هى مدينة حربية وقد وسعها الروس وفتحوا فيها الشوارع وأناروها بالنور الكهربائى ، وانشأوا فيها على شاطئ البحر جنينة بلدية من الطرز الحديث كلها شوارع مستقيمة ، وبها تصدح الموسيقى العسكرية كل يوم . وفى باطوم جنينة أخرى من زمن الترك فى غاية اللطف على شاطئ بحيرة صغيرة وقد سميت هذه الجنينة الآن جنينة إسكندرية . وهواء باطوم معتدل ولكن ماءها لا يزيل الصابون إلا بشق الأنفس ، وفيها ثلاثة جوامع ومعامل للغاز ملك نوبيل الأسوجى صاحب الجوائز السنوية المشهورة . وإليها يأتى البترول من – باكو - الكائنة على بحر الخزر فة مواسير محكمة تحت الأرض ، وهى مسافة طويلة جداً يقطعها – الاكسبريس - الذى يقال له فى الروسيا كورييسكي فى نحو 24 ساعة . ومن أهم معامل الغاز فى باطوم أيضاً معامل روتشيلد المعروف ومعامل مانتاشيف الأرمنى الروسى . وعلى بعد 13 فرست من باطوم فى السكة الحديد مزارع الشاى المشهورة فى «شكوى» . وعدد سكان باطون 37 ألف نفس ، وهم خليط من الروس والكرج والأرمن والترك والجركس . ومن أحسن لوكانداتها الشرق والمنظر الجميل وفرنسا والأمبريال .

ومن باطوم سافرت بالسكة الحديدية إلى قوطايس وبورجوم وباكوريانى فى داخلية القوقاز . وهى وإن كانت بلاداً صغيرة لكنها تستحق الزيارة لجمال الطرق الموصلة إليها بالنظر لتشعب جبالها وكثرة أشجارها، وتعدد منعطفاتها وجريان الأنهر والغدران فيها . وليس فى قوطايس شئ يذكر سوى «نهر ريون» وخريره يسمع له دوى شديد من بعيد ، وفيها نزل فرنسا صاحبته امرأة من سويسره لها فى قوطايس 30 سنة وقد أثرت بها .

وبورجوم مدينة حمامات معدنية وبها نهي سريع الجريان شديد الخرير ، وآخر أكبر منه وماؤها العادي بالنسبة لإزالة الصابون مثل ماء باطوم . أما باكوريانى نفسها فلا تستحق الإقامة بها لا يوماً ولا بعض يوم وإنما الطريق إليها من بورجوم من أجمل ماتراه العين. ومن بورجوم طريق آخر فى غاية البهجة والحسن إلى أباستومان السفر فيه يكون فى الأوتوموبيل واباستومان . هذه من البلاد المشهورة بإعتدال هوائها وجميل مناظرها .

ومن بورجوم سافرت إلى «تفليس» عاصمة القوقاز بالسكة الحديدية . وهى فى منتصف الطريق بين - باطوم وباكو - أو بين الأسود وبحر الخزر، وبلغ ارتفاعها عن سطح البحر .



من تفليس إلى بلاد الشراكسة

كانت «تفليس» فى أوائل العصر المسيحى قرية حقيرة لا تذكر . وفى القرن الخامس للميلاد عثر فيها بالصدفة الملك المسمى «بالذئب» السبع أثناء الصيد ، والقنص على عين ماء حارة تجرى فى الجبل فاتخذها من ذلك الوقت عاصمة لمملكة «الكرج» . ونقل إليها تخت ملكه من «متسخيت» العاصمة القديمة . التى هى الآن بلدة صغيرة على بعد ساعة منها فى السكة الحديدية ، ولولا هذه العين لظلت «تفليس» على حقارتها إلى الأبد ، ولبقيت مجهولة من الجميع وما كان سمع بذكرها أحد فالعين إذن هى ولية نعمتها وينبوع عزها وسعادتها .

وفى سنة 1395 حطمها «تيمور» وجنوده وأعملو السيف والنار فيها. وذبحوا أهلها وأسرو النساء. وقد استولى العجم عليها وأقاموا بها زمناً طويلاً . وفى سنة 1801 دانت للروسيا وخضعت نهائياً لحكمها ، وبعد ذلك أخذت تتسع شيئاً فشيئاً حتى وصلت إلى ما هى عليه الآن من الحضارة والتقدم والعمران .

وتنقسم تفليس إلى قسمين :

القسم الأول «افرنكى» وكل شوارعه واسعة مستقيمة. ومن أهمها شارع جالافانسكى وشارع ميخاييلوفسكى وكلاهما مضاء بالكهرباء ، وفى الشارع الأول منهما ديوان حاكم القوقاز ، ومصالح الحكومة والكنيسة الروسية الكبرى ، ومخازن التجارة والمتحف وجنينة اسكندر وتياترو الأوبرا ، وهو فى غاية الحسن والبهاء ، ويقال له عندهم كازونى تياتر أي تياترو الحكومة ، وأجمل ما فيه من الخارج واجهته الفارسية البناء ، وعلى بعد قليل منه تياترو آخر كبير. وفى الشارع الثانى معظم المطاعم والألعاب والملاهي ، وفى آخره جنينة المجتهد ، والناس يقصدونها كل يوم للفسحة والرياضة خصوصاً يوم الأحد ، وبها تخت أرمن يغنون أغانى شجية ، وهم لابسون ملابس ملونة وعلى رؤوسهم لفافات حمراء مطرزة بالقصب، وآلات الطرب عندهم «قانون ودف و كمنجتان وأورغن» وبالقرب من هذه الجنينة فى الشارع قهوة كبيرة بها تخت من «الكرج» مركب من رجال ونساء وكلهم لابسون ملابس ملونة كذلك ، ومزركشة بالقصب والحانهم طلية ، وآلات الطرب فى هذا التخت «بيانو

مندولين ودف وآلات كبيرة من ذوات الأوتار» تسمى كل واحدة منها عندهم جيتاره .

والقسم الثانى أهلى وبه جنينة النباتات والجوامع والأسواق البلدية ، وتعرف هناك بالبازار، ومن أعظمها سوق الميدان وسوق الأرمن وسوق الشيطان ، وشوارع هذا القسم كأغلب شوارع البلاد الشرقية ضيقة وملتفة على بعضها ، ومعوجة أعوجاج الثعبان .

وفى «تفليس» نهر صغير أسمه كورا وآخر أصغر منه من نوع الغدير أسمه «فيرا» . وعلى الأول منهما تدور دواليب حديدية للطحن ، وغيره بقوة التيار وبها محل اسمه فانتازيا يرقصون فيه ليلاً (عند الطلب) رقصاً أهلياً ، وهو على نوعين أحدهما رقص اللزجين رقص ويسمى «ليزجينيكا»، والثانى رقص «الكرج» ويسمى كينتا اورى . وفى» تفليس» تمثال واحد يعرف بتمثال «فارانسوف» وكان حاكماً على القوقاز وبالقرب منه مطعم مشهور بالمأكولات الأهليه اسمه نادكورو ايه .

ومآذن الجوامع فى «تفليس» ليست عالية ، فهى كمآذن تونس ، وفى «تفليس» جملة فنادق أعظمها وأجملها وأحسنها لوكاندة الشرق أمام سراي الحاكم ، وهى لا تقل شيئاً عن فنادق الدرجة الأولى فى أوربا ، ومطعمها فاخر للغاية ، وكفاها ترتيبا ونظامة ونظاماً . أن مديرها فرنساوى بخلاف اللوكاندات الأخرى فى جنوب القوقاز فا كثرها بيد «الكرج والأرمن» وهى أشبه شئ بلوكاندات الأروام فى مصر .

وأمام لوكاندة الشرق خلف السراى جبل «القديس داود» الهواء فيه منعش من الساعة السادسة مساء ، والناس يفدون اليه بكثرة خصوصاً فى الليل،والصعود إليه يكون فى فينيكولير (مصعد كهربائى). والمسافة 10 دقائق ذهاباً وأقل منها ايابا. وفى ثلث الجبل من جهة البلد «دير القديس داود» .

ويعد هذاالجبل من أجمل مناره «تفليس» وكله يضاء بالكهرباء ، وفيه مطاعم ومقاهى وتخوت آلاتيه كل ألحانها مطربة شجية ، ومن ضمن آلاتهم « الرباب والمزمار والنقرية » ، ومن قمة الجبل ترى مناظر « تفليس » كلها ولكن المنظر بالليل أجمل منه بالنهار لأن البلد وقتئذ تكون كأنها مزينة بزينة عمومية فى غاية التنسيق والإبداع بما يتلألأ فيها من الأنوار التى تبهر بمحاسنها الأبصار .

وتكاد « تفليس» أن تكون محاطة بالجبال من جميع جهاتها. فالحر الذى تفر منه فى مصر هو ملاقيك فيها . ولكن إذا اعتدل الهواء أنتعش الأرواح والأجسام وحبب إلى الغريب المقام بها بضعة أيام .

وفى «تفليس» حمام معدنى مشهور اسمه «حمام أوربيليانى» ومياهه تنفع للروماتيزم ، وهى مستمدة من تلك العين الحارة التى أكتشفها جلالة الملك الذئب السبع .

وفى « تفليس » ميدان فسيح على بعد قليل من سراى الحاكم اسمه «ميدان ايريفان» تتوزع منه خطوط الترامواى فى البلد فى كل مكان . (وايريفان هذه بلدة جهة قارص على مقربة من باطوم ، وعندها «اشميازين» وهى مدينة مقدسة عند الأرمن وبها مقر كبير الدين) .

وفى «تفليس» بعض المسلمين مثل بابانوف وحصانوف من أرباب الملايين . وبواسطة باريس تصل إليها فى ثمانية أيام مارة «ببرلين وبطرسبورج وموسكو وخاركوف وروستوف وباكو» ثم «تفليس» . وعدد سكانها 400 ألف نفسى منهم 30 ألف روسى و 180 ألف أرمنى و 100 ألف كورجي و 60 ألف مسلم وخمسة آلاف يهودى .

وفى «تفليس» متحف لطيف به جملة رايات قديمة أستعملها «الشيخ شامل» بطل قافقاسية وزعيمها (وسيأتى الكلام عليه فيما بعد) فى حروبه مع الروس مكتوب عليها « أنا فتحنا لك فتحاً مبيناً – نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين يامحمد » . وفيه لوحة كبيرة مرسومة فيها صورة الشيخ شامل ، وبه رايات عجمية مكتوبة فى أطرافها البسملة وبعض آيات قرآنية ، وفى وسطها أسد العجم شاهراً سيفه وغير ذلك من الرايات والأعلام . وفى المتحف صور ورسوم تمثل أغلب وقائع الشيخ شامل ، وبه أسلحة قديمة ومدافع منقوشة عليها عبارات باللغة التركية اللغة العربية ، ومن ضمن مافيه لوحة كبيرة تمثل دخول الروس فى «تفليس» ، وبه يفطات وأوراق قديمة مكتوبة بالتركى وغير ذلك من نفائس الآثار .

ومن ضواحى «تفليس» «كودجور وما نجليس» وهما مشهوران بإعتدال الهواء حتى أنه يكاد أن لا يكون للحر أثر فيهما فى زمن الصيف . والذهب إليهما يكون بالأوتوموبيل من ميدان أيريفان .

وفى «تفليس» شركة فرنساوية لتسيير الاوتوموبيلات بينهما وبين «فلاديقافقاز» فى طريق بهج للغاية مسافته عشر ساعات أما. إذا كان السفر إلى تلك الجهة فى السكة الحديدية ففي طريق آخر لا مناظرفيه ، ولا جمال ولا تقل مسافه عن 24 ساعة .

وأحسن محل فى الأتوموبيل المحل نمرة 3 خلف السائق . والأجرة 20 روبلا ونصف ذهاباً ومثلها اياباً ، خلاف أجرة العفش . وقد ركبت الأتوموبيل مع غيرى من السياح وأخترقت به سلسلة جبال القوقاز المشهورة ، وتسمى هذه السكة بالسكة الحربية الكورجية لأن الجيوش الروسية أستعملتها فى حروبها فى القوقاز ، وأكثر سكان هذه الجبال نصارى من الكورج ويسكنها أيضاً الأنكوش والأستين ، وليسوا كلهم مسلمين . أما مناظرها فمدهشة وجميلة للغاية لا يذكر بجنها أجمل مناظر سويسره فمن حزون إلى سهول إلى قمم شاهقة تناطح السحاب يانعة خضرآء إلى نجاد ووهاد كلتها الأشجار إلى وديان سحيقة تجرى فيها الأنهار إلى قلل شامخة تأخذ هى الأخرى بمجامع الألباب ، ولو أنها قرعة جرداء لإنبات فيها ولا ماء . وفى الطريق لوكاندات ومحطات أولها محطة قازبق (كلمة محرفة عن غازى بك) . وأنفاق كأنفاق السكك الحديدية تمر منها الأتوموبيلات، وعلامات لمعرفة خط السير وتقدير المسافات .

ولما وصلنا إلى «فلاديقافقاز» إذا بها مدينة جميلة على نهر جار اسمه «تيريك» وهى مرتفعة عن سطح البحر بثمانمائة متر . فإذا كان الحر شديداً فى «تفليس» كان البرد شديداً ، وهى قاعدة ولاية تيرسكى وبها جنينة بلدية كبيرة فى غاية الحسن والجمال ، يحفها نهر تيريك من إحدى جهاتها بل هى أجمل حدائق القوقاز كلها حتى نفس «تفليس»

، وكلها مضائة بالكهرباء وفيها تصدح الموسيقى العسكرية فى كل يوم وإليها يهرع الناس بكثرة . وبالبلد جامع فخيم على حافة النهر بمأذنتين عالتين فى غاية الحسن ، وبها شارع كبير فى وسطه ممشى طويل مغروسة فيها الأشجار ذات الظل الظليل على الجانبين وموضوعة مقاعد للجلوس من الطرفين . وعدد سكان هذه المدينة 75 ألف نفس ، وبها فنادق كبيرة مثل الجران أوتيل والامبريال وغيرها ، ومنها تسافر القطارات إلى شمال روسيا وإلى حمامات القوقاز المعدنية المشهورة ، وهى بياتيجورسك على بعد ساعات من فلاديقافقاز – وايسانتوك وكيزلوفودسك ـ ومنها يخرج ماء نارزان المعدنى الذى يشرب فى الروسيا بكثرة – وجليز نوفودسك . وهذه الحمامات متقاربة من بعضها وكلها فى غاية الإستعداد ولا ينقصهاش شئ من معدات الراحة والنظافة الموجودة فى غيرها من حمامات أوربا المعدنية ، والفنادق هناك معتبرة غير أن أجرة السكن فيها غالية جداً .

وفى ولاية تيرسكى تسكن قبيلة من الجراكسة اسمها «القابارطاي» والجهة المقيمة بها هذه القبيلة تبعد عن فلاديقافقاز ست ساعات فى السكة الحديدية . وسميت ولاية تيرسكى بهذا الاسم إلى نهر تيرتك ، وهو نهر ينبع من جبال قازبق (غزى بك) فى سلسلة جبال القوقاز ويصب فى بحر الخزر .



فى بلاد الشراكسة والداغستان

على بعد ثلاث ساعات من فلاديقافقاز ولاية قوبانسكى ، وهى مقر معظم قبائل أخواننا الجراكسة . وتلك القبائل هى «أبزاخ وحاتوقاى وبجدوع وكمكوه وشابسغ وحكوص»وسميت ولاية قوبانسكى بهذا الاسم إلى نهر قوبان وهو نهر ينبع من جبال البزر فى سلسلة جبال القوقاز ، ويصب فى البحر الأسود ، وفى سفوح الجبال البزر الشمالية تسكن قبائل قره جاي الجركسية . ومن قبائل الجركس أيضاً «قبيلة شيشانسي» من سكان الجبال ولا تنسى القبائل التى ذكرناها عند الكلام على بلاد أباظا . والجراكسة وأن كانو لا يزيدون عن 500 ألف نفس لكن أهل القوقاز جميعاً يخشون بأسهم لما أمتازوا به من الشجاعة والجسارة والرماية والفروسية . والروسيا نفسها تحسب لهم كل حساب وتحترمهم مزيد الإحترام .

ومن تيرسكى إلى كمره بلد الشيخ شامل 16 ساعة ست منها فى العربة وعشرة على ظهر الفرس ، وهذا الرجل الخالد الذكر هو من قبيلة اللزجين فى الداغستان ، وحقيقة أسمه (شمويل) ولكنه اشتهر فى مشارق الأرض ومغاربها بشامل و نحن نجارى الناس فى ذلك ونسميه دائماً بهذا الاسم المشهور .

لم يكن « الشيخ شامل» رجلاً حربياً فقط بل كان رجلاً دينياً وإدارياً. وهو الذى كون الجامعة القوقازية وأنشأ المحاكم الشرعية فى القوقاز وقد حارب الروسيا (45) سنة على التحقيق . منها 13 سنة تحت راية غيره و32 سنة مستقلاً بنفسه ، ولو لا خيانة «حاجي مراد» لما تمكنت الروسيا بكل حولها وقوتها وصولتها وسطوتها من أسره أبداً ، ولظل يحاربها إلى الممات .

«فحاجى مراد» هو إذن «يهودا القوقاز» أو حسن تحسين الذى داس بأرجله على عهود الوطن والدين ، وخالف واجبات الشرف والذمة وأضر بحقوق الأمة حيث سلم .

ولما وقع الشيخ شامل أسيراً فى قبضة روسيا خصصت لأقامته محلاً «بمدينة كالوجا» الواقعة على نهر اوكا . وهى على بعد 400 كيلو متراً من «مسكو» . وقد اقام هناك معظمها مكرماً إلى أن رخصت له الحكومة القيصرية بالسفر إلى الاقطار الحجازية فحج البيت الحرام وزارة الروضة الشريفة النبوية ثم اختار المدينة المنورة مقراً له أن انتقل الرفيق الأعلى رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه ورفعه إلى عليين مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

وبموت "الشيخ شامل" وزميله "الأمير عبد القادر الجزائرى" إنقرضت دولة الابطال فى الإسلام . وقد خلف ثلاثة أولادوهم "محمد شافع" وقد تربى فى مدارس روسيا ثم انتظم فى سلك الجيش الروسى ، ومازال يترقى فيه إلى أن وصل إلى رتبة جنرال ، وقد توفى من ثلاث سنين ودفن فى أرض الجراكسة ولاية قوراجاى . وغازى محمد باشا وقد مات هو الآخر فى المدينة المنورة ، "ومحمد كامل" وهو مقيم بها الآن . وقبر الشيخ شامل يوجد بالمدينة المنورة بجوار قبر العباس عم النبى وأمام قبر الأمام ابن حجر . وقد بعثنا بصورته فى شيبته وكهولته وشيخوخته إلى إدارة المؤيد الأغر ليراها هناك ويتبرك بها من يشاء .

والداغستان يقدرون بنحو 800 ألف نفس ولهم من الصفات . والأخلاق الفاضلة ما لا خوانهم الجراكسة ، والفضل فى تهذيبهم وتثقيفهم وبث روح الفضائل والكمالات فى نفوسهم وما هم عليه من الإستقامة والصلاح والتقوى يرجع إلى رجل من "علماء بخارى" اسمه "الشيخ محمد بن سليمان" . وكم لبخارى قديماً وحديثا من الأيادى البيضاء فى خدمة الإسلام والمسلمين . وعلى هذا الشيخ الجليل نبغ "الشيخ منصور" صاحب الدعوة إلى الجهاد ضد الروسيا ، ومن تلاميذه "الشيخ شامل والجراكسة والزجين والاباظا " من أقدم أمم القوقاز . ولم يعلم فى التاريخ أن أمما قبلهم سكنت هذه البلاد فلقد نزحوا إليها من آسيا الوسطى ، واستوطنوها قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة ، وفى القرن الثامن للميلاد أسلموا جميعاً فاعتز بهم الإسلام لأنهم فى الواقع قوة لايستهان. بها وكلهم يرجعون إلى أصل واحد تقريباً ، ولكنهم لما جاءوا القوقاز تفرقوا فى جهات مختلفة فاختلفت لهجاتهم الكلامية ، ولغتهم جميعاً لا تقرأ ولا تكتب ، ومن أظهر مخارج الحروف فيها "الحاء والخاء والسين والشين والقاف والغين" وكل معاملاتهم وصكوكهم تكتب باللغة العربية، وعلماؤهم وأئمتهم يعرفون هذه اللغة قراءة وكتابة لأنها لغة دينهم وزيادة على ذلك فأن الداغستان يقرؤون ويكتبون بالعربي ويتكلمون وكل هذه القبائل على إختلاف أنواعها تلبس لبساً واحداً يسمى "جركسكا" وهو عبارة عن جبة اسمها عندها شوخا وفى صدرها أصابع تسمى كازيرى كانت معدة فى الاصل لوضع الرصاص فيها ، وأصبحت الآن لمجرد الزينة والمحافظة على التقاليد القديمة ، وخنجر يتدلى على بطونهم اسمه" كنجال" وقد يكون جفيرة من الذهب مرصعاً بالحجارة الكريمة أو غير مرصع وقد يكون من الفضة أو غيرها على حسب مقدارة الشخص . وقلبق يوضع على الرأس اسمه باباخ وفى البرد يرتدون فوق هذه الكسوة برداء من الفرو الأسود على شكل عباءة اسمه فوركا .

وكذلك "الكورج" نصارى أو مسلمين يلبسون على الغالب هذا اللبس ، وتسمى الجبة عندهم آرخالوخ ، ومنهم من لا يضع الباباخ على رأسه ، ويلف عليها لفافة من القماش تسمى بابا ناقي ، وتتدلى منها عزبة خلف الظهر ومنهم من يغطي رأسه بقطعة قماش مصنوعة اسمها باشلاقي ، وهى عبارة عن قلنسوة لها زر لونه كلون القطعة وطرفاها يمتدان على الجانبين إلى الفخذين . و"الكورج" تنصروا فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع بعد الميلاد. ولغتهم تقرأ وتكتب والكتابة الكورجية وجدت فى القرن الرابع قبل المسيح وحروفها نسيج وحده فلا تشبه غيرها من الحروف الأخرى ، وقد خرج من الكورج جملة شعراء أهمهم "روستافللي" الشاعر الكورجى الكبير ، وكان عائشاً فى أواخر القرن الثالث ومن أعظم شعره قصيدة اسمها "جلد الفهد" .



القوقاز

ينقسم القوقاز إلى قسمين منفصلين عن بعضهما بسلسلة جبال القوقاز أحدهما فى أوربا والآخر فى آسيا. ولغات القوقاز هى "الكورجية والمنجريلية واللزجينية والسوانية ولغة الشيشانسي" وفيه أيضا اللغة الروسية والأرمنية والتركية والفارسية ، وعدد اللهجات الكلامية فيه يبلغ نحو" ثلاثين لهجة" ، وميزانية القوقاز 67 مليون روبل (نحو سبعة ملايين جنيه) ومعظم التجارة فى القوقاز بيد الأرمن وكذلك الصياغة فلهم فيها القدح المعلى حتى أن جميع جفار الخناجر والسيوف المرصعة هناك من صنع أيديهم ، وضباط العجم رعايا روسيا لا يحملون الكاسكيت العسكرية مثل أخوانهم فى الجيش الروسى . بل يلبسون القلبق العجمى مرسوما عليه شارة فارس مذهبة أو مفضضة، وهى كما لا يخفى عبارة عن أسد شاهراً سيفاً بيه اليمنى، وعلى ظهره قرص الشمس بأشعته إمضاءة. وفوق هذه الشارة التاج الروسى .

وعلمت أن البرد فى القوقاز فى زمن الشتاء يكون شديداً ،وقد الترمومتر إلى درجة أربعة تحت الصفر ، وقد يقع المطر ستة أيام متوالية فى بعض الجهات ، وخمسة عشر يومياً ليلاً ونهاراً فى الجهات الأخرى .

وكانت امتداد سلطة روسيا على القوقاز وجميع آسيا الوسطى فى القرن التاسع عشر ، ولكن "بخارى " لم تزل محافظة على إستقلالها تحت سيادة روسيا .

وحاكم القوقاز لقبه كلقب حاكم الهند أى نائب الملك . وعدد سكان القوقاز يبلغ نحو سبعة ملايين منهم ثلاثة ملايين مسلمون ومليونان من الكرج و 200 ألف منجرليان وهم و "الكورج نصارى أورثودكس وكاثوليك ولكن الأكثرية أورثودكس وفى الكورج 40 ألف مسلم ، والأرمن فى الدنيا 4 ملايين منهم مليون ونصف فى القوقاز ، وأثنان فى تركيا ، ونصف مليون فى العجم . وهناك طائفة من السكان اسمها السوانت غير معلوم عددها . وهم لا يزالون على الفطرة حتى أنهم ليكتسون للآن بجلود الغنم ، وكلهم أورثودكس وهم أفقر أهل القوقاز ومن سكان القوقاز أيضاً 300 ألف يهودى . والمنجرليان وأن كانوا كورجا إلا أن لغتهم لا تقرأ ولا تكتب بخلاف لغة الكورج كما قلنا وكل منهم إذا تكلم لا يفهم لغة الآخر .

وفي القوقاز فرقتان عسكريتان أحدهمت فى قارص على التخوم العثمانية ، والثانية فى تفليس وكل فرقة منهما تتألف من 70 ألف عسكري .

وسمعت في القوقاز في أحدى الجنائن العمومية في ليلة خيرية مزماراً وطبلاً بلدياً، وكان كل الزمارين والطبالين من العجم، ولكن شتان بين نغمات مزمارهم وبين نغمات مزمارنا فلا عدمت مصر مزمارها وطبلها البلدي، وكل مشخصاتها ومقوماتها الاهلية.

ومن فلاديقافقاز رجعت إلى« تفليس» بالاوتومبيل، ومن تفليس سافرت في السكة الحديدية إلى «باكو» فوصلتها بعد 14 ساعة وهي مدينة واقعة على بحر الخزر، وكانت تابعة للعجم ولكنها الآن ملك روسيا وكلها مبنية على الطراز الحديث وشوارعها منتظمة، وفيها النور الكهربائي وهواؤها ردئ وحرها أشدّ «تفليس» والسبب في ذلك وجود آبار النفط على بعد نصف ساعة منها.

وهذه الآبار وإن كانت تنفجر منها ينابيع الثروة وتفييض على أهل البلد النضار إلا أنها جعلت الطقس في الصيف لا يطاق. ولو أن المدينة على شاطئ البحر وعلى هذا الشاطئ رصيف طويل عريض كله بالاسفلت يسمونه البولفار يقصده الناس من بعد العصر، ويشتد فيه الزحام ليلا وفيه تصدح الموسيقى العسكرية ،وكله يضاء بالنور الكهربائي وبالقرب منه جنينة البلدية.

وتعد «باكو» عاصمة مملكة البترول والآبار الموجودة فيها وفي الضواحي البعيدة عنها بتسعة عشرة فرستا تبلغ مائة بئر. ومنها يخرج أكثر من نصف الجاز الذى يباع في أسواق الدنيا كلها. وفي «باكو» جملة فنادق أشهرها فندق أوربا وكان بأرباض باكو هيكل قديمة لعبادة النيران أسمه «زوراستر « ولكنه قد تهدم الآن، وتصدعت منه الجدران ولم يبق سوى أطلال بالية تنعق فيها البوم والغربان. وفي «باكو»كثير من المسلمين أصحاب الملايين منهم » موسى ناجي يوف» وثروته 60 مليون (سته ملايين جنيه) وقد مات و «الحاج زين العابدين تقي يوف» 50 مليوناً و «مرزا علي يوف» شرحه و «الشيخ علي داداشوف» 30 مليوناً و «مختاروف » 25 مليوناً.

وكان «تقي بوف» في أول أمره (شيالا) .وهو لا يعرف للأن سوى كتابة أسمه وعمره 72 سنة ،وله وابورات في البحر وبنوكه وفاوريقات ومآثره على قومه لا تعد ولا تحص. فكم أقام لهم المستشفيات وأنشأ المدارس لتعليم البنين والبنات، وله غير ذلك من الأعمال الخيرية ما خلد أسمه وعطر بذكره المحافل والمنتيات، وبعد أن كان لا يملك شيئاً من حطام الدنيا أصبح الآن صاحب خمسة ملايين من الجنيهات، وصار يأمر وينهي ويحل ويعقد ويتصدر في المجالس والمجتمعات.

إذا العناية لاحظت عبد الشرا   نفذت على ساداته أحكامه

وفي «باكو» أغنياء من الأرمن « كوكوساف» ثروته 80 مليوناً، ومانتاشيف 40 وهو صاحب معامل البترول في باطوم وقد مات.

وعدد سكان «باكون 200» ألف نفس منهم 100 ألف مسلم، و 50 الف أرمني، و 15 ألف كورجيو15 ألف يهودي والباقي من أجناس أخرى.



فى بلاد التاتار وفى بطرسبرج

سافرت من «باكو» إلى استرخان والمسافة 62 ساعة 48 ساعة منها فى بحر الخزر وست ساعات من مصب نهر الفرلجا. فى هذا البحر إلى البلد وإنما سمي «بحر الخزر» نسبة لأمة من أمم الترك قاطنة على شواطئه تسمى الخزر ، و مسطحه عبارة عن 1250 كيلو متر من الشمال إلى الجنوب، وعرضه يختلف من 280 كيلو إلى 46 وكله ملك الروسيا ما عدا ساحله الجنوبى فانه ملك العجم . والقسم الشمالي منه يتجمد معظمة فى السنة ثلاثة أو أربعة أشهر ، وفى الصيف يكون هذا البحر هادئاً وأما فى الخريف هائجاً جداً ، وهو يعد من أهم موارد الثروة فى روسيا ، وبه يصطادون الفقمة وأسماكا كبيرة وليس فيه شئ من جمال البحر الأبيض ولا جمال البحر الأسود ومن أهم موانى بحر الخزر خلاف «باكو كراستو فودسك والكسندر وفودسك» وتوجد على مصب نهر «الفولجا» فيه مدينة بتروفسك ، وبه جملة شركات بحرية تمخر بواخرها فيه ، وفى النهر معاً أهمها شركة سامولوث وقافقاز مير كورى ، وفى النهر شركة أخرى اسمها «فولجسكي» يمكن أن تذكر بجنب هاتين الشركتين .

وطريق «بخارى» يكون من «باكو» إلى كراستو فودسك ثم فى السكة الحديدية،هذه السكة الحديدية تمر على «مرووسمر قند وطاشقند وأورانبوغ وسامار وأوفا » ، وكلها بلاد إسلامية . ومعظم سكان الثلاثلا بلاد الأخيرة من التتار والمسافة من كراستو فودسك إلى طاشقند ثلاثة أيام بلياليها فى القطار ، وأحسن طريق إلى طهران عاصمة إيران باكو وانزلى (على بحر الخزر) ومنها فى ترعة إلى بير بازار ثم فى العربة إلى رشت فقزوين فطهران ، ومسافة هذا الطريق ثلاثة أيام من باكو . وهناك طريق آخر ولكنه أطول وهو باكو – جولفا – طوريس – قزوين – طهران .

أما «أسترخان» فمدينة تجارية فى غاية الأهمية حتى أنه ليصدر منها فى السنة مليون بود من البضاعة يبلغ ثمنها 100 مليون روبل . (البود معيار روسى يساوى 4 فونت والفونت رطل روسى يساوى 410 جرام فيكون البود عبارة عن 16 كيلو و 400 جرام) .

وسوق البترول رائجة فى أستراخان وكذلك الفحم والفواكه وجلود الغنم والأسماك ، ومن هذا النوع الأخير يصدر فى السنة 150 مليون فسيخة (هارنج) .

وفى أستراخان عشرة جوامع وعدد العمال الذين يشتغلون فى المراكب فى ميناها لا يقل عن خمسين ألفاً . وعدد سكانها 150 ألف نفس منهم 30 ألفاً من التتار والباقى روس. وفيها النور الكهربائى والترامواى وجنينة عمومية ، ومن أعظم فنادق أستراخان وأشهاها طعاماً نزل موسكو الكبير .

ومن أستراخان سافرت فى الفولجا على باخرة جميلة من بواخر سامولوث فمرت الباخرة على جملة بلادعامرة آهلة بالسكان جميلة المنظر ، ووقفت فى أهمها : منها سامارا وعدد سكانها 100 ألف نفس وفيها ثلاثة خطوط حديدية خط إلى موسكو ، وخط إلى سيبيريا ، ومنها سارَاتوف وعدد سكانها 200 ألف نفس ، ومنها قازان وهى ليست على نهر الفولجابل على فرع منه يقال له قازانكا وهذه المدينة مرتبطة مع موسكو بخط حديدى ، وتعتبر أهم مراكز التتار وعدد سكانها 160 ألف نفس النصف روس والنصف تتار . والنهضة العلمية فيها بين المسلمين حصلت من عهد عشر سنين وبها مدارس إسلامية زاهرة ، وكتبخانة يتردد عليها فى اليوم نحو 150 مسلماً ومطبعة كاديموي وهى أكبر مطبعة إسلامية فى روسيا ، وبها يطبع سنويا 200 الف نسخة من القرآن . وفى قازان 17جامعاً .

والتتار قوم فى غاية الشهامة والشجاعة ولهم شهرة فى الاقتصاد والاستقامة ، والقناعة وهم تجار ماهرون وزراع بارعون وأكثرهم يعرفون القراءة والكتابة والحركة العلمية بينهم فى» باغجه سراى وأستراخان وقازان وأورانبورغ وأوفا » فى غاية التقدم . ولهم جرائد مخصوصة ومجتمعات علمية ومدارس للبنين والبنات ، ومن نسائهن بعض العالمات ، وعدد المسلمين التتار فى أراضى الفولجا نحو مليونين ومركز شيخ إسلام التتار فى اوفا، واللغة التتارية هى بنت عم اللغة التركية ، وبينهما من المشابهة ما بين اللغتين الطليانية والاسبانية ، وكمان أن الأنكليز والامريكان أولاد عم كذلك التتار والترك أولاد عم ولذلك تراهم يهتمون أهتماما زائدا بكل بالدولة العثمانية حتى أنهم ليفرحون لفرحها و يحزنزن لحزنها ،وعدد المسلمين التتار فى روسية أوربا ستة ملايين أكثرهم فى أستراخان وقازان وأور انبورغ وأوفا وسامارا وطنبو وبلاد قاسم وسعيد ومن أهم التتار موسى جار الله ولد فى روستوف . وطلب العلم فى قازان وبخارى والمدينة المنورة ومصر وعمره الآن 35 سنة ، ومنزلته فى بلاد التتار كمنزلة الشيخ عبده فى مصر ، وهو يعد هناك من كبار المصلحين الدينيين وله جملة تآليف ورسائل جليلة .

وقد سألنى التتار عن «الشيخ محمد عبده» «والشيخ على يوسف» و «الشيخ رشيد رضا ومصطفى باشا كامل وفريد بك» وجدى وشكروا لهم صدق غيرتهم على الدين وأثنو الثناء الجميل على خدماتهم الجليلة للإسلام والمسلمين .

وعلى بعد ساعتين من قازان يشاهد على القولجا كوبرى من أجمل وأتقن نوع وبعد سبعة أيام من أستراخان وصلت السفينة إلى «نيجنى نوف جورود» وهى واقعة على ملتقى نهر أوكابنهر فولجا ، وكان منعقداً فيها وقت زيارتى لها السوق الكبير (يارماركا) وهو ذلك الذى يجتمع فيه الكثيرون من أهل روسيا خصوصاً الفلاحين ، ويقصده تجار التتار وينعقد رسمياً فى 15 يوليو من كل سنة ، وينتهى فى 15أغسطس . وأجر غرف النوم

وقتئذ تكون باهظة جداً أما الأكل فكالعادة سكان نيجنى 100 ألف نفس وللتتار فيها بعض الجوامع والمدارس .

ومن «نيجنى» سافرت فى الفولجا فمرت الباخرة على بلاد كبيرة عامرة من أهمها – أوسترامـ ويوجد عند بلد اسمها «باراسلاوى» كوبرى بديع الصنع مثل الكوبرى الذى بعد قازان ، وبعد سفر يومين وصلنا إلى ريبنسكى مدينة الغلال فى روسيا وهنا إنتهت السياحة فى الفولجا. وهذا النهر من أكبر الدنيا ، وله فى روسيا المقام الأول جميع أنهرها وهو يخترق روسية أوروبا كلها من شمالها إلى حنوبها وطوله 3400 فرست منها 3000 صالحة للملاحة ، ومنبعه فى اسمها أو «ستاشكوف»فى كحومة توير ، وعلى نحو 100 فرست من المنبع خزان طوله 700 فرست يصرف منه الماء فى زمن التحاريق فيرتفع منسوب النهر ويعود ذلك على الملاحة بالنفع العظيم . ومن الفولجا يتفرع نهران كبيران «نهر كاما ونهر أوكا» . وفى وادى الفولجا 23 حكومة (ولاية) عدد سكانها 40 مليون نفسو ، على ضفتيه 39 منها تسع عواصم من عواصم هذه الحكومات ، وأكثر من ألف بلد وآخره عند «مدينة توير» وهى مرتبطة مع «موسكو وبطرسبورج» بخط حديدي وبينها موسكو ثلاث ساعات والناظر إليه عند مرور القطار على هذه المدينة يقع فى دهشة ولا يكاد يصدق أنه هو نفس نهر فولجا العظيم الذى تمخر فيه الوابورات بين أستراخان ورينسكى لأنه فى هذه الجهة أى جهة المنبع يشبه تقريباً ترعة من ترع مصر ، وكلما بعد عن المنبع وقرب إلى المصب زاد اتساعه وتدفق ماؤه تدفقاً يشبه إندفاع مياه النيل ، وغزارتها فى إبان فيضانه .

وشواطئ الفولجا عارية ليست كشواطئ النيل التى تتيه دلالاً بما عليها من شجر الدوم والنخيل . والنقط القليلة الماء فيه معلمة على طول النهر بعوامات صغيرة قمعية الشكل على خطين خط أبيض وخط أحمر وكلها تضاء ليلاً من أعلاها بالكهرباء ، وعلى ضفتيه عمد ملونة جميلة الشكل متباعدة بعضها عن بعضها بمسافات معلومة ، وهى كذلك تضاء بالكهرباء . وفى بعض جهات يكون عرضه قدر عرض النيل مرتين ، وأما طوله فأقل من طول النيل بكثير، وهو يصلح للملاحة مدة ستة أشهر والستة الباقية من السنة يتجمد ماؤه ويصير كله جليداً .

وفى الفولجا يربطون مراين الخشب بعضها ببعض ربطاً محكماً و يجعلون الجزء الظاهر منها أقل من الغطس بكثير ، ويضعون فوقها الأشارات نهاراً ويوقدونها بالمصابيح ليلاً ، ويبنون عليها غرفاً من الخشب ويقطرونها بقاطرة بخارية فيكون لها أثناء سيرها فى النهر منظر جميل وبهذه الوسيلة يتخلص التجار من دفع أجرة باهظة على الخشب فيما لو شحنوه كله فى باخرة . ولون ماء الفولجا فى الصيف كلون ماء النيل فى شهر طوبه .

وروس الفالجا ليسوا فى درجة من المدينة والتهذيب مثل «بطرسبورج وموسكو وكييف وأودسا » وقطع الأكل عندهم كبيرة حتى أن نصف الكوستليته الواحدة ليكفى لتغذية أثنين معاً .

(بطرسبرج)

ومن « ريبنسكى» أخذت القطار إلى «بطرسبرج » فوصلتها بعد 16 ساعة . وهى مدينة كبيرة على ضفتى النيفا وفى غاية الحسن والرشاقة ، وقد أسسها « بطرس الأكبر سنة 1703» على أثر الإنتصار الذى أحرزه الأسطول الروسى على بلاد السويد فى خليج فنلاندا، وبلغ عدد سكانها فى آخر حكمه 70 ألف نفس ، وهو الآن أكثر من مليون . وفى سنة 1824 فاض نهر النيفا فأغرق المدينة ، وكان الخطر عظيماً والمصاب عميماً فوقفت حركتها عشر سنوات ، ولكنها أخذت بعد ذلك فى التقدم فزاد عدد السكان واتسع نطاق العمران ، وكلها الآن مبنية على الطراز الحديث وشوارعها فى غاية الاستقامة كالألف فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، ومن أهمها وأجملها شارع النيفا وهو شارع طويل لايدرك الطرف مداه ، وبه ترع صناعية حسنة الوضع بديعة الصنع .

والنور الكهربائي منتشر فى « بطرسبورج» بكثرة وخطوط الترام فيها كخطوط الكف أو كالشرايين فى الجسم ، وبها ميادين ذات أشجار باسقة ومياه دافقة وأزهار ورياحين . وأجمل مناظرها ما كان على شاطئ النيفا أو في الجزر الموجودة به المسمى مجموعها اوسترآما وهى ثلاثة : « يلاجين وكوستوفوسكى وكامنى» وهناك جزيرة رابعة أسمها بازل ولكن ليس فيها شئ سوى المنازل .

ودرجة الحرارة فى «بطرسبورج» تنزل فى الشتاء إلى 25 درجة تحتالصفر بميزان سانتيجراد (أما فى سبيريا فتنزل والعياذ بالله إلى 40) ونهر النيفا فى هذا الفصل يتجمد ماؤه ، ويكون المرور عليه وقتئذ بزحافات ، وهواء «بطرسبرج « لا بأس به فى الربيع والصيف فقط .

وقصر الشتاء فى «بطرسبورج « على ضفة النيفا من جهة وميدان فسيح من جهة أخرى ، وفى وسط هذا الميدان عمود من الحجر المحبب (الجرانيت) اسمه «عمود أسكندر» . وهو قصر رفيع العماد لم يخلق مثله فى البلاد فلا الخورنق يحاكيه ولا أى قصر من قصور الملوك فى أوروبا يدانيه . وفيه 1600 غرفة وكلها مؤثثة بالأثاث الفاخر والرياش الثمين ، وبه الكنز الامبراطورى وهو يحتوى على «صولجان مرصع بقطع ماس» من أكبر ما يوجد فى أوربا و «تاج كاترينه الثانية » وثمنه 100 ألف جنيه وصليب كبير مرصع بماس ، وأوانى جميلة من خزف سيفر ، وطنافس بديعة للغاية .

والقصير مصور فى «بطرسبورج » على جملة صور بأشكال مختلفة منها صورة تمثله

بصفة جندى بسيط لابساً ملابس عسكرية وعلى ظهره الجربندية والحرام . وفى خصر الزمزمية وفوق كتفه الشمال البندقية وولى العهد (تزاريفتش) عمره الآن تسع سنين .

وفى «بطرسبوج » كنائس فخيمة جداً أهمها كنيسة «القديس إسحق» وأصله من دلماسيا وكنيسة قازان زكنيسة القيامة ، وقد أسست هذه الأخيرة على أحسن طراز وأجمل هندام فى المحل الذى قتل فيه «الامبراطور أسكندر الثانى» غدراً بيد النهلست فى أول مارس سنة 1881. وقواعدها من الرخام الأسود المصقول مالمرآة . وأنى للقلم أن يوفى هذه الكنائس بعضى حقها من الوصف والجمال ، وما حوته من الطرائف والنفائس . وغاية ما يمكن أن يقال بالاجمال أنها آية الحسن والإبداع بل عروس الكنائس .

وفى قلعة «ماربولس وماربطرس» التى أسسها بطرس الأكبر على شاطئ النيفا الأيمن توجد كنيسة باسم هذين القديسين الكبيرين بها قبور القياصرة من إبتداء بطرس الأكبر لغاية اسكندر الثالث والد الأمبراطور الحالى . وبها أيضاً قبور كبار العائلة الحاكمة . وفى هذه القلعة يضرب مدفع الظهر كل يوم وبها دار الضرب .

وفى «بطرسبورج »دير الكسندرنيفسكي الذى غلب السويديين فى سنة 420 به كنيسة البشاره المدفون بها أعاظم الكتاب ومشاهير الرجال فى روسيا فهى كالبانتيون فى باريس المنقوش على بابه (لعظماء الرجال شكر الوطن) .

وزيادة على هذه الكنائس الروسية يوجد فى بطرسبورج كنائس الأرمن والكاثوليك والبروتستانت وكنيس اليهود فى غاية البساطة والحسن وأمامه على ربوة «سفينة نوح» ويوجد فيها جامع فخيم للمسلمين فى شارع كون بورج على شاطئ النيفا الأيسر ، وقد بلغت تكاليفه مليون روبل (مائة ألف جنية) جمعت كلها بالإكتتاب وهو على طرز جوامع التركستان وله مأذنتان .

والفصل فى بناة عائد إلى بخارى المعظم فإنه لمازار جلالة القيصر قال يامولانا لكل أمة فى بطرسبورج من رعاياك معبد ماعدا المسلمين ، وهم هنا كما لا يخفى على الأنظار العالية غير قليلين فهل لجلالة القيصر أن يأذن لهم ببناء جامع يجمع شتاتهم ويلم شملهم، ويقيمون فيه كفيرهم شعائر الدين فأظهر القيصر ارتياحه إلى هذا الطلب العادل ، وأمر ببناء الجامع وهى مأثرة جليلة يذكرها لجلالة القيصر « نقولا الثانى » بالشكران على مدى الزمان رعاياه المخلصون من المسلمين ، ويشركهم فى الدح والثناء فى بقاع المسكونة كافة أخوانهم فى الدين .

وفى « بطرسبورج » كتبخان اسكندر المشهورة وبها مصحف كبير بخط اليد كما فيها أكاديمية الفنون الظريفة وأكاديمية العلوم التى بداخلياً كتبخانة فيها ثلاثون ألف مجلد ، وكتب أخرى كثيرة بخط اليد ومجموعة نقود ومداليات ثمينة ، ومتحف نباتي ومتحف جيولوجى ومتحف أسيوي .

وفى «بطرسبورج » متحف حيوانى ومتحف الايرميتاج وبه « آثار مصرية وأشورية وتماثيل يونانية ورومانية »، ومجموعة نقود ومداليات فى ثلاث غرف ، وكتبخانة

تحتوى على مائة ألف مجلد ولوحات صور ورسوم فرنساوية وطليانية وأسبانية .

وفى بطرسبورج متحف «اسكندر الثالث» ومتحف مشتمل على كثير من تحف - الصنيين واليابانيين - وبها متحف البيداجوجيا ومتحف الطوبجية ومتحف آسيا ومتحف الموسيقى ومتحف بطرسبورج القديمة متحف سيبيريا والشرق الأقصى ومتحف الطب العسكرى ومتحف التاريخ الطبيعى . ومن ضمن مافيه حيونات هائلة وحيتان كبيرة وثعابين ضخمة ، وطيور من التى تعيش فى الثلج وغير ذلك . وفيها متحف قوانين الصحة ومتحف المقاييس والموازين ومتحف بحرى فى نظارة البحرية فى الدار العظمة التى أسسها بطرس الأكبر المعروفة بالاميروتية ، وفى هذه الدار أيضاً كتبخانة كبيرة .

وفى بطرسبورج رصد خاناتان وميدان فسيح جداً اسمه شان دومارس أسسه بطرس الأكبر لأقامة الأعياد الأهلية وعمل الإحتفالات العسكرية .

وبالقرب من قلعة القديس «ماربولس وماربطرس» منزل بطرس الأكبر . على ما كان عليه فى أيامه وأكثر الأدوات والمفروشات الموجودة فيه من صنع يده .

ولبطرس الأكبر فى بطرسبورج ثلاثة تماثيل مختلفة وفيها تمثال «لكاترينة الثانية ولنقولا الأول » الذى حصلت حرب القريم فى أيامه. والاسكندر الثالث مؤسس سكة حديد سيبيريا العظمة .

ودواوين الحكومة فى» بطرسبورج» فى غاية الفخامة ومن المبانى العظيمة بناية مجلس شورى الولة والسينود المقدس والدوما ,

وأسباب البسط والأنشراح فى «بطرسبورج « متوفرة صيفاً وشتاء توفرها «برلين وفيينا وباريس ولوندرة » ففيها تياترات من كل نوع ، وملاهي مختلفة أشهرها الأكواريوم وكازينو وجنائن عمومية ، ومطاعم فاخرة منها «مطعم كوبات» وهو أغلاها ومطعم الدب ومطعم فرنساوى ومطعم طليانى وفيها محلات لبيع تذاكر السكك الحديدية وأسرة النوم وتذاكر الملاحة النهرية والبحرية وفنادق معتبرة منها فندق أوربا وأستوريا وانكلترة وفرنسا وريجينا .

وكل السفرجية فى مطاعم هذه الفادق مسلمون من التتار. وهم العموم بارعونم فى الخدمة براعة اللأفرنج فيها ، ولا يقلون عنهم مهارة وسرعة ونظافة وتأدباً وخفة ورشاقة، وفى أثناء تأدية وظائفهم يكونون بالملابس الأفرنكية ، وحاسرين عن رؤوسهم ولولا ضيق عيونهم لحسبتهم أفرنجاً خلصاً .

وعدد المسلمين فى «بطرسبورج » 12 ألف نفس . ومن ضواحى «بطرسبورج » بتروهوف وهى قسمان بتروهوف القديمة وبتروهوف الجديدة ، وفى هذه قصر الصيف على شاطئ البحر أمام كرونستاد ذلك الثغر الحربى المشهور ، وهو وإن كان أصغر من قصر الشتاء إلا أنه لا يقل عنه بهجة ورواء ورياشا فمن قاعة العرش إلى مفروشة كلها بالحرير الأبيض، وتسمى القاعة البيضاء إلى أخرى بالحرير الأزرق وتسمى بالقاعة الزرقاء إلى حجرة « حجرة

بطرس الأكبر» إلى غرفة صينية كلها تحف جميلة من تحف الصين ، وهكذا مما يتخيل معه الأنسان عند الطواف فى هذا القصر وفى أخيه قصر الشتاء فى «بطرسبورج» أنه يطوف فى غرف الجنان . وفى يتروهوف الجديدة نوافير وعيون ينفجر منها الماء على أشكال مختلفة تروق الناظر وتسر الخاطر ، وهى على مثال مياه فرساى الشهيرة فى فرنسا. ولكل عين من هذه العيون اسم فمنها واحدة تسمى عين آدم ، وأخرى تسمى عين حواء وهكذا . وهناك حدائق غناء تصدح فيهاموسيقى المعية القيصرية مرتين فى الأسبوع وكل رجالها ضباط يرتدون وقت العمل بفريتكة حمراء فوق البنطلون ويتحزمزن عليها بحزام . وبروجرامها يوزع على الناس وكل الأفرع مكتوبة فيه باللغة الفرنساوية .

ولم يصرح لىَ بزيارة القصرين الابعد الأطلاع على الباسبور والتحقيق من شخصيتى .

وهذا وكل قصور الملوك فى أوربا معدة للذيارة والفرجة فى أوقات معينة ، ولكل إنسان أن يشاهدها متى كانت خالية من أربابها.

«ولبطرس الأكبر» فى تلك الجهة منزل كان يصيف فيه وهو الآخر لايزال كما كان مدة وجوده حافظاً لشكله القديم ، ولجميع الأثاثات والأدوات التى كان يستعملها هذا القيصر العظيم .

وفى «بطرسبورج » جملة جرائد كبيرة منها النوافى فريما وغيرها ، وثمن النسخة الواحدة منها 5 « كوبك أى قرش تعريفة » كما فى مصر . وفيها جريدة تنشر باللغة الفرنساوية واسمها جورنال دوسان بطرسبورج وهى الآن فى السنة الواحدة بعد المائة من عمرها .

ومن بطرسبورج إلى باريس طريقان أحدهما بطرسبورج - برلين - باريس ومسافته 48 ساعة والثانى بطربسبورج - فارسوفى - الكسندروفو - برلين - باريس ومسافته 53 ساعة .

وفى سياحتى الأولى فى روسيا كاد الليل فى «بطرسبورج » فى شهر مايو أن يكون كله فجراً . فلا توقد فيه المصابيح لافى الطرقات ولا فى العربات ، وكنت أذا أويت إلى غرفتى وقت النوم لا أجد حاجة لتنويرها إكتفاء بذلك النور الهادى اللطيف نور الفجر الدائم ، والشمس فى تلك المدة كانت تغرب فى الساعة التاسعة مساء وتشرق فى منتصف الساعة الرابعة بعد نصف الليل .

ومن بطرسبورج إلى موسكو عشر ساعات فى الإكسبريس .



آخر السياحة

«موسكو» مدينة مقدسة عند الروس . وكلها مضاءة بالنور الكهربائى ، والترامواى يسير فيها من أولها إلى آخرها ، واسمها بالروس «موسكوفا» وإليها ينسب الموسكوف ، وهى من الروسيا بمثابة القلب من الجسد ، ولذلك يسمونها قلب روسيا . وكما أن «رومه» عاصمة الديانة الكاتوليكية كذلك «موسكو» هى عاصمة الديانة الاورتوذوكسية، واللغة الروسية فى موسكو فصيحة نقية . بل هى أجمل وأفصح منها فى غيرها من جميع البلاد الروسية كما أن اللغة الفرنساوية فى تور واللغة الطليلنية فى سيينا وفلورانسا أفصح فى منهما فى سائر البلاد الفرنساوية والطليانية ، وتجار موسكو بارعون فى التجارة لدرجة أنهم يفوقون فيها على تجارة روسيا كلها .

وفى «موسكو» كنائس فخمة جداً منها «كنيسة كرملين» التى يتوج بها القياصرة عند جلوسهم على العرش ، وفيها قبور القياصرة القديماء مثل « ميخائيلوف والكسيس وتيودور » ، وفى موسكو ناقوس قديم ذو زنة كبيرة حتى أنه لضخامته وعظمه يسمونه قيصر النواقبس ، وبها جملة مزارات منها رواق للصور والرسوم اسمه» جالليرى تريشيجوف» وفيها جملة تياترات وملاهى وقصر جميل للقيصر ، ويقولون أن هواء «موسكو» وإن كان بارداً فى الشتاء إلا أنه جاف ولا ضرر منه ، وفيها فنادق كبيرة مهمة منها «المتروبول والناسيونال والسافوراى والكونتينانتال «ونزل «موسكو « الكبير وعدد سكان موسكو ينيف عن المليون ، ومنها إلى سواسطابول فى القريم بالسكة الحديدية 30 ساعة ، ونحو ثلاثة أيام إلى تفليس فى القوقاز .

وفى موسكو قابلت رجلاً تتريا فسألته بالتركى كم عدد التتار هنا فعبس وتولى ثم أستفهم منى بخشونة وغلظة - سن كم ؟ أنت من ؟ فعرفته بنفسى فلم يقتنع بل فتح محضراً وعمل معي تحقيقاً - س - نره ليسن - أنت من أين ؟ مصرلي - من مصر - نه وقت كلدك - متى جئت - ج - دون اخشام - البارحة مساء - س - مسلماني سن - امسلم أنت - ج - أوت أفندم بن مسلم . انمي سن - نعم ياسيدى أنا مسلم .

وهنا طوى المحضر وبعد أن تفرس فيه قليلا .أراد أن يمتحننى ليعرف أن كنت حقيقة مسلماً أغير مسلم فقال لي: بكل بساطة وسذاجة ولكن بصوت أجش - شمدى ألم نشرح لك صدرك أو قوسنا - هايدى باقلم - الأن أقرأ لنا سورة ألم نشرح - هيا لننظر - فحمدت

الله على أن وقع اختياره على هذه السورة ولم يقع على غيرها ، وقلت فى سرى الخطب سهل وجابته بكى أفندم أي سمعاً وطاعة . تعوذت بالله من الشيطان الرجيم وسميت بسم الله الرحمن الرحيم ، ورتلت له السورة ترتيلاً فانشرح صدر الرجل ، وأقبل على وهش وبش فى جهي بعد أن كان عابساً ، وقال لي: ياغجي – صاغول أوك (الكاف تنطق نوناً) أي عظيم – أشكرك ، وما كان أسرع بعد ذلك أن أجابنى إلى ماطلبت ثم سلم على، وانصرف مسروراً وعلمت منه أن عدد المسلمين فى موسكو 18 ألف نفس ، ومن نحو عشر سنين تعرفت فى موسكو ابفخر روسيا ، وعلمها الخفاق الجامع بين فضيلتى العلم والعمل ، ومحب الجنس البشري على الإطلاق نابغة الزمان ومعدن الفصل والعرفان الفيلسوف الكبير تولستوى (وأصلة ضابط فى الجيش) . وكان نازلا وقتئذ عند أحد مريدية ولابساً ملابس الفلاحين، وهى أحب شئ إليه وقد دعانى لزيارته فى بلده «ياسنايابوليانا» فشكرت واعتذرت .

ولا غرابة إذا وفى « تولستوى » النبى حقه فى كتابه (حكم النبى محمد) فإنما يعرف الفضل من الناس ذووه ، والرجل جواد مضياف كثير الرماد ، وكانت داره قبل موته مهبط الحكمة العالية ، وكعبة القصاد من سائ البلاد . ومن مبادئه نشر لواء السلام وبث روح المحبة والإخاء بين جميع الأنام ، وحب الفلاحين والعطف على الفقراء والمساكين ، وإحتقار المال حتى أنه وزع معظم ثروته على البائسين والمعوزين، وعاش عيشة الزهد والتقشف وما كان يألو جهداً فى كل وقت ، وآن فى تخفيف ويلات بنى الإنسان وتبديد ظلمات الجهل وتنوير البصائر والأذهان . وكان ينظر إلى هذا الوجود بنفس العين التى كان بها إليه الشاعر الكبير والفيلسوف العربى الخطير «أبو العلاء المعري» فى قوله :

واللبيب اللبيب من ليس ... يغـتر بكون مصيره للفساد

ولكنه مع زهده وأعراضه عن الدنيا ورغماً من شيخوخته وتقدمه فى السن لم تمت همته، ولم يجنح قط إلى البطالة والكسل . بل كان يعمل على الدوام ولا يمل أبداً من العمل ، وبالجملة فمنزلة تولستوى عند الروس كمنزلة كونفسيوش عند الصينين ، والروس يحبونه حباً يقرب من العبادة حتى كان فى حياته إذا طرق أى باب فتح له فى الحال وقوبل بكل ترحاب .

ومن «موسكو» إلى «كييف» 22 ساعة فى الكوريسكي . وكييف مدينة جميلة على «نهر الدنيبر» وفيها الترامواى والنور الكهربائى ، وشوارعها واسعة وفى غاية النظافة وكنائسها جميلة ، والديورة أجمل وبها جثمان جماعة من القديسين ، وفى كييف لوكاندات عظيمة منها «السافواى والكونتينانتال » وغيرهما وعدد سكانها 600 ألف نفس منهم 2000 مسلم والدنيبر نهر كبير منبعه فى حكومة سمولنسك وطوله 2005 فرست ، ويخترق تسع حكومات ويصب فى البحر الأسود ، وليس كله للملاحة .

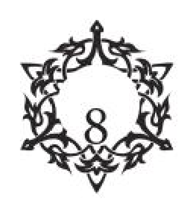
وفى سياحتى الأولى فى الروسيا زرت «ريفال « وفيها أسطول البلطيق ، وفيلنا ومعظم

أهلها يهود وريحاً، وأكثر سكانها ألمان «وهلزنجفورس» عاصمة «فنلندا». وهى على شاطئ البحر «وفارسوفى» عاصمة «بولونيا» ، وما أكثر اليهود فيها ، وكلها بلاد لطيفة فى غاية التقدم والعمران .

ومن «كييف» إلى «أودسا» نحو 10 ساعات بسكة الحديد ، ويوجد الآن قطار يقطع المسافة من بطرسبورج إلى أودسا فى 32 ساعة .

ومن «أودسا» إلى «الاستانة» 344 ميلا ، ومن «الاستانة» إلى «الدردنيل» 135 م . ومن «الدردنيل» إلى «أزمير « 142 م ومن «أزمير» إلى «بيريه» 211 م . ونصف ، ومن «بيريه» إلى «اسكندرية» 539 م تمت السياحة ولم يبقى إلا بعض كليمات على تاريخ روسيا وشئونها العمومية .





ذيل السياحة

(1)

أخبار ومعلومات عن روسيا

فالروسيا لها الآن فى الوجود 1050 سنة . وأول عواصمها نوف جورود (المدينة الجديدة) على بحيرة دلمي وهى على بعد 150 كيلو متر من "بطرسبورج " وثانى عاصمة "كييف" والثالثة "موسكو" والرابعة "بطرسبورج " وقد حكم الروسيا عائلتان "روريك وعائلة رومانوف" ، وهى العائلة الحاكمة الآن . وررمانوف هذا كان بطريقاً على موسكو وأول من تولى أريكة الملك من ذريته "القيصر ميخائيلوف" وتلاه" الكسيس" ثم "بطرس الأكبر" وهو أول من لقب بلقب إمبراطور .

وقد حكم الروسيا أيضاً التتار المسلمون 250 سنة والسعيد من الروس فى العهد من كان يزوج بنته إلى أمير من أمراء التتار .

ولما إختلفت كلمة التتار ودبت بينهم عقارب الشقاق انتهز هذه الفرصة "الغراندوق ديمترى دون سكوي" وقاتلهم حتى أجلاهم عن أرض الروسيا وأرجعهم إلى بلادهم الأصلية . وكانت ذلك فى سنة 1380 وفى سنة 1552 استولى القيصر أيوان (أى حنا) الملقب بالمهول على قازان عاصمة التتار ، وبعدها بسنتين أخذ أستراخان ومن ذلك الوقت إلى الآن أصبح التتار تحت حكم الروسيا بعد أن كانوا سادتها وحكامها، فانظر ياصاحا إلى تقلبات الزمان .

فيوم علينا ويوم لنا ويوماً نساء ويوماً نسر

وقد دخلت "الديانة النصرانية" فى روسيا فى القرن العاشر للميلاد على يد قسس أروام من قسس القسطنطينية . ترجموا الإنجيل إلى اللغة البلغارية القريبة من اللغو الروسية، وكانت هذه الترجمة من أقوى العوامل على انتشار المسيحية فى روسيا . وأول من تنص من الروس الغراندوقة أو لغا وقد تم تنصيرها فى القسطنطينية ، وكان عرابها الإمبراطور "قسطنطين بورفيرو جينيت" وبعدها تنصر حفيدها "فلاديمير" وهو الذى نشر الديانة النصرانية فى روسيا كلها حتى عده الروس من كبار القديسين ، وانزلوه منزلة الحواريين، والرسل الأولين .

وكنائس روسيا لا تقل الآن عن 500 ألف كنيسة والقساوسة يبلغون المليون عداً ، وكلهم أقوياء البنية جداً ولهم منظر مهيب ونفوذ وسطوة على قلوب الشعب ، ومن عاداتهم أنهم يرخون شعورهم وراء ظهورهم ، وكان لروسيا فى أول أمرها بطريق له الرئاسة العظمى على جميع رجال الدين ، ولكن "بطرس الأكبر" لما رأى أن البطريق معارض له فى الإصلاح ودائماً يقف حجر عثرة فى سبيل تقدم البلاد وإنهاضاً أمر بإلغاء وظيفته ، ومن وقتها إلى الآن صارت السلطة الدينية والسلطة الدنيوية فى قبضة قياصرة روسيا العظام ، ولم تقم للبطارقة قائمة بعدها فى البلاد .

وأغلب قباب الكنائس الكبرى فى روسيا من البرونز المذهب ، ومنها ما هو على شكل القباب الطيارة والدين الأورثوذكسي فى روسيا أرسخ من جبل رضوى على ظهر الأرض . حتى أنك لترى فى كل مكان منها فى الطرقات فى الدواوين فى المصالح فى البواخر فى اللوكاندات فى غرف النوم فى المطاعم فى القطارات "أيقونات للمسيح والعذراء" والرسل لا تنقطع من حولها الأنوار لا بالليل ولا بالنهار . وكلما مر أحد أمام كنيسة رسم الصليب بيده على وجهه إلى صدره تعظيماً وتكريماً (وكذلك الحال غالباً عند الإبتداء فى الأكل وبعد الفراغ منه من باب الشكر على النعمة) . ومن الكنائس ما هو مرسوم على جدارنها من الخارج صورة القديسين ليكونوا شهداء على الناس . والصلاة عند الروس بلا أرغن ولكنها قد تتخللها بعض تراتيل دينية .

وما أجمل كنائس "بطرسبورج وموسكو وكييف" وما أفخمها . أن العقل ليحار فى وصف بدائعها ومحاسنها ، وما اشتملت عليه فى الداخل من النفائس والذخائر الثمينة ففى كنيسة القديس أسحق وفى كنيسة قازان فى "بطرسبورج" ترى محل أكليل الشوك على رأس المسيح أكليلاً من ماس بديع الصنع ، وترى العذراء مرسومة وفى أناملها الخواتم الغالية وفى جيدها قلائد الدر و الجواهر .

ولعمر الحق لو نزل المسيح إلى الأرض وشاهد ما عليه بعض رجال الدين من الترف والنعيم وما يتشحون به من الخز والديباج ، وما يسكنونه من القصور الباذخة لأحالهم على مجلس تاديب ، وعاد يعظ الناس من جديد موصياً طغمة لا كليروس بالزهد والتقشف ، أو على الأقل بالقناعة فى المأكل (والمشرب) والبساطة فى الملبس حتى فى أيام الآحاد والمواسم والأعياد . لأن مملكته ليست من هذه الدنيا ولو رأى ما وضعوه على صورته الكريمة من الحلى الباهرة لخانه حلمه المعهود وانتزعها بيده غضبان آسفاً ووزعها فى الحال على الفقراء والمساكين ليكون لهم من ثـمنها رؤوس أموال تنقذهم من مخالب الفقر والفاقة ، حتى لا يعيشوا بؤساء ويموتوا تعساء ولا ذنب لهم سوى أنهم ولدوا فقراء .

أما إذا فتش الكنائس بنفسه وعلى الأخضر كنائس بطرسبورج وروما ومدريد ومالطه والقديس وبيت لحم مسقط رأسه ووقف على ما تحويه خزائنها من الأعلاق المصوغة من الذهب الخالص والمرصعة بالجواهر واللآلىء ، لهاله الأمر واستهوته أشجان ولأمر بالأفراج عنها فوراً مكتفياً بالذخائر الأخرى ، وأشار ببيع الحجارة الكريمة وسك الذهب إلى نقود للتداول بين الناس حتى يقل الشقاء المستحكم حلقاته على الأرض ، وتخفف وطأة الفقر فى هذا العالم فيتشتت شمل العدميين ، وتنحل عصابات الفوضويين وينضمون إلى

أحصان أمهم الكنيسة ،ويعودون إلى حظيرتها ويصحبون جميعاً من أبنائها الصادقين ومحبيها المخلصين .

وبعد هذا كله لا أدرى لماذا يحيطون بعض كنائس القوقاز مثل كنيسة باطوم وكنيسة تفليس بالمدافع التى غنمها الروس فى حروبهم مع الترك أو الجركس أو نحوهم ، مع أن الكنائس لم تكن فى الأصل إلا لنشر المحبة والسلام ، ولم تجعل متاحف لتذكر الناس بسفك دماء الناس وصربهم بالمدفع وقتلهم بحد الحسام . والتقويم المتبع فى روسيا هو التقويم الجولياني العتيق . وهو المتبع أيضاً فى رومانيا والصرب والجبل الأسود وبلغاريا أى فى البلاد التى أهلها أرتوذكس مثل الروس بل هو من ضمن التقاويم الجارى عليها العمل إلى الآن فى نفس القسطنطينية ، وفى معظم البلاد التركية ويرمزون له فى الجرائد التى تنشر فيها باللغة الفرنساوية بحر فى (v.s) أى Vieux Style (طرز عتيق) ويسمونه عندنا هنا حساباً شرقياً. أما التقويم المتبع عند" الكاتوليك والبروتستانت " فى أوربا وغيرها من القارات فهو كما لا يخفى التقويم الجريجوريانى .

والفرق بين الشهر الروسى والأفرنكى ثلاثة عشر يوماً فإذا ضممت هذا العدد إلى تاريخ أى يوم فى الشهر الأفرنكى كان عند التاريخ الروسى مثال ذلك أول سبتمبر فى روسيا يوافق 14 منه فى أوربا ومصر وبالعكس أطرح عدد 13 من تاريخ الشهر الروسى يكون عندك التاريخ الأفرنكى.

وعدد العساكر الموجود تحت السلاح فى روسيا ثلاثة ملايين ، وأما الاحتياطى فلا له . وإن كان العساكر البرية أقوياء أشداء فالعساكر البحرية أشد وأقوى .

ومن العساكر البرية نوع يقال له القوازق (وهى كلمة تتارية معناها قاطع الطريق). وهم نصارى ومسلمون وبوذيون ، فالنصارى قوازق الدون والمسلمون قوازق الجراكسة وأورال وسيبيريا ، وهؤلاء بعضهم نصارى والبوذيون قوزاق الماغولجهة "بحيرة بيكال" وكل القوازق شجعان بواسل أولو بأس شديد وقوة ، ولهم فروسية خارقة للعادة حتى أن الواحد منهم خصوصاً المسلمون ليركب (واقفاً) وسط ثلاثة خيول أو أربعة ، ويمسك بأعنتها بيديه ويهجم بها كلها من قيام بسرعة كسرعة البرق الخاطف ، وهو ثابت فى مكانه لا يتحرك ولا يتزلزل كأنه الطود الراسخ ، ومنهم من ينط الحاجز والخندق بحصان واحد و ينزل ويركب فى الطريق مراراً أثناء ركض الحصان كأنه عفريت من الجان .

والقوازق على العموم لا يهابون الموت ولا ينكصون أبداً على الأعقاب فإذا اعترضهم نهر فى طريقهم خاضوه ، أو جبل صعدوه وكلهم فرسان خالية بارعون فى الكر والفر، و يلبسون ملابس الجراكسة (جركسكا) وأشهر أنواع القوازق قوازق وهو نهر طوله 2000 فرست يمر فى خمس حكومات من حكومات روسيا ، ويصب فى بحر أزوف وليس كله صالحاً للملاحة ، وعلى بعد غير قليل من مصبه مدينة "نوفوشركاسك" عاصمة هؤلاء القوازق ، وعدد سكانها 55 ألف نفس ورئيسهم يسمى بلسان الروس أتامان . وضباط الجيش فى البر والبحر أكثرهم من أولى النعماء تلوح على وجوههم علائم النجابة والعلم والذكاء ، وملابسهم جميعاً جميلة وفاخرة .

والملابس الأهلية فى روسيا فرتيكه فوق البنطلون وعليها حزام بسيط أو بشرابتين، وقد تكون الفرتيكه بيضاء أو ملونة مطرزة أو غير مطرزة ، ومنهم من يلبس فوقها الجاكيته وللأهالى كاسكيت مخصوصة غير الكاسكيت المستعمل فى أوروبا ، وكذلك الطلبة . ويتردد على لسان الروس غالباً كلمة نيتشيفو (معهلش) والشعب الروسى ساذج بسيط والعامة فى غاية الإنحطاط والهمجية بخلاف الخاصة فإنهم بلغوا أرقى درجات التهذيب وإستنارت عقولهم بالمعارف العصرية . وساروا شوطاً بعيداً فى ميادين الحضارة والمدنية ، والمرأة من الخاصة فى غاية الرقى والتقدم .

ولوكاندة النوم فى روسيا اسمها "جو ستيتسا " ومع ذلك فإن أغلب اللوكاندات الكبيرة مكتوب عليها اسمها باللغة الفرنساوية كما هو الحال فى البلاد الأوربية ، ولو كاندة الأكل تسمى عندهم رستوران . وأجرة النوم فى بعض الفنادق غالية جداً فهى تختلف من ثلاث روبلات إلى عشرة فما فوق .

ومن الغبن الفاحش أن بعض هذه الفنادق لا تكتفي بهذه الأجرة بل تضيف عليها أجرة الغطاء وملآت الفرش وأكياس المخدات والفوط و نحو ذلك ، فهي تمتص دم النازل عندها روسياً كان أو أجنبياً .

ولقد زادت فنادق باطوم روسية كانت أو أرمنية أو كورجية الطين بلة . والطنبور نغمة. فإنها عند تقديم الحساب تضيف على مجموع الأقلام قلماً (للبقشيش) تقدر هي قيمته كما تراه وتجعل دفعه إلزامياً وعلى هذا المثال يكون الحال فى المطاعم الكبيرة فيها .

والأكل فى روسيا جيد ولذيذ وأثمانه معتدلة أعتدال أثمان الأكل فى غيرها ، ولكن ذلك لا يكون إلا فى الأكلة ذات الثمن المحدد فقد يكون هذا الثمن أقل من روبل أو روبلاً ونصفاً بحسب عدد الألوان التى يتناولها الشخص . أما إذا كان الأكل بالطبق (الا كارت) فاستعد للبذل ولا تبخل ولا تلومن بعد ذلك إلا نفسك فقد يكون ثمن الصحن الواحد روبلاً أو روبلين .

ومقدمات الطعام عندهم كالسردين والبطارخ المكبوس والبطارخ الغض (الطازه) والأسماك المملحة المختلفة الأشكال والألوان والسلاطات المتنوعة شئ يفوق الحصر و يحار الإنسان أثناء الأكل أيكتفى بهذه الحوادق الجالبة للشهية أم يجمع بينها وبين غيرها من المآكل الأخرى .

ومن أطعمتهم الأهلية شوربة الكرنب ويسمونها بورش وهم يتناولونها مع الكريمة ويأكلون معها فطائر صغيرة محشوة أو غير محشوة اسمها "بيروجكى " . ولهم شوربة أخرى تقرب من البورش اسمها شئ . ومن مأكولاتهم الأهلية أيضاً شوربة السمك ، وهى على ثلاثة أنواع " أوخا وسيلنكا وأوكرشكا " وهذه الأخيرة لا تؤكل الامبردة بقطع الثلج الصغيرة .

والمياه المعدنية التى تشرب فى روسيا تكاد تكون كلها من نفس البلد ، وهى "بورجوم ونارزان وايسانتوك" نمرة 20 وقد يستغنى الكثير من الروس عن خمر فرنسا

وغيرها من الخمور الأجنبية بما يصنع فى بلادهم من الخمر الجيد كنبيذ القريم ونبيذ بسارابيا ، وفضلاً عن ذلك فإن لهم شامبانية مخصوصة تصنع فى مصانعهم ، ولهم أيضاً شراب يتعاطونه قبل الأكل اسمه فودكا " عرقي " وهو نوعان أبيض ناصع وضارب إلى الحمرة . وفى أغلب البلاد الروسية يباع اللبن الرايب فى زجاجات مسدودة مثل زجاجات الجازوزة ويسمونه كيفير وهو نافع ولذيذ . والأدوية فى روسيا لا تخرج من الأجزخانات إلا إذا كانت ملتصقة بها ورقة جميلة الشكل تحتوى على صورة طبق الأصل من تذكرة الطبيب الذى أمر بها وعلى اسمه . وميزانية الروسيا ثلاثة مليارات روبل و300 مليون روبل أى أكثر من 300 مليون جنية . والحكومة محتكرة الفودكا ودخلها منه وحده 800 مليون روبل أى 80 مليوناً من الجنيهات فى السنة . ولكنه لدى نشوب الحرب الأرباوية صدر أمر قيصرى بإبطال ذلك الاحتكار وبمنع جميع المشروبات الروحية فى روسيا كلها . والحكومة تملك أكثر من نصف السكك الحديدية وإيرادها من ذلك يبلغ 100 مليون روبل أى عشرة ملايين جنية فى السنة .

أما باقى سكك الحديد فى روسيا فبيد الشركات ، والوابورات الروسية نظيفة وحسنة الإدارة وفيها كل معدات الراحة الموجودة فى غيرها من قطارات أوروبا . ومقاعدها تستعمل بالنهار للجلوس وبالليل للنوم بتحويلها إلى أسرة وهى تنهب الأرض نهباً ، وتطوى البيد طيا وقلَ أن تخلو منها جهة من جهات الروسيا فالسكك الحديدية ممتدة فى طول البلاد وعرضها إمتداداً عظيماً ، وكل مجموعة خطوط منها يسمى باسم خاص فخطوط القوقاز تسمى "ترانسيكوكازيات" وخطوط طاشقند وسمر قند وبخارى ونحوها تسمى "ترانسيكاسبيان " وخطوط "سيبريا" . تسمى ترانسيسيبريان وهذه السكة الأخيرة تبتدئ الآن من بطرسبورج وتمر على موسكو ثم تخترق سيبيريا وغيرها من بلاد آسيا حتى تصل إلى "فلاديفوستوك" فى الشرق الأقصى ، والمسافة خمسة عشر يوماً . والقطارات فى هذه السكة من أفخر ما يكون وفيها كل وسائل الراحة والهناء حتى الكتبخانة والحمام .

ويحق لروسيا أن ترفع رأسها وتتباهى على غيرها بسكة "سيبيريا العظيمة " ، فهى لعمرى مفخرة من مفاخرها بل معجزة من معجزات الزمان تشهد للحكومة الروسية بالهمة العالية ، والإقتدار العجيب ، والسبق على الاقران فى حلبة هذا الميدان . والأجرة من "بطرسبورج" إلى فلاديفوستك 337 روبلاً و 60 كوبك فى الدرجة الأولى " نحو 34 جنيها " و 208 روبلاً و45 كوبك فى الدرجة الثانية " نحو 22 جنيهاً " ومن فلاديفوستوك يتفرع خط حديدي إلى "بكين" عاصمة الصين ، وآخر إلى "يوكوهاما" فى بلاد اليابانيين فهكذا تكون الهمم العالية فى ربط أجزاء الأرض ببعضها وتقريب الأبعاد على المسافرين.

ومرتب القيصر فى الشهر مليون روبل (100 ألف جنية) . وما من مزرعة عظيمة أو عمارة فخيمة مررت عليها أثناء طوافى فى روسيا وسألت عنها الأقيل لى أنها ملك لتاج حتى ظننت بعض الظن أثم أن هذا التاج يملك نصف البلاد الروسية لنفسه خاصة . وفى الواقع فإن جلالة الإمبراطور "نقولا الثانى" الجالس الآن على عرش القياصرة أغنى الملوك والسلاطين ولله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

(2)

أخبار ومعلومات عن روسيا

العملة فى روسيا كلها جيدة ولازيف فيها وهى تتركب من " ذهب وفضة و نحاس وورق" ولا يوجد بها الآن نيكل ، ولكنهم عولوا على إدخاله قريباً فيها . فمن الذهب الجنيه ونصف ومن الفضة الروبل ونصفه ، وقطعة بعشرين كوبك وقطعة بخمسة عشر وقطعة بعشرة وبخمسة ، ومن النحاس قطعة بخمسة كوبك وقطعة بثلاثة وقطعة بإثنين وكوبك واحد . ومن الورق ورقة ذات 500 روبل وورقة ذات 100 وورقة ذات 50 وورقة ذات 25 وورقة ذات 10 وورقة ذات 5 وورقة ذات 3 - ويوجد روبل جديد من الفضة منقوشة عليه صورة القيصر الحالى وصورة ميخائيلوف أول قيصر من عائلة رومانوف ولكنه نادر وعزيز .

والجنيه الموسكو فى يساوى 10 روبلات والروبل 100 كوبك (فرنكين و67 سانتيما أو قطعة بعشرة مصر وشئ) والكوبك يساوى ملليماً وكسوراً .

ومسلمو روسيا يسمون الروبل مانات والقطعة ذات العشرين كوبك عباس . فإذا اشتريت من أحدهم شيئاً وكان ثمنه مثلاً 60 كوبك قال لك أن الثمن ثلاثة عباس .

ولا يمكن للسائح فى هذه البلاد أن يعيش عيشة لائقة بأقل من عشرين روبلاً (جنيهين) فى اليوم خلاف مصاريف السفر والإنتقال التى لا تقل فى خط مثل الخط الذى اتبعناه عن 60 جنيهاً براً وبحراً فى الدرجة الأولى . والسياحة فى هذا الخط أى من الإسكندرية إلى القريم والقوقاز وروسيا الأصلية يمكن إتمامها فى ثلاثة شهور ونصف من 15 مايو لآخر أغسطس. لأن البحر الأسود فى هذه المدة يكون هادئاً ولطيفاً وأما بعدها فيصعب السفر فيه لشدة إضطرابه وهيجانه . وللكريدى ليونيه ثلاثة فروع فى روسيا واحد فى أودسا والثانى فى موسكو والثالث فى بطرسبورج وفى البلاد من المصارف الروسية المنتظمة شئ كثير ، ومن أكبر شعراء الروس "بوشكين" ولد فى سنة 1799 فى بلدة اسمها "ميخائيلوفكسي" على بعد 35 كيلو متر من بطرسبورج وقد نفي مرتين أحدهما فى بلدته هذه والأخرى فى القريم ، وقتل فى سنة 1837 فى مبارزة بالقرب من "بطرسبورج " ، بسبب غيرته على زوجته ، وقاتله ضابط بلجيكى اسمه "دانتيس" . وكان جد بوشكين (عربياً) دخل فى خدمة بطرسبورج الأكبر فرقاه إلى رتبة ضابط ، ولما توسم فيه النجابة والذكاء بعث به إلى باريس ليتعلم فيها العلوم العسكرية ، ولما عاد أخذ يترقى فى الجيش الروسى إلى أن وصل إلى رتبة جنرال . فلروسيا إذن أن تفاخر بالعرب وأن تحافظ على علاقات القربى بينناوبينها وصلات النسب .

ولبوشكين الآن تماثيل فى بطرسبورج وموسكو وأودسا ، وفى هذه المدينة الأخيرة منزل نقش على بابه (هنا أقام بوشكين فى سنة 1823) .

ومن كبار شعراء الروسيا " ليرمونتوف " وكان ضابطاً فى الجيش ولد سنة 1841 ونفى إلى القوقاز فى "بياتيجورسك" إحدى مدن الحمامات ، وفيها قتل هو الآخر فى مبارزة سنة 1841 وقاتله ضباط روسى اسمه "ماريتنوف " . وسبب النفى ما كان معلوماً عنه من آرائه وأفكاره الحرة ونظمه لمرثية لصديقه بوشكين طعن فيها على بعض المقامات العالية. وسبب القتل أنه عرض فى أحد المجالس بأحد الضباط حتى أضحك عليه النساء فاستاء الضباط من ذلك واستشاط غضباً ورأى فى نفس التعريض إهانة له ، وطلب من ليرمونتوف أحد أمرين أما الإعتذار فى الحال وأما المبارزة فأبى ليرمونتوف قبول الأمر الأول ورضى بالثانى .

وكانت المبارزة وقتئذ جائزة فى روسيا أما الآن فهى ممنوعة إلا بين ضباط البرية والبحرية ولكن على شرط رضا رؤسائهم وموافقتهم عليها .

ومن مشاهير كتاب الروس "جوجول" وقد مات من نحو 50 سنة ، ومن تآليفه "كتاب الأرواح الميتة " شرح فيه ما كانت عليه روسيا فى الزمن الماضى شرحاً مستفيضاً وكيف كان يستعبد الإشراف فيها الفلاحين المساكين ويسومونهم الخسف والعذاب المهين حتى أنهم كانوا يعدونهم كالسلع والمتاع فيبيعونهم مع الأرض بيع المواشى والأنعام إلى أن جاء القيصرالرحيم أبو الفلاح حقيقة الإمبراطور "اسكندر الثانى " فحررهم من رق العبودية وأزال ما كان من الفوارق بينهم وبين باقى الرعية ، ومن الأسف العظيم أن القيصر الذى خدم الأنسانية أعظم خدمة قتله النهلست شر قتلة ، وهو الذى بنيت على دمه فى المحل الذى قتل ببطرسبورج كنيسة القيامة الفائقة فى الحسن والجمال .

ومن فحول الكتاب " دوستوييفكسي " وقد مات من عشرين سنة ، ومن أشهر مصنفاته كتاب " الجريمة والعقاب" وربما فاق لومبروزو فى بعض مباحثه وفصوله ، وأملنا فى حضرة الفاضل قبعين الذى عنى بتعريب كتاب " الفيلسوف تولستوى فى حكم النبى صلى الله عليه وسلم" أن يشمر عن ساعد الجد ويرينا همته فيترجم كتاب الجريمة والعقاب خدمة للناطقين بالضاد خصوصاً المشتغلين بالقضاء والمحاماة . كما خدم الأمة بترجمة كتاب الحكم المستطاب . وفى روسيا الآن كاتب كبير اسمه " ماكسيم جوركي" .

وعدد سكان الروسيا 160 مليوناً منهم 110 ملايين روسى أرثوذكس و21 مليون مسلم (على الأصح) 10 منهم فى روسية أوروبا والباقى فى روسية آسيا و11 مليون كاتوليك و6 مليون بروتستان و10 مليون من البوذيين فى منغوليا و6 مليون يهود .

وأغلب السكان فى مقاطعتى "كورلاند وليفونيا" من الآلمان رعايا روسيا وبيدهم قسم عظيم من التجارة . وأهل فنلندا متقدمون جداً فى الزراعة وكان لهم أثناء زيارتى لبلادهم فى سياحتى الأولى فى روسيا عملة مخصوصة غير العملة الروسية ، وهم أهل اباء وأنفة وكلهم بروتستانت ، وكذلك أهل بولونيا أخلاقم مشابهة لأخلاق أهل فلندا وكلهم كاتوليك .

وإذا تعلم الروس اللغة الفرنسية أتقنوها وتكلموا بها بطلاقة لسان وحسن بيان ، وزيادة على أن أسماء الدكاكين فى روسيا تكتب باللغة الروسية ومعها اللغة الفرنسية أو الألمانية ، فإن ما يبلغ فيها مرسوم على واجهتها . وللروس رقص مخصوص اسمه رقص قوزاق وهو شبيه بالرقص الحربى .

وقد اصطلحوا فى روسيا على تسمية حكومات " خاركوف وبولتافا وكييف وسيرينجوف بروسيا الصغيرة وموسكو بروسيا الوسطى وأودسا والقريم بروسيا الجديدة " وباقى الحكومات بروسيا الكبيرة .

وثمن الباسبور فى روسيا لمن يسافر من رعاياها إلى الخارج 18 روبلاً ، ومع ذلك لا يعمل به إلا لستة أشهر . أما الذين يسافرون إلى الداخل فيعطى لهم الباسبور مجاناً . وكل روسى يتغيب عن روسيا يدفع عند عودته لها رسماً للباسبور 20 روبلاً عن كل سنة إلا إذا كان تغيبه لطلب العلم أو لمصلحة تعود بالخير على بلاده .

وما اجتمعت بيهودى إلا ورأيته ناقماً على الروس ويشكو بثه وحزنه إلى الله مما يلاقيه من الإضطهاد وسوء المعاملة فى هاتيك البلاد . فإن الحكومة الروسية سنت قانوناً حظرت فيه على اليهودى غير المولود فى بطرسبوج الإقامة بها إلا إذا كان طبيباً أو محامياً ، وحرمت اليهود من التوظف فى الوظائف الملكية العسكرية ، وجعلت عدد التلامذة اليهود فى مدارس الحكومة محدداً فلا يقبل منهم أكثر من خمسة فى المائة بشرط أن يكونا على مصاريفهم ، أنظر كيف أن الروس يحجرون على الحرية الشخصية و يحرمون فريقاً من الناس من حقوقهم الطبيعية خصوصاً فى هذا العصر عصر العرفان والمدنية لاعصر الخشونة والهمجية .

ولكنا أثناء طبع هذا الكتاب علمنا أن جلالة القيصر "نقولا الثانى" عندما تحقق له صدق رعاياه اليهود وإخلاصهم وتفانيهم فى خدمته واستبسالهم فى الحرب الأورباوية منحهم الحقوق المدنية ، وساوى بينهم من الرعية فكأنه نظر إلى ما طلبناه لهم فى آخر هذه الرحلة ، كما سيأتى وإنا لنا بغيتنا وحقق أمنيتنا فلجلالته على هذه المنحة الجليلة وعلى أبطال المسكرات من روسيا الشكر الجزيل والثناء الجميل منا ومن عموم الإنسانية .

والدستور فى الروسيا أيضاً دستور روسى وعمره الآن سبع سنين – وهنا استطراد لا بأس به – ذلك إنى أقترح على من يعنيه الأمر فى مصر أن يأمر حالاً بكتابة لوحتين كبيرتين بالخط الثلث الجميل إحداهما يكتب فيها الآية الآتية (وأمرهم شورى بينهم) وتوضع فى قاعة الجمعية التشريعية جهة الأعضاء ، والثانية يكتب فيها الآية الأخرى (وشاورهم فى الأمر) توضع جهة الرئيس وأن تكون كتابة هاتين اللوحتين على مثال اليفط الموجودة بمحكمة مصر بعضها فى قاعة الجلسة وبعضها فى أودة الرئاسة المكتوبة فيها الآيات الآتية (إن الله يأمر بالعدل والأحسان ، يا أيها الذين آمنوا أوفو بالعقود ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ولكم فى القصاص حياة ، اعدلوا هو أقرب للتقوى) .

وكلها بخط الخطاطين الشهيرين "حسن أفندى سري" و"على أفندى لطفى" . وهذه الآيات جميعها سواء الخاصة بالمحاكم أو بالشورى ليس فيها ما يمس عواطف أحد من

أخواننا النصارى ولا أخوننا اليهود . لأنها لا تتعلق بأمور تعبدية بل بمسائل عمرانية تهم الجميع ومن شأنها أن تذكر القضاة دائماً بالعدل مع الناس كافة على إختلاف أجناسهم وأديانهم ، وتجعلهم لا يحيدون قيد أنملة عن الحق حتى مع عدوهم ، ومن يبغضونه عملاً بقوله تعالى " لا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا " ومن شأنها كذلك أن تذكر نوابنا ورئيسهم بالمشاورة والمذاكرة فى أمر من أمورهم حقيراً كان ، أو جليلاً . فلا يضع أحد منهم كمامة على فمه ويلازم السكوت ولا يغرنه الغرور ولا تزعزعه الأباطيل والأراجيف ، ولا الوشايات والسعايات ولا السخائم والنمائم ولا الدسائس والمكايد ولا الكذب والإختلاق ولا البشاشة والزلفى ولا ضدهما ، ولا الدعوة إلى المآدب والأفراح والولائم ولا الأقبال والأدبار ، ولا أكثر من ذلك بل يضرب بكل هذه الأمور العرضية عرض الحائط ، ويجعل لنفسه رأياً خاصاً فى كل مسألة ، ولا يحجم عن أبدائه ولو بعبارة عامية بكل صراحة وحرية غير هياب ولا وجل ، وأن لا يجرى أبداً وراء رأى الغير وأن لا يقول إلا ما يعتقده حقاً وصواباً ، وأن لا يقرر إلا ما يراه نافعاً لصالح البلد وإلا كان لا معنى للجمعية ولا للإجتماع . ومن أخص واجبات الجرائد نشر المناقشات والمداولات حتى تعرف الأمة قيمة كل نائب من نوابها ومقدار اهتمامه بالشئون العمومية .

وفى استامبول توجد يفط فى المحاكم التجارية وفى بعض مخازن التجارة مكتوب فيها هذا الأثر الشريف " الكاسب حبيب الله " . وللا نجليز شعار قديم وهو " ربى وحقى " يكتب فى بعض جرائدهم باللغة الفرنساوية لا باللغة الانكليزية .

ولنعد الآن إلى ما نحن بصدده لأننا نعترف بأننا خرجنا عن الموضوع وطالما خفف الإعتراف الإقتراف .

الروسيا على العموم بلاد جميلة ولكن أجملها "القريم والقوقاز" فهما الدرة اليتيمة فى تاج القياصرة ، ولا عجب فان المسلمين ملكوا أجمل بقاع الأرض وأخصبها ، ولو كانوا ساسوا ممالكهم بالعدل والحكمة وعاملوا الجميع معاملة واحدة وأحسنوا الإدارة وبحثوا فى كل أمر يعود بالخير على الرعايا ، وأخذوا من التمدن الحديث أحسنه وضبطوا الأعمال صغيرها وكبيرها ولم يفرطوا فى أى شئ من حقوقهم وكافؤا المحسن وجازوا المسئ وسدوا آذانهم عن سماع الوشايات والأكاذيب كما فعل صلاح الدين وطبقوا القوانين من غير وهم لا يقصروا .

مخاباة ولا مراعات لاستقام أمرهم وحفظوا ملكهم، وما جرأ أحد على أن ينظر إليه بعين الطمع أو يمد له يد السوء . فما سقطت الممالك إلا من أهمال أهلها وظلمهم وإنغماس أفرادها فى حمأة الرذائل والشك ، وطرق الحبل على الغارب وعدم الإستعداد الحر———— لأجل المحافظة على كل مملكة يجب على عدم ترك الأمور للصدف والمقادير وأن لا يعولوا على غيرهم ولا يعتمدوا إلا على أنفسهم ، وأن لا يغتروا بزخارف الكلام ، وأن يعدوا لمن يعتدى عليهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل كما هو الحال فى نفس ممالك أوروبا لحذرها وتخزفها على الدوام من بعضها ، وكما يقضى به قانون تنازع البقاء على ظهر هذه الغبراء التى وطئت فيها الآن الذمة بالإقدام وأصبحت العهود و المواثيق حبراً على ورق، وصار شعار القوم فى هذه الأيام خلافاً لما يأمر به كل دين : اللؤم والغدر والخيانة كما

شاهد ذلك الخاص والعام - أين الصدق أيها الناس أين الشرف ؟ - أين الإنسانية ؟ - أين القدوة الحسنة؟ - هل هكذا تكون نتيجة التربية !- ماذا جرى للدنيا؟ - أنزعت الشفقة والرحمة من القلوب! - أم ماتت الضمائر! - ما هذه الدروس التى تلقى الآن على العالم؟ - ألاصلاحه هى أم لافساده ؟ أن كل جهد رجال التربية أصبح عبثاً وكل أتعابهم فى تهذيب رجال الغد وتعويدهم فى الصغر على محبة الصدق والعدل والحق والرأفة بجميع بنى الإنسان من أى جنس وأى دين كان ضائعة سدى .

أيرضى أحد من ذوى القلوب بتلك الفظائع الجهنمية التى حصلت فى عصر العلم والمدنية فى الحروب البلقانية ! أم يصح أن يسكت القوم عنها ويغمضوا الجفون عليها ! أم لم يكن لهم أولاد !- أليست لهم نساء وفلذات أكباد! - أليس فيهم الشيخ الفانى ؟ أ إلى هذا الحد يجهلون أن الكل إنسان وأن هذا الإنسان مهما كان يحب الرفق به ومعاملته على الأقل ولو ببعض الشفقة التى يعامل بها الحيوان :

ما لقينا من غدر دنيانا فلا كانت ولا كان أخذها والعطاء

ولقد رسم القرآن للمسلمين تلك الخطط القويمة خطط الإستعداد للعدو وغيرها من الخطط الحكيمة التى تضمن لهم سعادة الدارين ، ولكنهم أختلفو أو قصروا أو أهملوا أو أشتغلوا بالقشر دون اللب ، وقدموا العرض على الجوهر فكان ما كان وحقت عليهم أحكام الزمان .

ومسلمون روسيا من تتار وجركس وداغستان وغيرهم ، هم من غير مبالغة أشد مسلمى الأرض تمسكاً بدينهم وتعلقاً بأهدابه وأكثرهم غيرة عليه ، ومحافظة على سننه وآدابه. وهم حاصلون الآن على حقوقهم السياسية والمدنية ولهم فى روسيا المكانة الثانية من بين 128 عنصراً تتألف منهم الدولة الروسية ، وكلهم أمم حربية أشتهروا بالشجاعة والرماية ، والروسية طالما خدموا روسيا الخدمات الجليلة وبرهنوا مراراً فى الحروب على ولائهم وشدة إخلاصهم ، أظهروا بسالة عجيبة حتى أن الحكومة رقت الكثيرين منهم إلى رتب القواد فى الجيش الروسى ، ومنهم ضباط فى فرقة فرسان الحرس القيصرى الخاص لما أمتازوا به من الولاء التام والأمانة والإخلاص والأقدام .

وفى حرب الروسيا مع اليابان سلمت قيادة فرقة مؤلفة من ستة آلاف عسكرى كلهم روس نصارى أورتودكس إلى جنرال مسلم .

ومن المسلمين جيل يقال له ـ القارغيز والباشكير ـ يقيمون فى جبال أورال فى أوروبا وآسيا وعددهم ستة ملايين . والروس يسمون العالم الكبير من علماء المسلمين أخون والصغير منلا . وأكثر المسلمين الروسيين مشهورون باقراء الضيف حتى كأنهم المعنيون بقول القائل .

ياضيفنا لو جئتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل

وعندما يزور أمير بخارى القيصر يستقبله بكل إعظام وإجلال وإكرام وتتبادل

بينهما خطب الولاء ورجال الإصلاح المسلمون ولا سيما الشيوخ والتجار مهتمون كل الاهتمام بنشر التعليم بين الأفراد وتنوير الأذهان بالعلوم الحديثة ، وبالجملة فإن مسلمى روسيا ناهضون الآن نهضة حقيقية تعود عليهم بالعز والفخر مدى الدهر . وهم لا يقصرون هممهم على تعليم البنين بل يعتنون أيضاً بتربية البنات ، ولا يكتفون بتعليم أبنائهم فى بلادهم بل يرسلون كثيراً منهم إلى «الاستانة ومكة والمدينة ومصر» .

وعندنا مجموعة رسوم تمثل مسلمى القوقاز والتتار والكورج وبعض نصارى الروس بملابسهم الأهلية بعثنا بها إلى إدارة المؤيد ليطلع عليها من يشاء ، وكذلك أرسلنا إليها جريدة كورجية وجريدتين تنشران فى القوقاز باللغة التركية .

(أحدهما) تطبع فى تفليس واسمها منلا نصر الدين وقد صور فيها جلالة السلطان «محمد رشاد الخامس» بصفة شخص فإن أحنت الستون ظهره وأثقلت الحوادث والكوارث كاهله لابساً اطماراً بالية مرقعة ، وناقلاً أمتعته من الأستانة إلى الأناضول ، وأمامه إمبراطور الألمان مسلماً عليه سلاماً عسكرياً ، ولكن السلطان ولله الحمد باقى فى القسطنطينية وسيبقى بها إن شاء الله هو وآل بيته الكرام إلى الأبد .

وفى هذه الجريدة رسموا عجمياً يضرب بالبلطة إمرأة أفرنكية لينفروا أوروبا من العجم، ويرغروا صدرها عليهم ولكنى علمت أن كل هذا كذب وبهتان . (والثانية) تطبع فى باكو واسمها شلالة وفيها صورة الشاعر التركى الكبير «عبد الحق حامد بك» وصورة مثل مقتل الشهيد العظيم « محمود شوكت باشا» ورسم منابع البترول فى باكو .

وهنا يجدر بى أن أتكلم على ثلاثة أشياء لو لم تكن فى الروسيا لكانت كلها محاسن ، وهى الباسبور وإضطهاد اليهود وعداوة الروس للدولة العثمانية .

فإذا ألغت الروسيا الباسبور وجعلت الدخول والخروج فى بلادها حراً تشبها بغيرها من الأمم المتمدنة قصدها الناس من كل فج ، وعاد عليها ذلك بكثر من الفوائد الإقتصادية والمنافع الأدبية ، ولا خوف عليها من أشرار الأجانب لأن لديها من القوة ما يكفى لردع كل من يجرأ على إنتهاك حرمة القانون أو يخل بالنظام العام .

وإذا كفت عن إضطهاد اليهود ومنحتهم الحقوق الممنوحة لغيرهم من العناصر الروسية وتركتهم أحراراً يروحون ويغدون كما يشاءون ، ولم تحجر على حريتهم الشخصية وجعلت شعارها دائماً «الدين لله والوطن للجميع» نفعوها وأخلصوا لها وتحدثوا بفضلها عليهم وشكروا منتها ، وتباهوا بالإنتساب إليها وافتخروا برعويتها خصوصاً وأنهم لا يعرفون لهم وطناً غير روسيا وقد مضت عليهم فيها القرون الطويلة وهم لا يتكلمون لغة غير لغتها فهم رعاياها وفى ذمتها ، ويحق لهم جميعاً أن يتمتعوا فى الداخل والخارج بحمايتها .

وإذا صافت الروسيا الدولة العثمانية وتركتها تعيش كما تحب هى أن تعيش وكفت عن خلق المشاكل لها ووضعت حداً لمطامعها ، وإكتفت بملكها العظيم وبما هى فيه من رغد ونعيم ، ومدت يدها إلى الأتراك وصافحتهم وسالمتهم تناسوا الماضى لأنهم شعب

حسن النية سليم الطوية ، وعادت هذه المصافاة على الطرفين بفوائد لا تحصى ومزايا لا تستقصى .

ألم تكن فرنسا وانجلترا عدوتين قديمتين؟ - ألم يحول الملك أدوارد بحنكته وحذقه ومهارته تلك العدواة الشديدة إلى صداقة متينة مع إختلاف أخلاق الأمتين وتباين الدين فيهما . بروتستان وأولئك كاتوليك ، وكل مذهب منهما ينظر إلى الآخر بغير العين التى ينظر بها لنفسه - ألم تتحالف انجلترا مع اليابان وهذه دولة وثنية وتلك مسيحية؟ .

فمتى يوجد فى الروسيا رجل نبيل القصد كريم السجايا يحذو حذو الملك أدوار ويرجع عن تلك التقاليد البالية العتيقة و يحول عدواة تركيا إلى صداقة حتى يستريح العالم من تلك القلاقل التى مجتها الأذواق وملت من سماعها الآذان؟ .

وما بكثير ألف خل وصاحب   وأن عدوا واحداً لكثير

فإذا غيرت الروسيا خططها القديمة وإنتهجت خططاً جديدة معقولة بأن ألغت الباسبور وعاملت اليهود بالرفق واللين ، وصادقت العثمانيين تحسنت أسعارها وإرتفع منارها ، وطاب فى الخافقين ذكرها وفاح فى كل مكان شذاها وأحر الناس جميعاً وبلغت فى المجد منتهاها .

وإذا أحب الله يوماً دولة   ألقى عليها محبة للناس

ومدارس روسيا زاهية زاهرة بالعلوم والأداب . والعربجية الروس يلبسون كلهم رداء واسع الأردان أشبه شئ بالجبة والقفطان . وفى أثناء السير فى روسيا بالقطار لا يقع نظرك إلا على مروج خضراء تسر الخواطر وتقر الأنظار على أنه مهما كانت الروسيا وعظمتها وأوروبا وبهجتها ، ومدنيتها فليس فى نظر المصرى بلاد أجمل من مصر . ورحم الله "مصطفى باشا كامل" القائل :

بلادى بلادى لك جسمى وفؤادى لك حبى وودادى لك قلمى ومدادى لك عقلى ورشادى لك صحوي ورقادى لك قربى وبعادى فأنت أنت البلاد المحبوبة يقيناً وليس فى الدنيا بلاد أجمل ولا أفضل منك فى ملتى وأعتقادى .

ولكن كل هذا لا يمنع من السفر إلى بلاد الغير للنظر والإعتبار والإستفادة والإختبار .

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه   واتعب فإن لذيذ العيش فى التعب

وأعلم بأن وقوف الماء يفسده   أن ساح طاب وأن لم يجر لم يطب

الأسد لولا فراق الغاب ما أفترست   والسهم لولا فراق القوس لم يصب

الشمس لو وقفت فى الفلك دائمة   تملها الناس من عجم ومن عرب

التبر كالترب ملقى فى أماكنه   والعود فى أرضه نوع من الحطب

فإن تغرب هذا عز مطلبه   وإن تغرب هذا عز كالذهب

ولقد نشرت "جريدة المؤيد الغراء" هذه الرحلة بأكملها فى تسعة أعداد منها فى أوائل سنة 1914 ، وجاء بعد ذلك فى العدد الصادر منها فى 4 مارس من السنة المذكورة ما يأتى تحت عنوان :

تحية الإعجاب

" إلى المؤرخ رشاد بك "

لقد كان من حظ المؤيد أن يكون على الدوام معرضاً يعرض فيه حضرة العالم المفضال والرحالة الكبير والمؤرخ الشهير "محمود بك رشاد" رئيس محكمة مصر الأهلية سابقاً . نفائسه وخزانة موثوقاً بها لرصد ذخائره العلمية ورحلاته إلى دانى البلاد وقاصيها لمحض خدمة الأمم الشرقية . ولسنا الآن فى مقام تعداد ما أفادت رحلات هذا المؤرخ من تهيئة النفوس المصرية على الخصوص لإستطلاع ما أوجب رقى الأمم ، وسبب إنحفاضها فإن رحلتيه الأخيرتين اللتين نشرها المؤيد عن الدولة العلية وروسيا حركتا فى النفوس لواعج الأشجان على زمن كان فيه السبق للمسلمين فى جوب الأمصار ، وإقتحام الأخطار لإقتناص مدينة الأمم وصقلها بصاقل من عوائد وأخلاق العرب مما دعا إلى تفوقهم فى زمن قصير ، على غيرهم فى كل شئ .

ولقد تنبه حضرة الغيور الفاضل «مصطفى بك نجيب» وكيل النائب العمومى . إلى أن رجلاً عظيماً مثل « محمود بك رشاد» يجب أن يشجع على عمله العظيم بكلمة شكر فأرسل إلينا بالرسالة الآتية موجهة إلى مؤرخنا الرحالة بالنيابة عن الأمة فرأينا أن ننشرها مع الشكر وهذا نصها .

يسر كل وطنى أن يرى أفراداً من مواطنيه يقومون لإعلاء شرف وطنهم ، و يجدون فى تجديد معالم فخرهم لأنه قد مضى علينا زمن أهملنا فيه كل شئ فخربنا فيه هذا البناء المشيد الذى تركه لنا أسلافنا العظام ، وطمسنا بتهاوننا آثار هؤلاء الأجداد الفخام الذين أجتهدوا فى البحث والتنقيب والكد فى مناكب الأرض والجد وراء الرزق ، والسعى لإزدياد درجة العمران و يحق لنا الآن أن نفتخر برحالتنا الفاضل الذى جدد عصر «ابن بطوطة» فى الإسلام ألا وهو العالم القانونى « محمود بك رشاد » فإنه فضلاً عن المتاعب الجمة والمصاعب الشديدة التى يلقاها فى السفر فإنه لا يبخل بالمال ولا بالوقت للتجول فى البلاد المتنوعة إلا رجاء الحاوية لمختلف الأجناس . فإن كتاباته عن السياحات المتنوعة فضلاً عن أنها مفيدة فى ذاتها من حيث الوصف والوقوف على حالة البلدان ففيها من العظات الكبيرة المدهشة التى تأخذ بلب الإنسان لما فيها من الحكمة البالغة ، والملحوظة الكاملة خصوصاً عندما يصف داء قومنا وما آلت إليه حكومات الشرق مع الأسف من الفساد والاستبداد حتى وصلت لهذه الدرجة التعيسة ، مع أن الطبيعة لم تضن على الشرق بأحسن العوامل فقد نبغ فى هذه الأراضى كبار الرجال من أنبياء ومرسلين ، وفلاسفة عظام تتفاخر بهم حتى الآن

الإنسانية فحق لنا أمام هذا الرحالة الكبير أن نفتخر بأفكاره ، ووجب علينا أن نأخذ بنصحه الخالص لأن مثل هذا الهمام كمثل الطبيب الماهر أمام جسم فى خطر هائل . فأرى أن من الواجب على أمتنا أن تشجع أبناءها المخلصين وتعضدهم لأن أحسن وسيلة للإكثار من المفكرين المجتهدين إناس من الأمة بكل الوسائل ، وإنتهز هذه الفرصة لأعرض أننا فى حاجة عظيمة لمثل هذه الدروس التى ألقاها علينا هذا الكاتب العظيم . لأنها مملوءة بما نسميه بعلم الفلسفة الإجتماعية ، فإذا قام كل بعمل نافع مفيد كهذا كل على حسب استعداده وقوته لتغيرت حالتنا الإجتماعية ، وطرقنا طريق الحياة الصحيحة أكثر الله فينا رجالاً مخلصين قادرين عاملين كصاحب هذه الأسفار المفيدة .

مصطفى نجيب

وكيل النائب العمومى لدى المحاكم المختلطة

الفهرس

